

ميغيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno



Niebla

ترجمة:

إدريس الجبروني و محمد القاضي

ميغيل دي أونامونو

Miguel de Unamuno

ضباب

Niebla

رواية

ترجمة:

إدريس الجبروني ومحمد القاضي

الـكـتـاب : ضباب
الـمـؤلـف :ميغيل دي أونامونو. ميونيخ
تـرجـمـة : إدريس الجبروني ومحمد القاضي
الغلاف : لوحة الفنان ع. القادر الجبروني/ ميونيخ.
الـنـاشـر : ليتـوغـراف
الـطـبـعـة : الأولـى (2013)
الإيداع القانوني : 2013 MO 2404
ر د م ك : 978-9954-503-22-5
الـسـحـب : مطبعة ليتوغراف - طـنـجـة (+212 (0) 539 33 63 56/57)


تم نشر هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة الإسبانية
GOBIERNO
DE ESPAÑA
MINISTERIO
DE CULTURA

I

عندما بدا أوغوسطو في باب منزله، مد دراعه اليمنى، وكفه مبسوطة إلى تحت، نظر إلى السماء، وظل واقفا كالتمثال. لم يأخذ موقفا من العالم الخارجي، بل كان يلاحظ هل سيهطل المطر. وعندما أحس بالبرد على ظهر يده قضب حاجبيه. ولم يكن ليتضايق من القطرات المطرية الخفيفة، بل من فتح المطرية الأنيقة والرشيقة التي كانت مطوية داخل غمدها. إن مطرية مسدودة تكون أنيقة، مثل المطرية المفتوحة تكون قبيحة.

«من التعاسة أن يجعل المرء الأشياء في خدمته -فكر أوغوسطو- وأن يستعملها حتى تخسر إلى درجة تدمير جمالها. إن الوظيفة النبيلة للأشياء هي أن نشاهدها ونتأملها. كم هي جميلة البرتقالة قبل أكلها. هذا سيغير نظرتنا إلى السماء، عندما ستختزل مهمتنا، أو ستتوسع إذا تأملنا في الله وفي الأشياء التي توجد من خلاله. هنا، في هذه الحياة البئيسة لا نقوم بأي شيء غير التوكل على الله، وأن يحفظنا من كل شر.»

هكذا خاطب نفسه، وانحنى ليتني سرواله. فتح المطرية برهة، وبقي لحظة يتأمل: «والآن، إلى أين أسير؟ يمينا أم يسارا؟ لأن أوغوسطو لم يكن سائرا، بل متجولا في هذه الحياة. «سأنتظر أن يمر كلبا -قال مخاطبا نفسه- وسأسير في اتجاهه.» فمرت أمامه فتاة جميلة وقوية، ومن أجل عينيها سار خلفها، دون أن يدري أوغوسطو إلى أين.

هكذا من شارع إلى آخر.

«لكن هذا الولد -كان يقول أوغوسطو، الذي لم يكن يفكر، بل يتحدث مع نفسه-، ماذا سيفعل هناك، إذا وجد نفسه بغتة ملقى على الأرض؟ أن يتأمل نملة، آه، حشرة، أكثر الحيوانات نفاقا! لا تفعل شيئا غير التنزه، والتظاهر بالعمل المضني. مثل ذاك الكسول الذي يمشي بخطى مثقلة، كأنه يحمل أثقالا، ويحتك بمن يجد في طريقه، و ليس لي أدنى درة من الشك، أن ليس له ما يعمل. ماذا يعمل! إنه كسول، كسول مثل... لا، أنا لست كسولا! خيالي لا يرتاح. الكسالى هم الذين يدعون أنهم يعملون، و الحقيقة أنهم لا يقومون بأي شيء، غير التشويش وخنق التفكير. لننظر في الأمر، إن هذا الرجل بائع الشكولاتة الذي لا يستحق الاحترام، يقف خلف الواجهة الزجاجية، ليجعل لحلواه شكلاً كي تلفت الأنظار، لكي نراها، يتظاهر بالعمل، أليس أنه كسول؟ أما نحن، لا يهمنا أن يعمل أو لا؟ العمل! العمل! نفاق! إن عمل هذا المشلول المسكين الذى يمشى هناك، يكاد يزحف... لكن وماذا أدري أنا؟ أعذرني يا أخي! -قال بصوت مرتفع- أخي؟ في أي شيء؟ في الشلل! يقال إننا جميعا من آدم و حواء. وخواكينيطو، كذلك هو ابن آدم؟. وداعا يا خواكين! ها هي السيارة التي لا يمكن أن نتفاداها، الضجيج والغبار! وماذا نستفيد من إلغاء المسافات؟ عادة السفر تأتي من كراهية الأمكنة وليس من محبتها، الذي يسافر كثيرا يهرب من كل مكان يغادره، ولا يبحث عن مكان يصل إليه. السفر... السفر... المطرية بهتان زائف و مزعج... أخرس، ما هذا؟».

وتوقف عند باب المنزل الذي دخلت إليه الفتاة الحسناء التي سحرته بعينيها. إذ ذاك شعر أوغوسطو أنه كان يتبعها و لم يكن يدري. كانت حارسة العمارة تنظر إليه بعينين شريرتين، تلك النظرة أوحت لأوغوسطو بما يجب عليه أن يفعله. «هذه العشبة المسمومة، انتظر -قال لنفسه- سأسألها عن اسم هذه الآنسة عن ظروفها، وعما تفعله هنا، حقيقة هذا ما سأفعله الآن، وإلا سيكون مجيئي من ورائها بدون فائدة و تتويج، هذا لن يحصل، الأعمال يجب أن تكتمل. أكره ما هو غير تام». أدخل يده في جيبه و لم يجد سوى درهماً واحداً.

و لم يكن بوسعه أن يبحث عن من يصرفه، قد يضيع الوقت والمناسبة السانحة. وبدون أن يخرج أبهمه وسبابته من جيبه قال يخاطب البوابة:

– أيتها المرأة الطيبة، هل بوسعكِ أن تخبريني، وبملء الثقة –وفيما بيننا– عن اسم الفتاة التي دخلت هذا المنزَل الآن؟

– ليس في هذا سر، ولا شر يا سيدي.

– ولهذا السبب.

– تدعى إوخينيا دومينغو ديل أركو.

– دومينغو؟ لعل اسمها دومينغا ...

– كلا يا سيدي دومينغو... دومينغو هو لقبها العائلي الأول.

– ولكن عندما يتعلق الأمر بالنساء ينبغي أن يصحح هذا اللقب كي يصبح دومينغا. وإلا فأين التوافق؟

– لا أعرفه يا سيدي.

– قولي لي... قولي لي يا أيتها المرأة الطيبة.. –قال هذا دون أن يخرج إبهامه وسبابته من جيبه– كيف تخرج هكذا وحدها؟ هل هي عزباء أم متزوجة؟ وهل لها أبوان؟

– إنها عزباء ويتيمة وتقيم مع عمتها.

– أقارب من جهة الأم أم الأب؟

– لا أدري سوى أنهم أقارب.

– هذا يكفي ويزيد.

– وهي تكرس أوقاتها لتعليم العزف على البيانو.

– وهل تجيد العزف عليه؟

– لا أعلم أكثر من هذا.

– حسن، حسن. هذا فيه الكفاية. وتقبلي هذا مني مقابل إزعاجك.

– شكراً يا سيدي، شكراً. وهل من خدمة أخرى أقدمها لك؟ هل أستطيع أن أفيدك بشيء؟ أترغب في أن أنقل لها رسالة منك؟

– لربما... لربما.. ولكن ليس الآن.. إلى اللقاء.

– اعتمد على خدماتي يا سيدي، وثق من كتماني للسر.

كان أوغوسطو يخاطب نفسه وهو يبتعد عن بوابة البناية قائلاً –ها أنت

ترى يا سيد كيف تعلقت بهذه الفتاة الطيبة. لا أستطيع ترك الأمر هكذا. وإلا ما عساها أن تقول عني هذه البوابة الطيبة النموذجية؟ وكيف.... إوخينيا دومينغا، أقول دومينغو ديل أركو؟ حسن جداً. سأسجل هذا عندي لئلا يحدث أن أنساه. ما من شيء يقوي الذاكرة كسجل الجيب. هذا ما طالما ردده ألونسو الطيب الذكر. لا تحمل الرأس ما يستطيع الجيب حمله. ويمكن أن نضيف على هذا:

«لا تضع في الجيب ما يقوى الرأس على حمله» والبوابة ما اسمها؟

ورجع بضع خطوات إلى الوراء وقال:

- أخبريني عن شيء آخر، أيتها المرأة الطيبة.
- أنت تأمر يا سيد.
- وما هو اسمك؟
- أنا؟ مرغريطا.
- حسن جداً حسن جداً. وشكراً.
- لا شكر على واجب.

وتابع أوغوسطو سيره. وبعد قليل كان قد وصل إلى منتزه لا ألاميدا، كان المطر الخفيف قد توقف، فأغلق مطريته، ووضعها في غمدها. وتقدم إلى أحد المقاعد، وحين لمسه بيده تبين له أنه كان مبللا، فأخرج صحيفة كانت معه ووضعها فوقه وجلس. ثم أخرج قلماً، راح يتأمله ويقول: هذه أداة مفيدة، وإلا فقد كان عليّ أن أسجل بقلم الرصاص اسم تلك الفتاة. وقد يمحى. هل سيمحى خيالها من ذاكرتي؟ ولكن كيف هي؟ كيف هي إوخينيا الحلوة؟ أنا لا أذكر إلا عينين.. أحسست بوقع عينين... بينما كنت شارد الذهن اصطادت قلبي عينان بحلاوتهما. ولنرى إوخينيا دومينغو ديل أركو. دومينغا وسوف لن أوافق على أن تسمى هكذا دومينغو. كلا يجب أن أغير لقبها، وأن تدعى دومينغا. ولكن أطفالنا الذكور هل سيحملون لقب دومينغا كلقب ثان؟ وكيف يحذف لقبي العتيد بيريث ويستعاض عنه بحرف ب فهل سيدعى بكرنا أوغوسطو بدومينغا؟ ولكن.. إلى أين ستبلغ بي أيها الخيال

المجنون؟» ثم سجل في سجله إوخينيا دومينغا ديل أركو، محج ألاميدا رقم 58، وفوق هذه الكتابة كان بيتان من الشعر:

من المهد يأتينا الحزن،
وكذلك من المهد يأتي الحبور.

ثم قال لنفسه: إوخينيا، معلمة العزف على البيانو قد قطعت عليّ بداية قصيدة رائعة بلقائي بها، لقد قطعتها. قطعتها؟ أجل لقد بقيت مبتورة.. الإنسان لا يفعل شيئاً سوى البحث في الأحداث وتقلبات الحظ عن غذاء لحزنه وسروره الطبيعيين. إن حالة بعينها هي محزنة أو سارة حسب استعدادنا الفطري. وإوخينيا؟ ينبغي أن أكتب لها، ولكن ليس هنا، بل في البيت، هل أذهب إلى النادي؟ كلا إلى البيت، إلى البيت. مثل هذه الأشياء في البيت، في المنزل.. منزل؟ بيتي ليس كذلك.. منزل. منزل... هو محفظة رماد، على الأصح. آه، يا إوخينيتي» وعاد أوغوسطو إلى البيت.

II

عندما فتح له الباب خادمه...

أوغوسطو كان ثريا ويعيش وحيدا، لأن أمه العجوز كانت قد توفيت منذ ستة أشهر، كان يعيش معه خادم وطباخة، كانا قديما في خدمة أبناء الآخرين الذين عاشوا في هذا البيت. كان الخادم والطباخة متزوجان، ولم يكن لهما أبناء. حين فتح له الخادم الباب، سأله أوغوسطو إن كان قد جاء أحد يسأل عنه أثناء غيابه.

- لا أحد يا سيدي.

كان السؤال والجواب كالمعتاد، إذ يكاد لا يزوره أحد في منزله.

دخل إلى مكتبه، أخذ ظرف وكتب عليه: «إلى الآنسة ضونيا إوخينيا دومينغو ديل أركو.» وفي الحين، وأمام الورقة البيضاء، وضع رأسه على يديه، وغمرتيه على المكتب، وأغمض عينيه. «لأفكر أولا فيها»، قال مخاطبا نفسه. وأجهد نفسه ليقبض في الظلام بريق تلك العينين الأخريين اللذين سيجرانه بالصدفة إلى حظه.

مكث هكذا برهة، يستحضر صورة وشخصية إوخينيا، وكأنه لم يكد يراها، كان عليه أن يتخيلها. وبفضل هذا الجهد الاستحضاري بدأت تظهر في خياله صورة شخصية محاطة بحلم عجائبي. وبقي نائما. بقي نائما لأنه سهر الليل كله، قضى ليلة سيئة، بسبب الأرق.

– سيدي!
– آه –صاح مستيقظا–.
– الغذاء جاهز.

هل أيقظه صوت الخادم؟ أم الشهية، وأن الصوت لم يكن سوى الصدى الذي أيقظه من النوم؟ ألغاز سيكولوجية! هكذا اعتقد أوغوسطو، متوجها إلى مائدة الغذاء مخاطبا نفسه: «آه، السيكولوجية!».

تناول طعام غذائه اليومي بلذة قوية: بيض مقلي، شريحة لحم وبطاطس، وقطعة جبن من نوع «غروييري». بعد ذلك تناول قهوة وتمدد في الكرسي المتحرك. أشعل سيغاراً من نوع هابانا، حمله إلى فمه، قائلا لنفسه: «آه يا إوخينيتي» وأعدَّ نفسه للتفكير فيها.

«إوخينيتي، أجل، هي لي –مخاطبا نفسه– هذه التي شكلتها وحدي، ليست هي الأخرى، ليست من لحم وعضم، ليست تلك التي مرت أمام باب منزلي، التي كان ظهورها عفويا! ظهور عفوي؟ ما هو منطق ظهور كائن غير طبيعي؟ هذه الصورة التي تشكلها سحابة دخان سيجارتي. الصدفة! الصدفة هي الإيقاع الحميمي لهذا العالم، الصدفة هي روح الشعر. آه يا إوخينيتي التي صادفتها! هذه حياتي الهادئة، الرتيبة، المتواضعة، إنها قصيدة غنائية منسوجة بألف أشياء تافهة لما هو يومي. ما هو يومي! خبزنا اليومي، امنحه لنا اليوم! امنحني يا ربي الأشياء الصغيرة التي تدهشنا كل يوم. الإنسان لا يستسلم أمام المصائب الكبيرة، ولا أمام المسرات الكبيرة، وذلك، هو أن تلك المسرات والمصائب تأتي مختفية في ضباب كثيف من أحداث. الحياة هكذا، ضباب. الحياة كلها، يكتنفها الضباب. الآن خرجت منه إوخينيا. من هي إوخينيا؟ آه، و الآن أدرك أنني كنت أبحث عنها منذ زمن. وطالما كنت أبحث عنها اعترضت طريقي. أليس هذا أنني وجدت شيئا؟ عندما يكتشف المرء ظهور كائن غير طبيعي كان يبحث عنه، ويأتي للقائه؟ هل خرجت القارة الأمريكية بحثا عن كولومبس؟ ألم تأتي إوخينيا تبحث عني أنا؟ إوخينيا! إوخينيا!

إوخينيا!»

وهكذا وجد أوغوسطو نفسه يلفظ اسم إوخينيا بصوت مرتفع. لما سمعه خادمه يناديه، حين مر أمام قاعة الأكل دخل عنده قائلا:

– هل تطلبني سيدي؟

– لا، أنت لا، اخرس، هل اسمك دومينغو؟

– نعم، سيدي –أجاب دومينغو بدون غرابة عن السؤال الذي وجه إليه–.

– ولماذا تدعى دومينغو؟

– لأنهم يدعونني هكذا.

«طيب، طيب، –قال مخاطبا نفسه أوغوسطو– يدعوننا كما نسمى. في أزمنة هوميروس كانت للأشخاص وللأشياء اسمان، اسم يطلقه الناس على الأشخاص، واسم تطلقه عليهم الآلهة. كيف سيسميني الله؟ ولماذا لا أحمل أنا اسما مغايرا للذي يناديني به الآخرون؟ ولماذا لا أدعو إوخينيا باسم مختلف عن الذي يدعوها به الغير، الذي تدعوها به مرغريطا بوابة العمارة؟ ما الاسم الذي سأدعوها به أنا؟

يمكنك الانصراف –قال للخادم–.

نهض من الكرسي المتحرك، وتوجه إلى مكتبه، أخذ القلم بدأ يكتب:

آنستي:

في نفس هذا الصباح، تحت سقوط المطر الحلو الخفيف من السماء، مررت أمامي، ظهورك العفوي أمام البيت الذي أسكنه، والآن ليس لي بيت. عندما استيقظت، ذهبت إلى باب منزلك، حيث أجهل إن كان لك بيتا أم لا. لقد حملتني إلى هناك عينيك، عينيك اللامعتين كنجمتين توأم في الضباب الكثيف الذي يغطي دنياي. أعذريني يا إوخينيا، واسمحي لي أن أدعوك بهذا الاسم الحلو، اعذريني عن هذه الكلمات التي يغلب عليها شعوري وانفعالي. أنا أحيا إلى الأبد في الشعر الغنائي الصغير جدا.

لا أعرف ما أضيفه. نعم، نعم، أعرف. لدي الكثير، الكثير ما أقوله لك، لكن أفضل إرجاءه إلى لقاءنا، وسنتكلم، هذا ما أتمناه الآن، أن نلتقي، أن نتحدث في أمور كثيرة، أن نتراسل، أن نتعارف. فيما بعد... فيما بعد، الله وقلوبنا سيحددان مستقبلنا!

ستصغينني، إذن، يا إوخينيا، الحلوة التي ظهرت في حياتي اليومية، ستمنحينني أذنيك؟

الغارق في ضباب حياته ينتظر جوابك.

أوغوسطو بيريث.

ووقع الرسالة مخاطبا نفسه: «تعجبني هذه العادة بالرغم من تفاهتها.»

أقفل الرسالة وانطلق في الشارع.

«حمدا لله –قال متوجها إلى شارع ألاميدا–»، أحمد الله أنني أعرف إلى أين أنا ذاهب، ولدي الآن إلى أين أتوجه! إن إوخينيتي نعمة من الله. منحتني غاية، وعلامة وضعت حدا للتيه في الشوارع. الآن لدي بيت آوي إليه؛ ولدي البوابة التي تبوح لي بكل شيء... مخبرتي»

بينما كان يتكلم مع نفسه، مرت أمامه إوخينيا و لم ينتبه إلى تلك العينين اللامعتين. الضباب الروحي كان كثيفا جدا. بينما نظرت إوخينيا إليه بإمعان مخاطبة نفسها: «من يكن هذا الشاب؟، يبدو أنه من عائلة ثرية!» ودون أن تدرك بوضوح، أن أحدا كان يتبعها ذات صباح. النساء يعرفن دائما متى ينظر إليهن، حتى ولو كن لا يلبسن الجواهر، ومتى يُنظرن إليهن دون إثارة الانتباه.

وتابعا أوغوسطو وإوخينيا سيرهما في اتجاه معاكس، قاطعين بروحيهما نسيج العنكبوت الروحي للشوارع المتشابكة. لأن الشارع يشكل نسيجا تتقاطع وتتبادل فيه نظرات الرغبة، واللامبالاة، والعطف، والحب، والكراهية، وكلمات قديمة، التي بقيت روحها صافية، وأفكارها، وطموحها، نسيج كله

غموض يلف أرواح جميع المارة.

وأخيرا وجد أوغوسطو نفسه مرة أخرى أمام البوابة، أمام ابتسامة مرغريطا. أول شيء قامت به لما رأته، هو إخراج يديها من جيب مئزرها.

- مساء الخير يا مرغريطا.
- مساء الخير يا سيدي.
- أوغوسطو، يا أيتها المرأةالطيبةاسمي أوغوسطو.
- ضون أوغوسطو -أضافت هي.
- ليست كل الأسماء يطابقها ضون-لاحظ هو-. وهكذا، بين خوان وضون خوان هناك فرق شاسع، مثله يوجد بين أوغوسطو وضون أوغوسطو. لكن... فليكن! هل خرجت الآنسة إوخينيا؟
- نعم، منذ لحظة.
- في أي اتجاه؟
- من هناك؟

وإلى هناك توجه أوغوسطو. وعاد بعد لحظة. نسي الرسالة.

- من فضلك سيدة مرغريطا، أتسلمين هذه الرسالة إلى نفس تلك اليدين البيضاويتين للآنسة إوخينيا؟
- بكل فرح.
- لكن، أن تسلمينها إلى نفس يديها، إلى يديها العاجيتين مثل مفتاح معزف البيانو الذي تلمسه.
- نعم، أعلم ذلك من المرات السابقة.
- من مرات أخرى؟
- من مرات أخرى؟ ماذا تعني بمرات أخرى؟
- لكن، هل تعتقد سيدي أن هذه الرسالة هي الأولى من نوعها...؟
- من هذا النوع؟ سيدتي هل تعلمين ما نوع رسالتي؟
- طبعا. مثل الرسائل الأخرى.
- مثل الأخرى؟ مثل أي رسائل أخرى؟
- الكثير من الرجال تقدموا للزواج بها.

- والآن، أليس لها معجبين بها، يريدون الزواج بها، هل هي شاغرة؟
- الآن؟ لا، لا يا سيدي، لها علاقة ما... بأحد، وأعتقد أنه يطمح إلى الزواج بها... ربما أنها تختبره... يمكن أن تكون لها علاقة به مؤقتة، عابرة...
- ولماذا لم تخبريني بهذا الأمر؟
- لأنك لم تسألني...
- صحيح. ومع ذلك، سلمي لها هذه الرسالة. هل تفهمين؟ سنكافح! وهاهو درهم آخر!
- شكراً سيدي.

.بمشقة غادر أوغوسطو المكان، إذ أن الحديث الضبابي، اليومي مع البوابة مرغريطا كان قد بدأ يروقه. ألم يكن ذلك أسلوب لقتل الوقت؟

«سنكافح -قال أوغوسطو مخاطبا نفسه، نازلا في الشارع المنحدر-، نعم، سنكافح! إذن لها علاقة بشخص ما يطمع للزواج بها؟ سنكافح! Militia est vita hominis. الآن أصبحت لحياتي غاية؛ علي أن أقوم بفتح. آه يا إوخينيا، إوخينيتي، ستكونين لي! إوخينيتي التي شكلتني على سندان نجوم تلك الرؤية الهاربة لتلك العينين اللامعتين في كثافة ضبابي، هذه إوخينيا التي يجب أن تكون لي، التي تأتي عند البوابة، وأي كانت، سنكافح! سنتصارع وسأنتصر. لدي سر الانتصار.
آه، يا إوخينيا، إوخينيتي!»

وهكذا حتى وجد نفسه أمام باب الكازينو، حيث كان ينتظره بيكطور ليلعبا حصة من لعبة الشطرنج.

III

– اليوم تأخرتَ قليلا يا أيها الولد –قال بيكطور لأوغوسطو–، لأنك تأتي دائما في الوقت المحدد!

– ماذا تريد... أن نشتغل؟

– أي شغل ينتظرك؟

– لكن، هل تعتقد أن الذين لهم انشغالات كثيرة هم وكلاء بورصة القيم فقط؟

– إن الحياة هي أكثر تعقيدا مما تتصوره أنت.

– الحياة هي أبسط مما تعتقد أنت...

– كل شيء ممكن.

– حسن، انطلق.

حرّك أوغوسطو قطعتين، البيدق والملك في مربعين، وبدل أن يدندن مثل المرات الأخرى قطع من الأوبيريت، قال مخاطبا نفسه: «إوخينيا، إوخينيا، إوخينيا، إوخينيتي، التي هي غاية حياتي، بريق حلو نجوم توأم في الضباب، سنكافح!

هنا يوجد المنطق، في عالم الشطرنج، ومع ذلك، يا له من ضباب كثيف، يا لها من مصادفة بعد كل شيء! أليس المنطق كذلك شيء من المصادفة؟ وظهور إوخينيتي، أليس شيئا منطقيا؟ ألا يخضع لشطرنج إلاهي؟»

– لكن، يا رجل –قاطعه بيكطور– اتفقنا أنه يمنع العودة إلى الوراء أثناء اللعب؟ إذا مسست قطعة العب بها!

– نعم، اتفقنا على ذلك.

- إذا فعلت ذلك سآكل منك مجانا ذاك الفيل.
- الحقيقة أنني شُردت.
- لا تشرد؛ لأن الذي يلعب لا يشوي القسطل. واعلم؛ إذا مسست قطعة ألعب بها.
- هيا، شيء لا يصحح!
- هكذا يجب أن يكون. وفي هذا يكمن الجانب التربوي من هذا اللعب. ولِمَا لا يجب أن يشرد المرء في هذا اللعب ؟ -قال أوغوسطو مخاطبا نفسه-. هَل الحياة لعب أم لا؟ و لماذا لا نعود إلى الوراء باللعب؟ هذا هو المنطق!

هل وصلت الرسالة إلى يدي إوخينيا. Alea jacta est!، ما حدث قد حدث! وغدا؟ الغد في علم الله! والأمس، لمن كان؟ آه، الأمس كنز الأقوياء! الأمس المقدس، جوهر الضباب اليومي!»

- كيس شاه! -قاطعه بيكطور من جديد-.
- حقيقة، حقيقة... لننظر... لكن كيف تركت الأشياء تصل إلى هذا الحد؟
- شرودك يا رجل، كالعادة. لولا شرودك لكنت من أحسن لاعبينا.
- لكن قل لي يا بيكطور، هل الحياة سهو ولهو؟
- اللعب ليس إلا لهواً وتسلية.
- إذن، لا يهم، والمهم هو أن يتسلى الإنسان بطريقة أو بأخرى؟
- يا رِجل، أن يلعب، أن يلعب جيدا.
- و لما لا يلعب سيئا؟ ما معنى أن يلعب المرء جيدا أو يلعب سيئا؟ ولما لا نحرك هذَه القطع بطريقة أخرى مخالفة؟
- هذه أطروحة، يا صديقي أوغوسطو، حسب ما تقول، وحسب ما علمتني يا أيها الفيلسوف الشهير.
- طيب، الآن سأعطيك خبر هام جدا.
- هيّا!
- لكن، اندهش يا ولد.

– أنا لست من الذين يندهشون مسبقا.
– إذن، ها هو الخبر: أتعرف ما يحدث لي؟
– كل مرة أراك أكثر شرودا.
– ما يحدث لي هو أنني أحب.
– أه، كنت أعرف هذا عنك...؟
– كيف؟ أتعرف هذا عني؟
– طبعا، أنت تحب، تحمل الحب في أصولك، منذ أن ولدت وأنت تحمل حبا فطريا.
– نعم، الحب يولد معنا، عندما نولد.
– لم أقل الحب، بل العشق العابر. كنت أعرف ذلك، ولم أكن في حاجة إلي أن تصرح لي بذلك، كنت أعرف أنك تحب أو بتعبير آخر مغرم. كنت أعلم ذلك أكثر منك.
– لكن، قل لي من هي؟ من هي؟
– ذلك ما لا تعلمه أنت.
– إذن اخرس، أنظر، ربما أنت على صواب...
– ألم أقل لك هذا؟ وإلا فَقُل، شقراء أم سمراء؟
– الحقيقة، إنني لا أعرف. وإن كنت أتصور لا هذا ولا ذاك؛ شعرها كستنائي، طويلة أم قصيرة القامة؟.
– كذلك لا أتذكر جيدا. ولكن أظن أنها عادية. ولكن، يا لهما من عينين يا ولد، يا لهما من عينين عند إوخينيتي!
– إوخينيا؟
– نعم إوخينيا دومينغو ديل أركو، شارع ألاميدا، رقم 58. أستاذة البيانو؟
– هي نفسها. ولكن...
– أعرفها. والآن... كيس شاه مرة أخرى!
– لكن...
– قلتُ كيس شاه.
– طيب...

وغطى أوغوسطو الملك بحصان. وخسر اللعب.

لما ودعه بيكطور، ووضع يده على كتفه اليمنى وعنقه، هامسا في أذنه:

الأمر يتعلق بإوخينيا أستاذة البيانو، أليس كذلك؟ طيب يا أوغوسطو، أنت ستملك الأرض.
«ولكن التصغير -فكر أوغوسطو- التصغير الرهيب» وانطلق في الشارع.

IV

لماذا التصغير يعبر عن الود والمحبة؟ -كان يخاطب نفسه أوغوسطو وفي طريقه إلى منزله- هل لأن الحب يُصغّر الشيء المحبوب؟ عاشق أنا! أنا مغرم! أنا مغرم! من كان سيقول هذا...! هل بيكطور على صواب؟ هل أنا عاشق مبتدئ؟ ربما لأن عشقي سابق على الشيء المعشوق. زيادة على أن هذا الحب هو الذي أثاره، واستخرجه من ضباب الخلق. لكن، إذا تقدمتُ أنا بالقلعة لا تعطيني شاه مات، لا تعطيني إياه. وما هو الحب؟ وما هو الحب؟ من وضع تعريفا للحب؟ الحب المعرف لم يعد حبا... لكن يا إلاهي، كيف يسمح العمدة أن يستعملوا يافطات المتاجر مكتوبة بخط رديء وقبيح مثل هذا؟ كانت لعبة الفيل سيئة. كيف أحببتها، وعمليا لا يمكن لي أن أقول إنني أعرفها؟ التعارف يمكن أن يأتي فيما بعد. الحب يسبق المعرفة، وهذا يقتل ذاك. Nihil volitum quin praecognitum علمني الأب ثاراميو، ولكن، أنا وصلت إلى خلاصة عكسية وهي Nihil volitum quin praecognitum.. أن تعرف هي أن تصفح، كما يقولون، أن لا تصفح معناه أن تعرف. الحب أولا والمعرفة تأتي فيما بعد. كيف أنني لم أنتبه إلى أنه شاه مات وأنا مكشوف؟ ولكي يحب المرء شيئا، ماذا يكفيه؟ أن يستشفه! هذا هو الحدس الغرامي، أن يبصر المرء في الضباب. بعد ذلك التدقيق، الرؤية الكاملة، ويحل الضباب في قطرات من الماء أو البرد، أو الثلج، أو الحجر. العلم هو حظ من قطع اليانصيب. لا، لا، إنه ضباب، ضباب! لو كان المرء نسر يتنزه في نهد السحب! ومن خلالها يرى الشمس، كذلك، مثل النور الكثيف الضباب. آه النسر! أي أشياء سيقولها نسر باطوس! الذي ينظر إلى الشمس وجها لوجه، ولا يبصر شيئا في عتمة الليل الأسود، عندما فر مع القديس سان خوان وجد نفسه أمام بومة مينيربا، التي تبصر في ظلام الليل، ولكنها لا يمكن أن تنظر إلى الشمس،

وكانت قد هربت من جبل أوليمبو.

عندما وصل إلى هذه النقطة مرت أمامه إوخينيا و لم ينتبه إليها.

المعرفة تأتي فيما بعد... -خاطب نفسه-. ولكن... ما هذا؟ أقسم أن ما مر أمام مداري هما نجمتان ساطعتان وتوأم صوفي... أليست هي؟ قلبي يقول لي... لكن، اخرس، أنا في المنزل الآن! ودخل.

توجه إلى غرفته، وعندما تمدد في فراشه ليستعيد قوته قال لنفسه: «أريد النوم فقط! وأن أحلم وحدي! عندما ينام المرء بصحبة ما، يجب أن يكون الحلم مشتركا. يجب أن تكون إشعاعات غامضة تجمع العقول. أو ربما عندما تتحد القلوب تنفصل الرؤوس؟ ربما. ربما أنها توجد في مواقع معاكسة. إذا فكر عاشقان في نفس الشيء بطريقة معاكسة؛ إذا توافقا في نفس الشعور الغرامي، كلاهما يفكر مثل الآخر في نفس الشيء، وربما العكس. المرأة تحب زوجها طالما أنه لا يفكر مثلها. لنرى هذين الزوجين الشريفين.»

في الكثير من المرات كانت من عادة أوغوسطو أن يلعب مع خادمه دومينغو لعبة ورق التوتي قبل أن ينام، بينما كانت زوجته، الطباخة تشاهد اللعب.

بدأ اللعب.

- عشرون كؤوس -نطق دومينغو-.
- قل لي! -قال بصوت عالي أوغوسطو-. وإذا تزوجتُ؟
- ستفعل خيرا، يا سيدي -قال دومينغو-.
- حسب ما يناسبك، سيدي -تجرأت على القول ليدوبينا، زوجة الخادم-.
- ألم تتزوجي أنت؟ -طالبها أوغوسطو بإعطاء تفسير لكلامها-.
- حسب ما يناسبك، سيدي.
- كيف حسب ما يناسبك، سيدي؟ تكلمي.
- من السهل أن يتزوج المرء، وليس سهلا أن يكون المرء متزوجا.
- هذا ينتمي للمعرفة الشعبية، مصدر...

- ومن هي التي ستكون زوجة سيدي... -أضافت ليدوبينا، خائفة من أن يفاجئها أوغوسطو بمونولوغ-.

- ماذا؟ التي يجب أن تكون زوجتي، ماذا؟ هيا تكلمي، تكلمي يا امرأة!

- يجب أن تكون طيبة مثل سيدي...

- هيا، يا امرأة قولي ما تشائين مرة واحدة.

- تذكر ما كانت تقوله السيدة...

عندما ذكرت المرحومة أم أوغوسطو، وضع أوراق اللعب على الطاولة، وبقيت روحه معلقة لحظة. في الكثير من المرات، كانت أمه، تلك المرأة الحلوة، ابنة المصائب تقول له:«أنا سوف لن أعيش طويلا يا بني؛ أبوك يناديني. ربما يحتاجني أكثر منك. أنا سأرحل عن هذا العالم وستبقى وحدك فيه، تزوج قبل فوات الأوان. إيت بالسيدة وربة البيت إلى هذا المنزل. وهذا لا يعني أنني لا أثق في خدامنا القدماء المخلصين، لا. لكن يجب عليك أن تأتي بربة البيت. ولتكون ربة المنزل، يا بني. اجعلها مالكة قلبك، ومالك، ومخازنك، ومطبخك، وقراراتك. ابحث عن زوجة تدبر شؤون بيتك، أن تعرف كيف تحبك... وأن تحكمك.»

زوجتي ستعزف على البيانو-خاطب نفسه نافضا غبار ذكرياته وحنينه.
البيانو! ما الفائدة في هذا؟ - سألت ليدوبينا-.

- لما يصلح؟ هنا يكمن سحره الكبير، أن هذا الشيء اللعين من عند الله لا يصلح لشيء. سئمت الخدمات...

- تعني خدماتنا؟

- لا، لا أعني خدماتكما، لا! بالإضافة إلى أن البيانو يصلح، نعم يصلح... يصلح لملء البيوت بالانسجام وأن لا تكون عبارة عن منفضة سجائر.

- الانسجام! بماذا يؤكل هذا؟

- ليدوبينا... ليدوبينا...

أحنت الطباخة رأسها أمام العتاب الحلو. كانت تلك عادتها في كلامها.

– نعم، ستعزف على البيانو لأنها أستاذة البيانو.
– إذن لن تعزف على البيانو –أضافت بثبات ليدوبينا– وإلا لماذا تزوجت؟
– يا إوخينيتي... –قال أوغوسطو–.
– آ، تدعى إوخينيا وهي أستاذة البيانو؟ –سألت الطباخة–.
– نعم، إذن؟
– التي تسكن مع عمتها بشارع ألاميدا، فوق المحل التجاري للسيد طيبورسيو.
– هي نفسها. هل تعرفها؟
– نعم... من بعيد...
– لا، ربما أكثر، يا ليدوبينا تعرف عنها شيئا ما. هيا تكلمي؛ اعلمي أن الأمر يتعلق بمستقبل وبسعادة سيدك...
– إنها فتاة طيبة، نعم، فتاة طيبة...
– هيا تكلمي، يا ليدوبينا... بحق أمي وبذكراها!
– تذكر أنت نصائحها، يا سيدي. لكن من في المطبخ؟ أجزم أنه القط؟...
ووقفت الخادمة وخرجت.
– ماذا؟، ننهي اللعب؟ –سأل دومينغو–.
– الحقيقة يا دومينغو، لا يمكن أن نترك حصة اللعب هكذا. لمن هو دور اللعب؟
– دورك يا سيدي.
– ها أنا.

وخسر في هذه الحصة من اللعب بسبب شروده.

«إذن يا سيدي –قال منسحبا إلى غرفته–، الكل يعرفها؛ الكل يعرفها إلا أنا. ها هنا عظمة الحب. وغداً؟ ما العمل غداً؟ آه، كل يوم له شأنه... أما الآن سأذهب إلى الفراش.»
ونام.

وفي الفراش استمر يقول مخاطبا نفسه: «الحال هو أنني انغمست في الملل دون أن أعلم ذلك، وقتلت عامين... منذ أن ماتت أمي القديسة... نعم، نعم هناك ملل بدون وعي، لاشعوري. الرجال كلهم تقريبا يعيشون الملل بدون وعي منهم.

الملل هو عمق الحياة، والملل هو الذي اخترع اللعب، والملاهي، والروايات، والحب. إن ضباب الحياة يرشح منه الملل، شراب كحولي حامض وحلو. كل هذه الأحداث اليومية، لا أهمية لها؛ كل هذه الأحاديث الحلوة التي نقتل بها الوقت ونطيل بها الحياة، أليست سوى ملل حلو جدا؟ آه يا إوخينيا، إوخينيتي، زهرة مللي الحيوي، واللاشعوري، أسعفيني في أحلامي، احلمي بي ومعي!»

وبقي نائما.

V

قطع الضباب ذاك النسر اللامع، بجناحيه القويين المجوهرين بالندى، عيناه مثبتتان في فريسة الضباب الشمسي، القلب النائم في الملل الحلو تحت رحمة الصدر المنصهر في الأعاصير؛ وفي المحيط، صمت صادر عن الهمس البعيد للأرض، وهناك في الأعال، في قمة السماء، نجمتين توأم ينساب منهما بلسم غير مرئي. مزق الصمت صراخ قوي، كان يقول: «المراسلة!...» وأبصر أوغوسطو من بعيد نور اليوم الجديد.

«أحلم أم أحيا؟ -سأل نفسه، وغطى وجهه حتى أنفه بالبطانية- هل أنا نسر أم إنسان؟ ماذا سيقال على الورق؟ ما الجديد الذي سيحمله لي اليوم الجديد؟ هل ابتلع زلزال ما بلدة كوركوبيون؟ ولما لا ليبزيك؟ آه، تداعي الشعر الغنائي للأفكار، الفوضى البينداريكية (نسبة للشاعر بيندارو) العالم هو عبارة عن كاليدوسكوب. المنطق يضعه الإنسان. الفن الأسمى هو نتاج المصادفة. لننم، إذن، بعض الوقت.» ودار نصف دورة في سريره.

«المراسلة!... صناعة الخل! وبعدها سيارة، وبعدها أطفال.

«يستحيل -عاد أوغوسطو يخاطب نفسه-. هذه هي الحياة التي تعود. ومعها الحب... وما هم الحب؟ أليس هو صفاء كل هذا؟ أليس هو عصير الملل؟ لنفكر في إوخينيا؛ الساعة مناسبة.»

وأغمض عينيه بغرض التفكير في إوخينيا. التفكير؟

لكن هذا التفكير بدأ يذوب وبعد لحظة وجيزة لم يعد غير رقصة البولكا البولونية. وحدث أن بيانو يشتغل بدراع التدوير توقف تحت نافذة غرفته وكان يرن. وبدأت روح أوغوسطو تعكس النوتات الموسيقية «الموسيقى هي جوهر العالم -قال أوغوسطو مخاطبا نفسه- عندما سكتت آخر نوتة لآلة البيانو. وإوخينيا، أليست حفل موسيقي كذلك؟ كل قانون هو قانون الإيقاع، وإيقاع الحب. هذا الصباح العجيب، عذرية النهار تأتيني باكتشاف جديد: الحب هو الموسيقى. التعبير وليس الانجاز، لنتفاهم.»

قاطعته طرقة بالباب.

- تفضل!
- هل طلبني سيدي؟ قال دومينغو.
- نعم... الفطور!

كان قد نادى خادمه دون أن يشعر، على الأقل ساعة ونصف قبل الوقت المعتاد، وعندما ناداه طلب منه إحضار الفطور في غير وقته.

«الحب ينشط ويفتح شهية الفطور مسبقا -خاطب أوغوسطو نفسه-. علينا أن نحيا لكي نحب! نعم، علينا أن نحب كي نحيا!»

نهض لكي يتناول وجبة فطوره.

- كيف هو الجوّ يا دومينغو؟
- مثل سائر الأيام يا سيدي، كالمعتاد.
- إذن لا هو لطيف ولا سيء.
- تماما يا سيدي!

إنها نظرية الخادم الذي كان لديه دائما ما يقول.

استحم أوغوسطو، مشط شعره، ارتدى ملابسه واستعد للخروج كمن له هدف محدد في الحياة، يستفيض الرغبة في الحياة الحميمية. رغم أنه كان حزينا.

انطلق في الشارع، وفي الحين نبض قلبه منذرا إياه. «اخرس -قال مخاطبا نفسه-، لو كنت قد رأيتها من قبل، لو كنت قد عرفتها منذ مدة طويلة؛ نعم، صورتها تكاد تكون فطرية بالنسبة إلي..! يا أماه، أطلب حمايتك!» وعندما مرت أمامه، عندما تقاطعت معه إوخينيا في الشارع، حياها بعينيه أكثر من تحيته بقبعته.

كاد يدور ليتبعها، لكن غلب العقل والرغبة التي كانت عنده في الحديث مع البوابة.

«إنها هي، نعم، إنها هي -خاطب نفسه-، إنها هي، هي نفسها، هي التي كنت أبحث عنها منذ سنين، ودون أن أعرف ذلك؛ هي التي كنت أبحث عنها. القدر حكم علينا أن نكون الواحد للآخر، في انسجام معد سلفا؛ إننا كائنين من الكون، يكمل الواحد منا الآخر. العائلة هي الخلية الاجتماعية الحقيقية. وأنا لست سوى جزئية صغيرة.

يا لها من شعرية العلوم، يا إلاهي! أماه، يا أمي، ها هو ولدك، انصحيني من الآخرة! إوخينيا، إوخينيتي...!»

نظر إلى جميع الجهات لربما كان الناس ينظرون إليه، وفوجئ بدراعيه وهو يعانق الهواء. وقال مخاطبا نفسه: «الحب هو ذهول وغيبوبة؛ يخرجنا من أنفسنا.»

أعادته إلى الواقع -إلى الواقع؟- ابتسامة مرغريطا.
- هل من جديد؟ -سألها أوغوسطو-.
- لا جديد يا سيدي.
- لم تسألك أي شيء عندما سلمت لها الرسلة؟
- لا شيء.
- واليوم؟
- اليوم، نعم. سألتني عن عنوانك، وهل أعرفك، ومن تكون أنت.

- قالت إن السيد نسي أن يضع عنوانه على الرسالة. كلفتني أن أبلغك...
- أن تبلغني ماذا؟ لا ترددي.
- قالت لي أن أبلغك إن عدت إلى هنا، أن لها التزام مع خطيب آخر.
- أي خطيب؟
- سبق أن أخبرتك بهذا، سيدي.
- لا يهم، سنكافح!
- طيب، نكافح.
- تعدينني بالمساعدة، يا مرغريطا؟
- طبعا.
- إذن سننتصر!

انصرف إلى حال سبيله. توجه إلى شارع ألاميدا ليرطب ويهدئ انفعالاته بمشاهدته خضرة الأشجار، وسماعه غناء الطيور وحبهم. اخضر قلبه وداخله كانت تغني ذكريات الطفولة كطائر العندليب. كانت فوق كل شيء، سماء ذكريات أمه، ينساب منها نور مذوب وحلو يغطي كل ذكرياته.

أما عن أبيه قليلا ما كان يتذكره؛ كان ظلا أسطوريا يتلاشى في البعد؛ كان سحابة دموية في الغروب. دموية، لأنه عندما كان طفلا صغيرا رآه في حمام دم، وقيء، وعبارة عن جثة. انعكس ذلك على قلبه، من مسافة بعيدة، ذاك الابن! ابن لأمه، مزق المنزل؛ ذاك الابن! الذي لا يعرف إلى من يتوجه لأبيه المحتضر أم إليه، إلى أوغوسطو، العنيد أمام لغز الموت.

بعد ذلك بقليل، ضمته أمه إلى حضنها، مرتعشة من شدة الحسرة والألم وبترتيل يا بني! يا بني! هكذا عمدته بدموع النار. وبكى هو كذلك، معانقا أمه، و لم يجرء عن إبعاد وجهه عن العتمة الحلوة لذاك الحضن النابض، خوفا من أن ينظر إلى العينين الملتهمين لذاك البُعبُع.

وهكذا مرت أيام من البكاء والسواد، حتى بدأت الدموع تذهب إلى الداخل والمنزل يذوب سواده.

كان منزلا دافئا، كان الضوء يدخله من خلال الزهور البيضاء المطرزة في سترة نافذة المطبخ. الأرائك كانت تفتح دراعيها، بحميمية الجدين الذين تحولا إلى أطفال مع مرور الزمن. كانت هناك دائما منفضة السجائر برماد السيغار الأخير الذي دخنه أبوه. وفي الحائط، صورة كليهما معا، الأب والأم، يوم زفافهما، والتي أصبحت اليوم أرملة. الأب كان طويل القامة، جالس، واضعا رجله على الرجل الأخرى، يظهر لسان الجزمة، أما هي كانت قصيرة القامة، واقفة أمامه، يدها متكئة، يد رقيقة، يبدو أنها لم تكن معمولة للشد والأخذ، بل لوضعها على كتفي زوجها كحمامة.

أمه كانت تمشي ذهابا وإيابا دون أن تحدث ضجيجا، كطائر صغير، مرتدية دائما لباسا أسودا، وابتسامة، كانت عبارة عن آثار تركتها دموع الأيام الأولى للترمل، دائما في الفم وحول العينين الفاحصتين. «يجب علي أن أحيا لك، لك وحدك -كانت تقول له في الليل قبل أن تنام- يا أوغوسطو.» وكان ابنها يحمل معه إلى أحلامه الليلية القبلة المبللة بالدموع. كانت الحياة تهرب منهما كحلم حلو.

في الليل كانت أمه تقرأ له بعض الأشياء، أحيانا تقرأ له حياة قديس، وأحيانا أخرى روايات جول بيرن أو قصة بسيطة وساذجة. وفي بعض المرات كانت تضحك، بضحكة صامتة وحلوة، متزاوجة الدموع البعيدة.

بعد ذلك التحق بالثانوية، وفي الليل كانت أمه تراجع معه دروسه. كانت تهيء نفسها لذلك. درست أسماء كل أعلام تاريخ الكون النادرة، وكان من عاداتها أن تقول له مبتسمة: «لكن، كم من فظاعات ارتكبها الإنسان يا إلاهي!» درست الرياضيات، وفي هذا المجال برزت تلك الأم الحلوة. «لو كانت أمي قد تعاطت إلى الرياضيات...»، كان أوغوسطو يقول لنفسه. وتذكر الاهتمام الذي كانت توليه وهي تتابع تطور معادلة من الدرجة الثانية. درست علم النفس، وهذا ما كان يتعذر عليها.

«يا لها من رغبة في تعقيد الأشياء!». كانت تقول عادة. درست الفيزياء

والكيماء وانتقلت إلى تاريخ العلوم الطبيعية. وما لم يكن يعجبها في تاريخ العلوم الطبيعية هي تلك الألقاب الغريبة والنادرة التي تطلق على الحيوانات والنباتات. علم الفيسيولوجيا كان يسبب لها الرعب، لذلك تخلت عن مساعدة ابنها في هذه المادة. بمجرد رؤيتها لصورة تمثل القلب أو رئتين عاريتين، كان يتمثل أمامها موت زوجها الدموي. «كل هذا قبيح، يا بني -كانت تقول له-؛ لا تدرس الطب. من الأفضل أن لا يعرف المرء كيف هي عندنا الأشياء من الداخل.»

عندما أنهى أوغوسطو دراسته الثانوية حضنته بدراعيها، ونظرت إلى الشعر الخفيف في شاربه، وانفجرت باكية والدموع على خديها وهي تصيح: «لو كان أبوك حيا..!» وبعد ذلك أجلسته على ركبتيها، وكفتي يافع أحس بالخجل، وهكذا أخذته في صمت، ناظرة إلى منفضة السجائر التي كان يستعملها زوجها المتوفى.

وفيما بعد التحق بالجامعة للدراسة، ربط علاقات صداقة جامعية، وبدأت أمه تحس بالحزن والحسرة عندما رأت ابنها يدرب جناحيه على الطيران، كالطائر الذي سيغادر العش. «أنا لك، يا بني، أنا لك، -كانت تقول له عادة-، وأنت، لا يدري أحد من هي الأخرى التي ستكون لها!... هكذا هي الحياة، يا بني.» في اليوم الذي حصل على الإجازة في الحقوق، بمجرد وصوله إلى البيت ضمته أمه إلى صدرها، وقبلت يده بطريقة فكاهية حادة، عانقته وهمست في أذنيه: «أبوك يرضي عليك يا ابني!».

لم تكن أمه تنام قبله، وكانت تودعه بقبلة في فراشه. لم يكن يسهر الليل أبدا. وعند استيقاظه من النوم، كان أول كائن يراه هي أمه. وعلى مائدة الغذاء لم تكن أمه تأكل ما لا يأكله هو.

غالبا ما كانا يخرجا معا للتنزه في الشوارع، صامتين، تحت السماء، مستحضرة زوجها المتوفى، أما هو فكان يفكر في أول شيء يمر أمام عينيه. وكانت هي تقول له دائما نفس الأشياء، أشياء ما هو يومي، قديمة جدا ودائما

جديدة. كثير منها يبدأ هكذا: «عندما ستتزوج...»

كلما مرت أمامهما فتاة حسناء، أو لطيفة، كانت أمه تراقبه بطرف عينيها.

جاءت الوفاة، تلك الوفاة البطيئة، الحادة و الحلوة، بلا ألم، دخلت على بنانها، ودون صخب، كطائر مهاجر، وحملتها على إيقاع طيران بطيء، في إحدى أمسيات الخريف. ماتت و يدها في يد ابنها، وعيناها في عينيه.

أحس أوغوسطو أن يديه بردتا، وأحس أن عينيه جامدتين لا تتحركان. أطلق يدها بعد أن ترك على تلك البرودة قبلة حارة، وأغمد عينيه. جلس على ركبتيه إلى جانب فراشها، وراجع قصة كل تلك الأعوام المتشابهة.

والآن ها هو هنا، في شارع لاألاميدا، تحت زقزقة الطيور، يفكر في إوخينيا. وإوخينيا كان لها خطيب. «ما أخشاه، يا بني -كانت تقول له عادة أمه-، هو اليوم الذي ستلتقي بأول شوكة في طريق حياتك.» لو كانت هنا لعملت على أن تزهر تلك الشوكة الأولى!

«لو كانت على قيد الحياة أمي، كانت ستلقى الحل لهذا -قال مخاطبا نفسه-، وليس هذا شيء أصعب من معادلة من الدرجة الثانية. ومعضلتي ليست في عمقها غير معادلة من الدرجة الثانية.»

سمع أنينا ضعيفا، أنين حيوان مسكين قاطع مناجاته. فحص بعينيه المكان واكتشف بين اخضرار الأجمة، جرو مسكين يبدو أنه كان يبحث عن طريق في الأرض. مسكين! -خاطب نفسه- أهملوه وتركوه رضيعا، حديث العهد بالولادة، كي يموت؛ كانت تنقصهم الشجاعة لقتله.

الحيوان الصغير يبحث عن صدر أمه. نهض أوغوسطو وعاد إلى منزله متأملا: «إذا علمت إوخينيا به، سيصبح منافسي! ستعطف عليه وستتعلق بهذا الحيوان المسكين! إنه جذاب، جذاب جدا. مسكين، كيف يلعق يدي...!»

- إيت بالحليب، يا دومينغو -قال لخادمه حين فتح له الباب-.
- والآن يا سيدي تشتري كلبا؟
- لم أشتريه، يا دومينغو؛ الكلب ليس عبدا، بل حرا؛ وجدته.
- إنه لقيط.
- كلنا لقطاء، يا دومينغو. إيت بالحليب.

أحضر حليبا وإسفنجا لمساعدة الجرو على مص الحليب. وفيما بعد أمر أوغوسطو بإحضار رضاعة زجاجية للجرو، لأورفيو، عمّده بهذا الاسم، لا يعرف ولا يدري لماذا أطلق عليه هذا الاسم.

أصبح أورفيو فيما بعد أمين سره أثناء مناجاته، كان يتلقى أسرار حبه لإوخينيا.

أنظر يا أورفيو -قال له في صمت- علينا أن نكافح. ماذا تنصحني؟ ماذا سأفعل؟ لو كانت قد تعرفت عليك أمي... لكن سترى، سترى عندما ستنام في حُجر إوخينيا، تحت يدها الناعمة والحلوة. والآن، ماذا سنفعل، يا أورفيو؟ كان حزينا غذاء ذاك اليوم، وحزينا كان التنزه، وحصة لعب الشطرنج كانت حزينة وحزين حلم تلك الليلة.

VI

«يجب علي أن أتخذ قرارا حاسما -قال مخاطبا نفسه أثناء نزهة بشارع لاألاميدا، وبالضبط أمام منزل رقم 58-؛ لا يمكن أن أستمر هكذا.» في تلك اللحظة فُتحت شرفة منزل بالطابق الثاني، المنزل الذي تسكنه إوخينيا، وأطلت منه سيدة ذات وجه يابس وضامر، وجه ضامر، ويكسو شعرها الشيب، كانت تحمل قفصا بيدها. حاولت أن تضع طائر الكناري في الشمس. وعندما أرادت أن تعلقه على مسمار سقط القفص على الأرض. أطلقت السيدة صرخة قلق: «آه يا بيشين» أسرع أوغوسطو وأخذ القفص. داخله كان الطائر مذعورا يرفرف بجناحيه.

صعد أوغوسطو إلى المنزل حاملا القفص في يده والطائر يتحرك بداخله، وقلبه على صدره. كانت السيدة في انتظاره.

- شكرا سيدي، شكرا، سيدي!
- الشكر لك يا سيدتي.
- بيشيني! بيشيني الصغير! هيا هَدِء نفسك! هل يتفضل السيد؟
- شكرا سيدتي.

دخل أوغوسطو.

طلبت منه التفضل إلى الصالة قائلة: «انتظر قليلا، سأدع بيشين في مكانه»، وتركته وحده.

في هذه اللحظة دخل سيد عجوز، عم إوخينيا من دون شك. كان يضع

نظارات سوداء على عينيه وقبعة على رأسه. اقترب من أوغوسطو، وجلس إلى جانبه ووجه له هذه الكلمات:

(هنا جملة بلغة «إسبيرانتو» وتعني: ألا تعتقد معي أن السلام العالمي سيتحقق قريبا بفضل «الإسبيرانتو»؟)

فكر أوغوسطو في الهروب، لكن حبه لإوخينيا أمسكه. واستمر الآخر بالحديث معه بلغة الإسبيرانتو كذلك.

قرر أوغوسطو أن يقول له أخيرا.

– لا أفهم، يا سيدي ولو كلمة واحدة.
– أكيد أنه كان يحدثك بتلك التعابير الملعونة التي يسمونها الإسبيرانتو –قالت العمة التي دخلت في تلك اللحظة–أضافت موجهة الكلام إلى زوجها–: فيرمين هذا السيد هو الذي أتي بطائر الكناري.
– لا أفهمك إلا عندما تتكلمين بالاسبيرانتو –أجابها زوجها–.
– هذا السيد هو الذي أتى ببشيني المسكين، الذي سقط إلى الشارع، وكان له الفضل في حمله إلي. وأنت يا سيدي –أضافت متوجهة إلى أوغوسطو– من تكون؟
– أنا يا سيدتي، أوغوسطو بيريث، ابن أرملة بيريث روبيرا، ربما يا سيدتي كنت تعرفينها.
– ابن ضونيا سوليداد؟.
– بالضبط، ضونيا سوليداد.
– عرفتها كثيرا، كانت سيدة طيبة. كانت أرملة وأم لا مثيل لها. لذلك أهنئك.
– وأنا أهنئ نفسي بواجبي نحو الحادث السعيد لسقوط طائر الكناري الذي كان سببا في معرفتي بكم.
– تسمي يا سيدي هذا الحادث بالسعيد؟
– بالنسبة لي نعم.

- شكرا سيدي -أضاف ضون فيرمين- تحكم الإنسان وأشيائه الغامضة قوانين، بإمكان الإنسان، مع ذلك أن يبصرها. أنا يا سيدي، لدي أفكار خاصة تقريبا حول كل الأشياء...

- اخرس، أوقف لازمتك الغنائية، يا رجل -صرخت العمة-. كيف تمكنت من أن تحضر في الحين لإنقاذ بيشين؟

- سأكون صريحا معك سيدتي؛ سأفتح لك صدري. كنت أطوف حول الدار.

- هذه الدار؟

- نعم سيدتي. لكم ابنة أخ ساحرة.

- أكمل يا أيها السيد. الآن أفهم الحادث السعيد. وأرى أن هناك كنار يحظى بالعناية الإلاهية.

- من يعرف طرق العناية الربانية؟ -قال ضون فيرمين-.

- أنا أعرفها، يا رجل -صاحت زوجته؛ وخاطبت أوغوسطو-: مرحبا بك في هذه الدار... لأنك ابن ضونيا سوليداد... هكذا ستساعدني على أن أنزع من رأس تلك الطفلة نزوة دخلت إلى رأسها...

- والحرية؟ -لمح ضون فيرمين-.

- اخرس يا رجل، واحتفظ لنفسك بفوضويتك الأنارشية.

- الأنارشية؟ -صاح أوغوسطو-.

إشعاع اللذة بدا على محيا ضون فيرمين، وأضاف بأحلى نبرة صوته:

- نعم سيدي، أنا أنارشي صوفي، نظريا فقط، افهمني جيدا، نظريا فقط. لا تخف، يا صديقي -قال ذلك واضعا يده بلطف على ركبته- لا ألقي القنابل. أنارشيتي هي روحية طاهرة. لأنني يا صديقي، لدي أفكار خاصة حول جميع الأشياء تقريبا...

- وأنت ألست أنارشية كذلك؟ -سأل أوغوسطو العمة، ليقول شيئا ما فقط-.

- أنا؟ تلك حماقة، أن لا يحكم أحد. إذا لم يحكم أحد، من سيطيع؟ ألا تفهم أن ذلك مستحيل؟

- رجال قليلو الإيمان، تدعون أن ذلك مستحيلا... -بدأ حديثه ضون

فيرمين. وقاطعته العمة-:

- إذن، طيب، سيدي ضون أوغوسطو، اتفقنا. أنت تبدو لي شخص فاضل، تربيتك حسنة، تنتمي لعائلة طيبة، دخلك عادي... لا شيء، لا شيء، منذ اليوم أنت مرشحي.

- إنه شرف عظيم، سيدتي...

- نعم، يجب أن نعمل على إرجاع تلك الصبية إلى صوابها وعقلها. ليست شريرة، ولكنها طموحة ونزواتها كبيرة... مدللة في تربيتها!... وعندما أصيب أخي المسكين بتلك الكارثة...

- الكارثة؟ سألها أوغوسطو.

- نعم، وبما أن هذا الأمر عمومي، يعرفه الجميع وليس من واجبي أن أخفيه عنك. إن أب إوخينيا كان قد انتحر بعد عملية في بورصة القيم جلبت له الشقاء والبؤس. بقي له منزل في الرهن، خسر فيه كل مداخله. وتعمل هذه البنت بعناد ومثابرة على توفير مدخرات عملها لتسديد الدين ورفع الرهن. تصور سيدي، لن تكفيها ستون سنة من تعليم البيانو!

أدرك أوغوسطو حد الغرض السخي والبطولي.

- البنت ليست شريرة -تابعت حديثها العمّة-، ولكن ليست هناك طريقة لفهمها.

- لو تعلمتم الإسبيرانتو -قال ضون فيرمين-.

- دعنا من اللغات العالمية. لا نتفاهم بلغاتنا وأنت تريد أن تدخل لغة أخرى؟

- ولكن أنت يا سيدتي ألا تعتقدين أنه من الأفضل أن تكون لغة واحدة؟

- هكذا، هكذا! -صاح ضون فيرمين بمرح-.

- نعم، سيدي -قالت بصرامة العمّة- لغة واحدة: القشتالية، وعلى الأكثر «الببلي» لغة إقليم أستورياس للتكلم مع الخادمات الغير عقلانيات.

إن عمة إوخينيا كانت من أستورياس، وكانت لها خادمة كذلك من أستورياس، التي كانت تعاتبها بلغة بلدها «البَبْلي».

– الآن نعم نظريا، لا يبدو لي سيئا أن تكون لغة واحدة. لأن هذا زوجي، نظريا، هو عدو حتى للزواج...
– أيها السادة –قال أوغوسطو بعد أن نهض من الكرسي–، ربما أزعجتكما...
– لا أبدا، أنت لا تزعج، يا سيدي –قالت له العمّة–، وستلتزم بالعودة إلى هذا المنزل. أنت تعلم منذ الآن، إنك مرشحي.

عندما غادر المنزل اقترب منه لحظة ضون فيرمين وهمس في أذنه: «لا تفكر في ذلك!» «ولما لا؟»، سأله أوغوسطو. «هناك شعور مسبق، شعور مسبق...»

لما ودعهما كانت آخر كلمات العمة هي: «الآن تعرف أنك مرشحي»

عندما عادت إوخينيا إلى المنزل، أول كلمات فاهت بها عمتها هي:
– هل تعلمين من كان هنا؟ ضون أوغوسطو بيريث.
– أوغوسطو بيريث... أوغوسطو بيريث...آ، نعم! ومن جاء به؟
– بيشين، طائر الكناري.
– ومن أجل ماذا جاء؟
– يا له من سؤال! جاء من أجلك.
– من أجلي وجاء به طائر الكناري؟ لا أفهم. من الأفضل أن تتكلمين الإسبيرانتو، مثل العم فيرمين.
– جاء من أجلك وهو شاب، ليس قبيحا، أنيق، مخلق، رقيق، وفوق كل شيء ثري، يا فتاة، فوق كل شيء ثري.
– فليبقى بثرائه، إذا كنت أعمل فليس لأبيع نفسي.
– ومن قال لك أن تبيع نفسك، يا منفعلة؟
– طيب، طيب يا عمتي، فلندع الهزل.
– سترينه، يا صغيرتي، سترينه وستغيرين أفكارك.
– ما ذاك...
– لا أحد يستطيع أن يقول من هذا الماء لن أشرب.

- إن طرق العناية الربانية غامضة! -صاح فيرمين-.

- لكن، يا رجل -جادلته زوجته-، كيف تشفق ما هو لله بالأنارشية؟ قلت لك هذا ألف مرة. إذا لم يحكم أحد، ماذا تعني بالله؟

- إن أنارشيتي، يا امرأة، قلت هذا مرات أخرى، هي صوفية، أنارشية صوفية. الله يحكم مثل البشر. الله أنارشي، الله لا يحكم، بل...

- يستجيب، أليس هكذا؟

- قلت هذا يا امرأة، أنت بنفسك تقولين هذا. الله منحك نورا. تعالي!

أخذ زوجته، نظر إلى جبهتها، نفخ فيها، في خصلة شعرها المتموج الأبيض وأضاف:

- ألهمك هو بنفسه. نعم، الله يستجيب... الله يستجيب..

- نعم نظريا، أليس كذلك؟ وأنت، يا إوخينيتي، دعك من البلادة، لك فرصة ذهبية.

- كذلك أنا أنارشية، يا عمتي، لكن، لست مثل عمي فيرمين، لست صوفية.

- طيب، سيظهر ذلك -ختمت الحديث عمتها-.

VII

«آه يا أورفيو -قال وهو في بيته، يعطي الحليب لكلبه- آه، يا أورفيو! انطلق بالخطوة الكبيرة، الخطوة الحاسمة: دخلتُ إلى بيتها، دخلت إلى معبدها، مكانها المقدس. أتعرف ما معنى البدء بالخطوة الحاسمة؟ إن رياح الحظ تدفعنا وجميع خطواتنا حاسمة. أهي لنا؟ تلك الخطوات هي لنا؟ لنتقدم في خطواتنا، يا كلبي أورفيو، نسير في غابة متشابكة، لا تروض، ليس بها دروب. الدروب نصنعها نحن بأقدامنا حسب سيرنا على طريق المغامرة، هناك من يعتقد أنه يتبع نجمة؛ وأنا أعتقد أسير على هدى نجمة مضاعفة، توأم. وتلك النجمة ليست سوى إسقاط الدرب نفسه في السماء، إسقاط المصادفة.

«خطوة حاسمة! قُل لي يا أورفيو، ما هي الحاجة في عدم وجود الله وعدم وجود الدنيا؟ ما الغاية من وجود شيء ما؟ ألا يبدو لك أن هذه الحاجة ليست إلا شكلا ساميا تتخذه المصادفة في دهننا؟

من أين طفت إوخينيا؟ هل هي من إبداعاتي، أم أنا من إبداعاتها؟، أم نحن الاثنان من إبداعاتنا المتبادلة؟ أليس الكل هو إبداع لكل شيء وكل شيء هو إبداع للكل؟ وما هو الابداع والخلق؟، ما أنت؟، ما أنا؟

«كثيرا ما فكرت، يا أورفيو، أنا لست أنا، وكنت أسير في الشارع وتسيطر علي نزوة عابرة بأن الأخرين لا يرونني. ومرات أخرى توهمت أنهم لا يرونني كما أرى نفسي، بينما كنت أعتقد رسميا، بكل رباطة جأش، وكنت بدون علم مني، أتصرف كالبهلوان، والآخرون يضحون علي ويهزؤون مني. ألم يحدث لك هذا مرة، يا أورفيو؟ وليس لأنك ما زلت فتى

وليست لك تجربة في الحياة. بالإضافة إلى أنك كلب.
«لكن، قل لي، يا أورفيو، ألا تعتقدون أنتم الكلاب أحيانا أنكم رجال، مثل أن بعض الرجال يعتقدون أنهم كلاب؟

أي حياة هذه، يا أورفيو، أي حياة، خاصة منذ أن ماتت أمي! كل ساعة جاءت مدفوعة بالساعات التي سبقتها؛ لم أعرف المستقبل. والآن بدأ كل شيء يتراءى لي، وسيتحول إلى ماض. إن إوخينيا تكاد تصبح ذكرى بالنسبة إلي. هذه الأيام التي تمر... هذا اليوم، اليوم الأبدي الذي يمر... ينزلق في الغد كاليوم. أنظر أورفيو، أنظر إلى ضباب الملل. اليوم مثل البارحة... رماد تركه أبي في منفضة السجائر.

« هذاهو كشف الخلود، يا أورفيو، أورفيو الخلود الرهيب. عندما يبقى الإنسان وحده ويغمض عينيه أمام المستقبل، للحلم الفانتستيكي، تظهر له هاوية الخلود المخيفة. الخلود ليس المستقبل. عندما نموت يعطينا الموت نصف دورة في مدارنا وننطلق في مسيرتنا إلى الوراء، في اتجاه الماضي، في اتجاه ما كان.»

و«هكذا، بدون نهاية، نلف كبة قدرنا، ونفكك كل اللانهائي الذي جعلنا في الخلود نسير نحو العدم، دون أن نصل إليه أبدا، لأنه لم يكن من قبل.

تحت تيار وجودنا، داخله، هناك تيار في اتجاه معاكس؛ هنا نسير من الأمس إلى الغد، وهناك من الغد إلى الأمس. ينسج ويفسخ النسيج في نفس الوقت. ومن حين لآخر تصلنا أنفاس، بخار، وحتى همس غامض من ذاك العالم الآخر، من داخل عالمنا. إن أحشاء التاريخ هي ضد التاريخ، مسار عكسي يتبعه التاريخ. النهر الجوفي ينطلق من البحر إلى المنبع.

«والآن تلمع في سماء عزلتي عينا إوخينيا. تلمعان ببريق دموع أمي. وتجعلاني أعتقد أنني موجود، وهم حلو! Amo ergo sum هذا الحب، يا أورفيو، مثل المطر النافع الذي يفكك ويجعل ضباب الوجود ملموسا.

بفضل الحب الفائض ألمسه. بدأ يؤلمني في قلب روحي، أحس بالروح، بفضل الحب، يا أورفيو. والروح نفسها، ما هي إلا الحب، بل الألم المجسد؟

«تأتي الأيام وتمضي والحب يبقى. في الداخل، فيما هو أعمق، في أحشاء الأشياء يلمس ويحتك تيار هذا العالم مع تيار الاتجاه المعاكس، ويصدر عن هذا اللمس وهذا الاحتكاك أحلى الآلام: وهو الحياة.

«انظر، يا أورفيو ميدان المبارزة، أنظر إلى سدى الثوب، أنظر إلى لحم النسيج، أنظر إلى الحياكة، آتية في المكوك، أنظر كيف تلعب الدواسات؛ لكن قل لي، أين الحائك الذي يلف ثوب وجودنا، أين؟

بما أن أورفيو لم ير في حياته صناعة النسيج، سيكون من الصعب أن يفهم صاحبه. لكن، بما أنني أنظر إلى عينيه متحدثًا معه، خمنت شعوره.

VIII

ارتعش أوغوسطو وأحس كأنه راكب على مهر التعذيب؛ أحس برغبة جامحة للنزول منه، وأن يتجول في تلك الصالة، أن يضرب ضربات في الهواء بيده، أن يصرخ، أن يقوم بحماقات السيرك، أن ينسى أنه موجود. لم تستطع ضونيا إرميليندا، عمة إوخينيا، ولا زوجها ضون فيرمين، الأنارشي نظريا والصوفي، أن يعيدانه إلى الواقع.

– إذن، نعم، أعتقد –قالت ضونيا إرميليندا– يا ضون أوغوسطو، من الأفضل أن تنتظر، فهي لن تتأخر كثيرا؛ سأناديها، ستلتقيان وتتعارفان وهذه هي الخطوة الأولى. جميع العلاقات من هذا النوع يجب أن تبدأ بالتعارف، أليس كذلك؟

– فعلا، يا سيدتي.

– أعتقد هكذا، أن تتعرف عليك إذ... المسألة واضحة!

– ليست واضحة تماما –أضاف ضون فيرمين–. إن دروب العناية الإلاهية غامضة دائما... أما فيما يخص أنه يجب التعارف قبل الزواج، فأنا أختلف... أختلف... التعارف الفعال هو التعارف بعد الزواج. سمعت يا زوجتي، وهو ما يعني في لغة الإنجيل التعرف. وصدقيني، لا يوجد تعارف جوهري مثل هذا، تعارف عميق ومخترق...

– اخرس، يا رجل، فقدت صوابك.

– المعرفة، يا إرميليندا...

رن جرس الباب.

إنها هي -صاح عمها بصوت غامض-.

أحس أوغوسطو بنار صعدت من الأرض حتى أنه ضاع، ومرت برأسه، في الأعلى، فوقه. وبدأ خفقان قلبه يضرب كمطرقة في صدره.

سمع دوي تفتح، وخطوات سريعة، متساوية الإيقاع. لم يعرف أوغوسطو كيف عادت السكينة إليه.

- سأناديها -قال ضون فيرمين مترددا-.

- لا، لا تفعل ذلك بأية طريقة -صاحت ضونيا إرميليندا، ونادت-.

نادت بعد ذلك على الخادمة، ولما حضرت:

- قل للآنسة أن تأتي!

بعد صمت. سكتوا وكأنهم متواطئون. قال أوغوسطو في قرارة نفسه: «هل سأتحمل هذا الموقف؟، لن تحمر وجنتي كالأقحوان أو تبيض كالزنبق عندما تملأ عيناها فراغ تلك الباب؟، ألا ينفجر قلبي؟» سُمع همس خفيف، مثل همس حمامة ستطير، آه قصيرة ويابسة، وعينا إوخينيا، في محيى كله عذوبة الحياة وفي جسم يبدو أنه لا يثقل الأرض، أضفيا على المشهد نورا جديدا، وغامضا. وأحس أوغوسطو بهدوء، مسمر في مقعده، وكأنه غرس نبت فيه، شيء نباتي، نسي نفسه، مندهش أمام النور الروحي الذي يشع من تلك العينين. وعندما سمع ضونيا إرميليندا تقول لابنة أختها: «هذا هو صديقنا السيد ضون أوغوسطو بيريث...» رجع إلى نفسه ووقف محاولا أن يبتسم.

نعم، صاحب طائر الكناري، يا آنسة -أجاب أوغوسطو، اقترب منها ومد يده. وفكر: «ستحرق يدي بيدها!» لكن لم يحدث ذلك. يد بيضاء وباردة، بيضاء كالثلج، وكالثلج باردة. وأحس أوغوسطو أن بجسمه كله ينساب سائل متدفق من السكينة.

جلست إوخينيا.

- ومن يكن هذا السيد -سألت صاحبة البيانو-.
«هذا السيد... هذا السيد... -فكر أوغوسطو بسرعة فائقة- هذا السيد! تناديني بالسيد! هذا فأل سيء!»
- هذا السيد، يا بنيتي، فعل خيرا من أجل مصادفة سعيدة...
- نعم، مناسبة طائر الكناري.
- إن دروب العناية الإلاهية غامضة -عبر عن رأيه بدغمائية عمها الأنارشي-.
- هذا السيد، أقول -أضافت عمتها-، بسبب مصادفة سعيدة تعرف علينا، والمفاجأة هو أنه ابن سيدة تعرفت عليها قليلا واحترمتها كثيرا؛ هذا السيد، بما أنه صديق هذا البيت، يرغب في معرفتك، يا إوخينيا.
- وأنا معجب بك! -أضاف أوغوسطو-.
- معجب بي؟ -صاحت إوخينيا-.
- نعم أنا معجب بك، كعازفة البيانو!
- آه، إذن.
- أعرف يا آنسة، مدى حبك الكبير للفن...
- حبي للفن؟ أي فن، لفن الموسيقى؟
- طبعا!
- إذن خدعوك يا سيدي، ضون أوغوسطو!
- ضون أوغوسطو! ضون أوغوسطو! -فكر هذا الأخير... ! أي فأل سيء لهذا الضون! سيء مثل ذاك السيد!-. وبعد ذلك بصوت عالي:
ألا تعجبك الموسيقى؟
- لا تعجبني ولا قرصة. أؤكد لك هذا.
- ليدوبينا على صواب -فكر أوغوسطو-؛ هذه الفتاة بعد الزواج، إذا أعالها الزوج، لن تعزف البيانو. وبعد قليل، قال بصوت عال:
- إنك معروفة كأستاذة بيانو جيدة...
-أحاول أن أقوم بواجبي المهني على قدر المستطاع، ولأنني كذلك أعيش من هذا العمل...
- تعيشين من هذا العمل... -قال ضون فيرمين-.
- طيب، كفى -قاطعته العمة-؛ إن السيد ضون أوغوسطو له علم

بكل شيء...

- بكل شيء؟ أي شيء؟ -سألت بخشونة إوخينيا، وبإماءة خفيفة همت إوخينيا للوقوف-.

- نعم، مسألة الرهن...

- كيف؟ -صاحت بنت الأخ واقفة-. لكن ما هذا، ماذا يعني كل هذا، ما الغاية من هذه الزيارة؟

- سبق لي أن قلت لك، يا ابنة أخي، إن هذا السيد يرغب في التعرف عليك... ولا تتغيري هكذا...

- لكن هناك أشياء...

- أعذري السيدة عمتك، يا آنسة -رجاها أوغوسطو واقفا على رجليه، ونفس الشيء فعلا العمة والعم-؛ لا شيء آخر... أما ما يتعلق بالرهن وتفانيك وحبك للعمل، فأنا لم أفعل أي شيء لأنتزع من السيدة عمتك هذه الأخبار الهامة؛ أنا...

- نعم، أنت جئت بالكناري بعد أيام من توجيه رسالة لي...

- بالفعل، لا أنكر هذا.

- إذن، طيب، يا أيها السيد، الجواب على تلك الرسالة سيكون عندما أرغب أنا في ذلك دون ضغط من أي أحد. والآن من الأفضل أن أغادر.

- طيب!، -صاح ضون فيرمين-. هذه هي النزاهة والحرية! هذه هي امرأة المستقبل! نساء مثل هذه يجب كسبها بقبضة، يا صديقي بيريث، بقبضة!

- أيتها الآنسة... ! -رجاها أوغوسطو مقتربا إليها-.

- أنت على صواب -قالت إوخينيا، ومدت يدها إليه لتوديعه، بيضاء بقدر ما هي باردة كالثلج.

عندما أدارت ظهرها متأهبة للخروج، واختفاء عيناها، مصدر ذاك النور الروحاني الغامض، أحس أوغوسطو بموجة النار تسري في جسده، قلبه يضرب في صدره كالمطرقة، ورأسه كأنه سينفجر.

- هل أنت ليس بخير؟ -سأله ضون فيرمين-.

- يا لها من فتاة، يا إلاهي، يا لها من فتاة! -صاحت ضونيا إرميليندا-.
- عجيبة!، مهيبة وعظيمة!، بطلة!، امرأة!، كلها امرأة! -قال أوغوسطو-.
- هذا ما أعتقد أنا كذلك -أضاف عمها-.
- اعذرني، سيدي ضون أوغوسطو -وكررت عمتها- اعذرني؛ هذه الفتاة كثل قنفد صغير؛ من كان سيظن ذلك.
- لكن، أنا مسرور، سيدتي، مسرورا هذا الاستقلال القوي الذي يميز شخصيتها، ينقصني أنا، هو ما يحمسني أكثر!، نعم هذه، هذه، هذه هي المرأة التي أنا في حاجة إليها، وليست أخرى!
- نعم، يا سيد بيريث، نعم -فخم الأنارشي كلامه-؛ هذه هي امرأة المستقبل!
- وأنا؟ -سألتهما إرميليندا-.
- أنت تنتمين للماضي! أقول، إن هذه امرأة للمستقبل! طبعا، ليس مجانا أنها كانت تصغى إلي وأنا أحاضر يوما بعد يوم حول مجتمع المستقبل وامرأة المستقبل؛ ليس مجانا كنت ألقنها مذاهب التحرر الأنارشية... بدون قنابل!
- إذن، أنا -قالت العمة في حالة غضب- إن هذه الفتاة الصغيرة قادرة على إلقاء القنابل.
- وحتى ولو كانت كذلك... -ألمح أوغوسطو-.
- لا، لا، هذا لا! -قال عمها-.
- سيان ؟
- يا ضون أوغوسطو! يا ضون أوغوسطو!
- أنا أعتقد -أضافت عمتها- إن ما حدث اليوم لا يجب أن يكون سببا في تراجعك عن خطبتها...
- طبعا لا! هكذا تستحق التقدير أكثر.
- إذن عليك أن تفوز بقلبها! واعلم أننا بجانبك ويمكنك أن تأتي إلى هذا المنزل متى شئت، أحبت أم كرهت إوخينيا.
- لكن، يا امرأة، إنها لم تظهر عدم رضاها عن زيارة ضون أوغوسطو لهذا البيت!... يجب ربحها بقبضة اليد يا صديقي! ستعرفها فيما بعد،

وسترى من أي معدن هي. كلها امرأة، يا ضون أوغوسطو، ويجب كسبها بقبضة اليد، بقبضة اليد. ألا تريد أنت أن تعرفها؟
– نعم، و لكن...
– أفهم، أفهم. إلى الكفاح، إذن، يا صديقي!
– حقيقة، حقيقة، والآن سأغادر، وداعا!

ناداه ضون فيرمين ليتكلم معه وحده، و قال له:
– نسيت أن أقول لك عند كتابة اسم إوخينيا، أكتبه بحرف خوطا(J) بدل حرف خي(g) وديل أركو بحرف.(k)
– ولماذا؟
– لأنه، حتي يصل اليوم السعيد الذي ستصبح فيه لغة الإسبيرانتو هي اللغة الوحيدة، الوحيدة التي تتكلم بها البشرية جمعاء، علينا أن نكتب القشتالية بحروف صوتية. لغة ليس فيها س، ثا، ثي، ثو، بالثاء، كا، كي، بالكاف. وبدون هـ! الهاء هي العبث، الرجعية، السلطة، العصر الوسيط، التخلف، الحرب على الهاء!
– إذن بشكل ما أنت مختص في علم الأصوات؟
– كذلك؟ ولماذا كذلك؟
– لأنك أنارشي وإسبيرانتو...
– الكل واحد، يا سيدي، الكل واحد. الأنارشية، الإسبرانتية، الروحانية، النباتية، علم الأصوات... الكل واحد! الحرب ضد السلطة، الحرب على فصل اللغات!، الحرب على المادة الحقيرة المنحطة، الحرب ضد الموت!، الحرب ضد المادة! الحرب ضد الهاء!، وداعا! وخرج أوغوسطو إلى الشارع، مرحا وكأنه خفف من ثقل كبير. لم يكن يتوقع ما كان يحدث له داخل روحه. تلك الطريقة التي قدما له إوخينيا لأول مرة، التقيا فيها بهدوء وعن قرب، تحدثا معا، بعيدا عن إلامه، أشعل ناره وشجعه أكثر. الدنيا بدت له واسعة، الهواء أكثر نقاوة، والسماء أكثر زرقة. كأنه استنشق الهواء أول مرة. في حميمية أذنه كانت تغني كلمات أمه: تزوج! جميع النساء التي يمرن أمامه في الشارع، كان يراهن جميلات، بعضهن حسناوات جدا، وكأن الدنيا بالنسبة إليه أضاءها نور غامض جديد آت من نجمتين كبيرتين غير مرئيتين

تلمعان فيما وراء زرقة السماء، وراء قبة السماء.

بدأ يعرف الدنيا. وبدون علم منه بدأ يفكر في الالتباس المبتذل العميق بين خطيئة اللحم وسقوط أباءنا الأولين عندما ذاقوا من فاكهة شجرة علوم الشر والخير. وتأمل في مذهب ضون فيرمين حول أصل المعرفة.

وصل إلى المنزل، وعندما خرج أورفيو لاستقباله أخذه في دراعه وقال له: «اليوم نبدأ حياة جديدة، يا أورفيو. ألا تشعر أن الدنيا اليوم أكثر شسوعا، الهواء أكثر نقاء والسماء أكثر زرقة؟ آه، عندما ستراها، يا أورفيو، عندما ستعرفها...! ستشعر بحسرة وغم بأنك لست غير كلب مثلما أشعر أنا أنني غير إنسان! وقل لي يا أورفيو، كيف يمكنكم أن تعرفوا وأنتم لا ترتكبون المعاصي والخطايا، ومعرفتكم ليست خطيئة؟ المعرفة التي ليست خطيئة، ليست معرفة، ليست عقلانية.»

عندما قدمت له الأكل، نظرت إليه المخلصة ليدوبينا.

- إلى ماذا تنظر؟ -سألها أوغوسطو-.
- يبدو لي أن هناك رحيل.
- من أين أتيت بهذا؟
- سيدي، له وجه آخر.
- أتعتقدين؟
- طبعا! وماذا، هل وصلت إلى حل في أمر أستاذة البيانو؟
- يا ليدوبينا! يا ليدوبينا!
- أنت على صواب، يا سيدي؛ وتهمني كثيرا سعادتك!
- حقيقة.

ونظر الاثنان إلى الأرض، وكأن سر السعادة تحتها.

IX

في اليوم التالي كانت إوخينيا تتكلم مع شاب في بيت البوابة، صغير ومتسخ، بينما كانت البوابة قد خرجت إلى باب البناية لتستنشق الهواء البارد.

– من الضروري أن نضع حدا لهذا الأمر، يا ماوريسيو –قالت له إوخينيا–، لا يمكن أن نستمر هكذا، وخاصة بعد كل ما حدث أمس.

– لكن، ألم تقولي –قال لها ماوريسيو– إن ذاك المتقدم للزواج بك غبي المسكين؟

– نعم، لكن غني وعمتي لن تتركني في سلام. والحقيقة، لا يرضيني أن أكون قبيحة مع أي أحد، ولا يعجبني أن يتسبب لي أحد في آلام الرأس.

– تطردينه!

– من أين؟ من منزل عمتي؟ وإذا رفضت؟

– لا ترضيه.

– لا أرضيه ولا أنوي إرضاءه، لكن أخمن أنه سيأتي للزيارة في الساعات التي سأكون أنا فيها في المنزل. المسألة ليست هي كما تفهمها أنت، أن أنعزل في غرفتي، وأن أمنعه من رؤيتي، وسيعتبر نفسه ضحية صامتة.

– دعه يتعاطى لـ...

– لا، لا يمكن لي أن أتحمل بأية طريقة المتسولون، وبالأخص أولائك يتسولون الصدقة بعيونهم. ويا لها من نظرات يسلط علي!

– يثير انفعالك؟

– يزعجني كثيراً. والحقيقة، لما لا أقولها لك؟ نعم يثير انفعالي.

– وتخافين؟

- لا تكن أبله، يا رجل! لا أخاف أي شيء. بالنسبة لي لا يوجد أي أحد غيرك.

- أعرف ذلك! -قال ماوريسيو بكل اقتناع، واضعا إحدى يديه على ركبة إوخينيا، تاركا إياها هناك-.

- من الضروري أن تقرر يا ماوريسيو.

- في ماذا، يا حلوة، في ماذا؟

- أن تكون رجلا، أن نتزوج دون انتظار!

- وبماذا نعيش؟

- بعملي حتى تجد أنت عملا.

- بعملك أنت؟

- نعم، الموسيقى الكريهة!

- نعيش من عملك؟ ذاك ما لن أقبله!؛ أبدا!؛ أبدا!؛ يمكن أن أقبل كل شيء إلا أن نعيش من عملك! سأبحث عن عمل، أبحث عنه، أن ننتظر...

- لننتظر... لننتظر... وهكذا ستمضي بنا الأعوام -صاحت إوخينيا، ضاربة بكعب حذائها الأرض، بالقدم التي كان واضعا ماوريسيو يده على ركبتها. وعندما أحس بيده تهتز، رفعها عن ركبتها، وألقى يده في عنقها وبدأ يلعب بأصابعه بأقراط خطيبته. تركته إوخينيا يفعل.

- أنظري، يا إوخينيا، لكي تتسلين، أظهري لذاك الغبي الوجه الطيب.

- يا ماوريسيو!

- أنت على صواب، لا تغضبي يا حلوتي! -وأخذ رأس إوخينيا بذراعه، قبّلهاَ في شفتيها، كانت قبلة مبللة، صامتة وطويلة-.

- ماوريسيو!

ثم قبلها في عينيها.

لا يمكن أن نستمر هكذا، يا ماوريسيو!

- كيف؟ لكن، هل هناك ما هو أحسن من هذا؟، أتعتقد أننا لن نقضي لحظات أمتع؟

- أقول لك، يا ماوريسيو، إننا لا يمكن أن نستمر هكذا. عليك أن تبحث عن عمل. أكره الموسيقى.

كانت المسكينة تحس، دون شعور واضح منها، أن الموسيقى هي إعداد أبدي، تهيء لمجيء حدث مهم لا يصل أبدا، بداية أبدية لا تنتهي إلى أي شيء. كانت قد شبعت وملت الموسيقى.

– سأبحث عن عمل، يا إوخينيا، سأبحث عن عمل.

– دائما تقول وتكرر نفس الشيء، نعيش نفس الشيء.

– تعتقد أنت...

– أنا أعرف أنك في عمقك لست غير كسول، وسيكون من الضروري أن أبحث أنا لك عن عمل. طبعا أنتم الرجال تتحملون الانتظار...!

– هذا ما تعتقدينه أنت...

– نعم، نعم، أعرف جيدا ما أقول. والآن أكرره، لا أريد أن أرى العيون المترجية لأوغوسطو مثل عينا كلب جائع...

– يا لها من أشياء تخطر ببالك، يا فتاة!

– والآن –أضافت واقفة وأبعدته بيدها–،

– إوخينيا! إوخينيا! –همس في أذنها بصوت جاف، يكاد يكون محموما–، لو أردت أنت...

– الذي عليه أن يتعلم أن يحب هو أنت، يا ماوريسيو. عليك أن تكون رجلا! ابحث عن عمل، قرر في الحين؛ وإلا سأعمل أنا؛ لكن قرر في القريب. وفي الحالة الأخرى...

– في الحالة الأخرى، ماذا؟

– لا شيء! يجب إنهاء هذا!

و لم تترك له فرصة الرد ولا التعقيب، خرجت من تلك الحجرة الصغيرة المتسخة للبوابة. عندما التقت البوابة قالت لها:

– ثمة يبقى ابن أختك، يا سيدة مارطا، وقولي له أن يقرر مرة واحدة.

وخرجت إوخينيا إلى الشارع مرفوعة الرأس، وفي تلك اللحظة سُمعت موسيقى البولكا غاضبة، رقصة بولونية، صادرة عن آلة البيانو الآلي المحمول. «فظيع، فظاعة، فظاعة!»، قالت الفتاة، وبدل أن تمشي هربت في الشارع المنحدر.

X

بما أن أوغوسطو كان يحتاج إلى من يحكي أسراره توجه للكازينو عند صديقه بيكطور، في اليوم التالي، بعد تلك الزيارة التي قام بها لمنزل إوخينيا وفي نفس الساعة التي همزت هي حبها البطيء والمتأني لخطيبها في باب البناية.

أحس أنه أوغوسطو آخر وكأن تلك الزيارة التي كشفت على أنها امرأة قوية -من عينيها كانت تسيل القوة- ستحرث أحشاء روحه، ويولد بها منبع خفي. كان يطأ الأرض بقوة أكثر، ويتنفس بحرية.

«الآن لدي هدف، لدي غاية في هذه الحياة -قال لنفسه-، وهي أن أغزو هذه الفتاة أو تغزوني هي. وهو نفس الشيء. في الحب سواء كنت غالبا أم مغلوبا يعني نفس الشيء. بالرغم من... لا... لا! يعني في هذه الحال مغلوب هو أن تهجرني من أجل آخر. من أجل رجل آخر، نعم، لأنه هناك آخر، لا شك في ذلك.

آخر؟، آخر ما؟ هل أنا الوحيد؟ أنا مرشح، أنا أطلبها، الآخر أخمن أنه ليس مرشحا ولا طالبا يدها، أليس أكثر...؟»

جسم امرأة يشع عذوبة، وصحة وابتهاجا، مرت بجانبه، وقطعت مناجاته وجرته وراءها. سار وراءها، بطريقة آلية، وراء ذاك الجسم، مناجيا نفسه:

«يا لها من حسناء! هذه وتلك، الواحدة والأخرى. والآخر ربما هي تطلبه، بذل هو؛ ربما لا يتجاوب معها كما تستحق... لكن يا له من سرور وفرح هي هذه الفتاة!، جذابة عند تحيتها للآخر الذي يمشي في الجهة الأخرى! من أين أتت بتلك العينين؟ مثل الأخريين، يشبهان عينا إوخينيا! يا لها من حلاوة أن ينسى المرء الحياة والموت بين ذراعيها!، وأن يجعلهما كأمواج مهد من لحم! الآخر...! لكن الآخر ليس خطيب إوخينيا، ليس هو ذاك الذي تحب؛ الآخر هو أنا. نعم، أنا هو الآخر، أنا آخر!»

عندما وصل إلى هذه الخلاصة، بأنه هو الآخر، دخلت الفتاة التي كان يتبعها إلى منزل. وبقي أوغوسطو واقفا، ينظر إلى ذاك المنزل. إذ ذاك انتبه إلى أنه كان يتبعها. وأدرك أنه كان ذاهبا إلى الكازينو، وأخذ طريقه إليه. واستمر في مناجاته:

«كم من نساء حسناوات في هذا العالم، يا إلاهي! جميعهن حسناوات تقريبا. الشكر لك يا ربي، الشكر لك؛!! gratias agimus tibi propter magnam gloria tuam جنتك هي جمال المرأة، يا رب! لكن يا له من شعر، يا رب، يا له من شعر!» فعلا كان لها شعر مجيد تلك الخادمة، التي مرت أمامه حاملة سلة بذراعها. وقفل من وراءها. يبدو أن النور يعشعش في شعرها، وكأنه يصارع من أجل أن يتحرر من ضفيرتها، ويتبدد في الهواء العذب الصافي. وتحت شعرها محيا كله ابتسامة.

«أنا الآخر، الآخر أنا –استمر يقول بينما كان يمشي وراء صاحبة السلة–؛ لكن، ألا توجد أخريات؟ نعم، توجد للآخر! لكن مثل واحدة، مثلها، الوحيدة، لا توجد مثلها! كل النساء لسن غير تقليد مشوه لها، لواحدة، الوحيدة، لإوخينيتي الحلوة! لي أنا؟ نعم؛ بالتفكير، بالرغبة أجعلها لي. الآخر يمكن أن يملكها ماديا، لكن ذاك النور الروحاني الغامض في عينيها هو لي، لي، لي! ألا يعكس هذا الشعر الذهبي نور روحاني غامض؟ هل توجد إوخينيا واحدة، أم إثنان، واحدة لي والأخرى لخطيبها؟ إذا كان كذلك، فليبقى هو بمن هي له، وأنا بمن هي لي. عندما يكسوني الحزن، خاصة في الليل؛ عندما

تسيطر علي الرغبة في البكاء بدون أن أعرف السبب، يا لها من حلاوة أن أغطي وجهي، وفمي، وعيني، بذاك الشعر الذهبي، وأتنفس الهواء الذي يتسرب بينه ويعطره! لكن...» أحس أنه توقف في الحين. صاحبة السلة توقفت لتتحدث مع احدى زميلاتها. تردد أوغوسطو لحظة، مخاطبا نفسه: «خلاص، هناك نساء كثيرات حسناوات منذ أن عرفت إوخينيا...!» وانطلق في مشيه، راجعا في اتجاه الكازينو.

«إذا كانت هي مصرة على تفضيل الآخر، واحد، فأنا قادر على اتخاذ قرار بطولي، سيحدث فزعا عظيما. قبل كل شيء، أحبتني أم لا، فإن الرهن الذي تسدد دينه لن يبقى هكذا!» انتزعه من مناجاته انفجار متعة يبدو أنه خرج كالبرعم من سكون السماء. بنتان تضحكان بالقرب منه، وابتسامتهما كتغريد الطيور في نبات الزهور المتشابكة. سمر عينيه المتعطشتين للجمال في كلا الفتاتين، وظهرتا له كجسم واحد منقسم إلى اثنين. تسيران الواحدة متأبطة دراع الأخرى. وأحس برغبة جامحة لتوقيفهما، وأخذ كل واحدة منهما من دراعها والمشي وسطهما، ناظرين إلى السماء، إلى حيث يحملنا ريح الحياة.

كم من امرأة جميلة رأيت منذ أن تعرفت على إوخينيا! -قال مخاطبا نفسه ماشيا وراء تلك الفتاتين- لقد تحول هذا الشيء إلى جنة!؛ يا لهما من عينين!، يا له من شعر!، يا لها من ابتسامة!، الواحدة شقراء وسمراء الأخرى؛ لكن من منهما شقراء؟، ومن منهما سمراء؟ تختلطان ولا أميز بينهما!...»

- لكن يا رجل، هل أنت نائم أم مستيقظ؟
- أهلا بيكطور.
- كنت أنتظرك في الكازينو، وبما أنك لم تأت...
- كنت ذاهب إلى هناك...
- إلى هناك؟، في ذاك الاتجاه؟ هل أنت مجنون؟
- إنك على صواب؛ لكن أنظر، سأقول لك الحقيقة. أظن أنني حدثتك عن إوخينيا...

- أستاذة البيانو؟، أليس كذلك؟

- إذن طيب؛ فأنا مغرم بها لدرجة الجنون، كالـ...

- نعم، كالعاشق. استمر.

- مجنون، مجنون، مجنون. أمس رأيتها في منزلها، تحت ذريعة زيارة أعمامها؛ رأيتها...

- ونظرت إليك، أليس كذلك؟، وآمنت بالله؟

- لا، لم تنظر إلي، لفتتني بنظرتها؛ وليس أنني آمنت بالله، بل اعتقدت أنني إلاه.

- تأثيرها كان قويا عليك، يا ولد...

- وذلك لأن الفتاة كانت شجاعة! ومنذ ذلك الحين لا أدري ما يحدث لي: أكاد أرى أن جميع النساء حسناوات، ومنذ أن خرجت من منزلي، تقريبا منذ نصف ساعة بالتأكيد، عشقت ثلاثة، بل أربعة: واحدة، الأولى، أجمل ما فيها عينيها، و فيما بعد الأخرى شعرها جنة، ومنذ قليل اثنتان، واحدة شقراء وأخرى سمراء، ضحكتهما الملائكة. وسرت وراء الأربعة. ماذا يعني هذا؟

- يعني ذلك، يا عزيزي أوغوسطو، أن بديل حبك ينام جامدا في أعامقه روحك، و لم يجد مكانه؛ وجاءت إوخينيا، أستاذة البيانو، وأحدثت فيك رجة وعالجت بعيونها تلك البركة التي ينام فيها حبك: استيقظ وتفجر منها كالبرعم، وبما أنه كبير انتشر في جميع الجهات. مثلك عندما يعشق امرأة عشقا حقيقيا، في نفس الوقت يعشق من خلالها كل النساء.

- أنا كنت أعتقد العكس... لكن بين قوسين، أنظر يا لها من سمراء!، إنها ليلة مضيئة!، صحيح ما يقولون عن الأسود بأنه يمتص الضوء! ألا ترى الضوء الذي يختفي تحت شعرها، وتحت كهرمان أسود عينيها؟ هيا بنا نتبعها...

- كما تريد...

- نعم، كنت أعتقد العكس؛ أن المرء عندما يعشق عشقا حقيقيا يركز حبه، قبل أن يبعثره على جميع النساء، يجب أن يمنحه لواحدة، والأخريات لا قيمة لهن... لكن أنظر! أنظر ضربة الشمس في أسود شعرها!

- لا؛ سأحاول أن أشرح لك. أنت كنت تعشق تلك المرأة دون أن تعلم ذلك طبعا، ليست هذه أو تلك، بل مجردة؛ لكن عندما رأيت إوخينيا

المجرد أصبح ملموسا والمرأة أصبحت امرأة وعشقتها، والآن هي وجهتك، لن تتخلى عنها، وتقريبا كل النساء، عشقك جماعي، نوعي، من امرأة إلى امرأة، ومن امرأة إلى كل النساء.

– يا لها من ميتافيزيقا!

– وأليس الحب غير ميتافيزيقا؟

– طبعا يا رجل!

– وخاصة حالتك. لأن كل عشق هو دماغي، أو كما يقال عادة في الرأس.

– هذا ما تعتقده أنت... –صاح أوغوسطو غاضبا، بعد أن مسه بقوله إن عشقه ليس إلا عشقا بالرأس، وألمه في أعماق روحه.

– وإذا عجلتني كثيرا أقول لك أنك بنفسك لست غير فكرة صافية، كيان من الخيال...

– ألا تعتقد أنني غير قادر على العشق الحقيقي، مثل الآخرين...؟

– حقيقة أنك عاشق، أعتقد ذلك، ولكن بالرأس فقط. وتعتقد أنك عاشق...

– وما معنى أن يكون المرء عاشقا سوى أنه يعتقد أنه كذلك؟

– آه، آه، آه، يا ولد، ذاك أكثر تعقيدا مما تتصور!...

– قل لي، كيف يعرف المرء أنه عاشقا وليس أنه يعتقد ذلك فقط؟

– أنظر، من الأفضل أن نترك هذا الأمر ولنتكلم عن أشياء أخرى.

عندما عاد أوغوسطو إلى المنزل أخذ بين ذراعيه أورفيو وقال له: «لنرى يا أورفيو، كيف يمكن للمرء أن يميز بين أنه عاشق، وبين أنه يعتقد ذلك فقط؟ هل أنا أعشق إوخينيا أم لا؟، هل عندما أراها لا يخفق قلبي في صدري ويشتعل دمي؟ ألست أنا مثل باقي الرجال؟ علي أن أثبت، يا أورفيو، أنني مثلهم!»

وفي ساعة العشاء، تواجه مع ليدوبينا حيث سألها:

– قولي لي يا ليدوبينا، كيف يمكن أن نعرف رجلا يعشق حقيقة؟

– لكن، ما هذه الأشياء التي تخطر ببالك يا سيدي...!

– هيا، قولي، كيف يعرف؟

- يُعرف... يُعرف من خلال ما يفعل وما يقول من تفاهات. عندما يعشق الرجل العشق الحقيقي، يجن، أعني، يجن من أجل امرأة، وهذا ليس برجل...

-إذن، ما هو؟

- هو... هو... هو... شيء، حيوانٍ صغير... تفعل به المرأة ما تريد.

- إذن، عندما تعشق المرأة الرجل، تُجن، كما تقولين، ويفعل الرجل بها ما يريد؟.

- ليس هناك تشابه في الحالتين تماما...

- كيف، كيف؟

- أمر يصعب تفسيره، يا سيدي. لكن هل أنت مغرم حقيقة؟

- هذا ما أريد أن أتحقق منه. لكن التفاهات من النوع الغليظ لم أقلها و لم أفعلها حتى الآن... يبدو لي...

سكتت ليدوبينا، وقال أوغوسطو: «هل أنا مغرم حقيقة؟»

XI

عندما طرق أوغوسطو في ذلك اليوم باب منزل ضون فيرمين وضونيا إرميليندا، أدخلته الخادمة إلى القاعة الصغيرة قائلة له: «الآن سأخبرهما». بقي وحده لحظة وكأنه في فراغ. أحس بضغط في صدره. حاصره شعور الشدة والحسرة. جلس ونهض في نفس اللحظة وشغل نفسه بالنظر إلى الإطارات المعلقة في الحائط، صورة لإوخينيا وسطهما.

أحس برغبة في الجري، في الهروب. في الحين، سمع خطوات صغيرة، أحس بطعنة خنجر من ثلج يخترق صدره وضباب بحري يغزو رأسه. فتح باب الصالة وظهرت إوخينيا. اتكأ على ظهر كرسي. عندما رأته شاحب الوجه، بهت لونها لحظة وبقيت معلقة وسط الصالة، ثم اقتربت منه، وقالت له بصوت جاف وخفيض:

– ماذا يحدث لك، يا سيد ضون أوغوسطو، هل أنت مريض؟

– لا، لا شيء؛ لا أدري...

– هل تريد شيئا؟ هل تحتاج إلى شيء؟

– كأس ماء.

إوخينيا، كالذي يرى مقبض، خرجت من الصالة لتأتي بكأس ماء، وأحضرته في الحين. كان الماء يتحرك في الكأس؛ وارتعش أكثر في يد أوغوسطو، الذي شربه في دفعة واحد، متعثرا، وسكب الماء على لحيته، ولم يحد عيناه من عينا إوخينيا.

– إذا أردت –قالت– آمر بأن يهيؤوا لك شاياً، أو بابونجاً، أو تيلا... هل أنت بخير؟

- لا، لا شيء؛ شكرا إوخينيا، شكرا -ونشف لحيته من الماء-.
- والآن اجلس -واستمرت هي في حديثها-: كنت أنتظرك كل يوم وأمرتُ الخادمة أن تدخلك إلى هذا المنزل حتى ولو لم تكن عمتي وزوجها، كما يحدث أحيانا وأن تخبرني. هكذا كنت أرغب في أن نتحدث رأسا لرأس.
- آه يا إوخينيا، إوخينيا!
- طيب، لنتحدث في هدوء. لم أكن أتخيل أن الموقف سيكون قويا بالنسبة لك، لقد خفت عليك عندما دخلت إلى هنا، كان وجهك يشبه الميت.
- صدقني، كنت ميتا أكثر من حي.
- أصبح من الضروري أن نفسر لبعضنا كل شيء.
- إوخينيا! -صاح المسكين، ومد يده التي أخذتها من طرف أصابعه. يبدو لي أنك لست مستعدا للحديث بهدوء كأصدقاء طيبين. لننظر - وأخذت يده لتقيس نبضها.

وبدأت يد أوغوسطو المسكين تنبض وارتفعت درجة حرارته، واحمر وجهه، والتهب جبينه. انمحت عينا إوخينيا من رؤيته ولم يعد يرى غير الضباب، ضباب أحمر. واعتقد لحظة أنه فقد الوعي.
- كوني رحيمة، يا إوخينيا، ارحميني!
- هدء نفسك، يا ضون أوغوسطو، هدء نفسك!
- ضون أوغوسطو... ضون أوغوسطو... ضون... ضون...
- نعم، يا أوغوسطو الطيب، هدِّء نفسك ولنتكلم في هدوء.
- لكن، سامحيني... -وأخذ بين يديه يدها اليمنى البيضاء والباردة كالثلج، ذات الأصابع العظمية، معمولة للمس مفاتيح البيانو، لانتزاع منها أعذب الأصوات المتتالية.
- كما تريد، سيدي ضون أوغوسطو.

أخذها هذا الأخير وحملها إلى شفتيه وملأها قبلات لم تكد تدفئ برودتها البيضاء.

- عندما تنتهي، ضون أوغوسطو، نكمل حديثنا.
- أنظري يا إوخينيا، تعالي...
- لا، لا، لا، الجدية! -وسلت يديها من بين يديه وأضافت قائلة- أنا لا أعرف أي نوع من الأمل جعلاك أعمامي تدرك، أو على الأصح عمتي، لكن، الحال هو أنك مخدوع.
- مخدوع، كيف؟
- ربما قالا لك أن لي خطيب.
- أعرف ذلك.
- قالا لك هذا؟
- لا، لم يقل أحد ذلك، لكني أعرف.
- إذن...
- لكن، يا إوخينيا، أنا لا أدعي شيء، لا أبحث عن شيئ، لا أطلب شيئا؛ إوخينيا أنا أكتفي بأن يسمح لي أن آتي من حين لآخر لأغسل روحي في نظرات تلك العينين، أن أسكر في بخار تنفسك...
- طيب، ضون أوغوسطو، تلك أشياء تقرأ في الكتب؛ لنترك هذا. أنا لا أعترض. أنا لن أعارض رغبتك في مجيئك، وأن تراني، أن تتكلم معي وحتى... ورأيت ذلك، وحتى تقبيل يدي، لكن أنا لي خطيب، الذي أعشقه وأعتقد أنني سأتزوج به.
- لكن حقيقة أنك مغرمة به؟
- يا له من سؤال!
- وكيف تعرف أنك مغرمة به؟
- لكم
- لكن، هل أصبحت مجنونا، يا ضون أوغوسطو؟
- لا، لا؛ أقول ذلك لأن أحد أصدقائي قال لي، هناك الكثير من الناس يعتقدون أنهم يحبون دون أن يكون ذلك...
- قال هذا عنك، أليس كذلك؟
- نعم، قال ذلك عني، إذن؟
- في حالتك يمكن أن يكون ذلك صحيحا...
- لكن، هل تعتقدين، إوخينيا، أنني لا أعشقك حقيقة؟

- لا ترفع صوتك، ضون أوغوسطو، يمكن أن تسمعك الخادمة...
- نعم، نعم -تابع كلامه صائحا-، هناك من يعتقد أنني لست قادرا على العشق الحقيقي...!
- اعذرني لحظة -قاطعته إوخينيا، وخرجت وتركته وحيدا. ورجعت بعد قليل وبهدوء تام قالت له:
- طيب، ضون أوغوسطو، هل هدأت؟
- إوخينيا، إوخينيا!

في هذه اللحظة سمع أحد يطرق الباب، وقالت إوخينيا: «عمتي وزوجها!» وبعد دقائق قليلة دخلا إلى الصالة.

- جاء ضون أوغوسطو، فتحت له الباب، أراد الذهاب، وطلبت منه أن يتفضل، لأنكما لن تتأخرا، وها هو هنا!
- ستأتي أزمنة -صاح ضون فيرمن- حيث ستتلاشى التقاليد الاجتماعية كلها! أنا على اقتناع أن السياجات والجداريات التي تحيط بالأملاك الخاصة، ليست سوى حافز لأولئك الذين نسميهم لصوصاً، وهم الملاك.
- لا توجد ملكية مضمونة غير تلك التي لا يحميها سياج ولا حائط، في متناول الجميع. الإنسان يولد طيبا، طبعا طيب؛ المجتمع يفسده ويحوله إلى شرير...
- اخرس، يا رجل -صاحت ضونيا إرميليندا-، دعني أسمع غناء طائر الكناري! هل تسمعه يا ضون أوغوسطو؟، سماعه يسحرني! عندما بدأت تتعلم هذه دروس البيانو كان عليها أن تسمع كنار آخر كان عندي: كان يثيرها وإذاك كانت تضرب أكثر على مفاتيح البيانو، وكان هو يغرد أكثر وأكثر. ومات جراء ذلك، انفجارا...
- حتى الحيوانات الأليفة ننقل إليها عدوى رذائلنا! -أضاف عمها- حتى الحيوانات التي تتعايش معنا انتزعناها من حالتها الطبيعة المقدسة! آه من هذه الإنسانية، آه من هذه الإنسانية!.
- انتظرت طويلا، يا ضون أوغوسطو؟ -سألته عمتها-.

- لا، لا، يا سيدتي، لا، لا شيء، لا شيء، لحظة، برق... هذا ما بدا لي...

- هيا، دعنا من هذا!

- نعم، يا عمتي، بعض الوقت، لكن ما يكفي لكي يرتاح من توعك خفيف جاء به من الشارع...

- كيف ذلك؟

- لا شيء يا سيدتي، لا شيء...

- الآن سأترككم، علي أن أقوم -قالت إوخينيا، ومدت يدها لأوغوسطو وغادرت-.

- وكيف ذلك؟ -سألت عمتها أوغوسطو عندما خرجت إوخينيا-.

- ماذا؟

- الغزوة، طبعا!

- الأمر سيء! قالت لي إن لها خطيباً وستتزوج به.

- ألم أقل لك ذلك، يا إرميليندا، ألم أقل لك ذلك؟

- لا، لا، ثم لا، لا يمكن. أن يكون لها خطيب حماقة، يا ضون أوغوسطو، إنها حماقة!

- لكن، سيدتي، وإذا كانت تعشقه...؟

- هذا ما أقوله أنا -صاح عمها-، هذا ما أقوله أنا. الحرية، الحرية المقدسة، حرية الاختيار!

- لا، لا، ولا! هل تعرف تلك الصغيرة ماذا تفعل...؟ استهانتك يا ضون أوغوسطو! لا يمكن ذلك!

- لكن، سيدتي، فكري في الأمر، تمعني جيدا... لا يمكن، لا يجب تعنيف إرادة شابة مثل إوخينيا... الأمر يتعلق بسعادتها، وعلينا أن نهتم بها فقط، وأن نضحي من أجل أن تحقق سعادتها...

- وأنت يا ضون أوغوسطو؟

- أنا، طبعا، يا سيدتي! مستعد أن أضحي من أجل سعادة إوخينيا، ابنة أخيك، لأن سعادتي تكمن في أن تكون هي سعيدة!

- برابو -صاح عمها- برابو!، برابو! هذا بطل!، هذا أنارشي!... صوفي!

- أنارشي؟ -قال أوغوسطو-.

- أنارشي، نعم. لأن أنارشيتي تكمن في ذلك، بالضبط في ذلك، كل واحد يجب أن يضحي من أجل الآخرين، أن يكون المرء سعيدا بمنح السعادة للآخرين، أن...

- لماذا لا تكون طيبا، يا ضون فيرمين عندما نقدم لك الشربة في أحد الأيام بعد عشر دقائق من منتصف اليوم!

- طيب يا إرميليندا، أنت تعلمين أن أنارشيتي هي نظرية فقط... أجهد نفسي لأصل إلى الكمال، لكن...

- والسعادة هي كذلك نظرية! -صاح أوغوسطو نادما، وكمن يتكلم مع نفسه، ثم أضاف-: قررت أن أضحي بنفسي من أجل سعادة إوخينيا وفكرت في عمل بطولي.

- ما هو؟

- ألم تقولي لي في إحدى المرات، أن المنزل الذي تركه إلى إوخينيا أبيها المأسوف عليه...

- نعم، أخي المسكين.

- ...أنه خاضع لضريبة الرهن تمتص جميع مداخيله

- نعم، سيدي.

- طيب، إذن أنا أعرف ما علي أن أقوم به! -وتوجه إلى الباب-.

- لكن، ضون أوغوسطو...

- أوغوسطو يعتز بنفسه أنه قادر على القيام بقرارات أكثر بطولية، وبأعظم التضحيات. والآن سيعرف هل هو عاشق بالرأس فقط، أو كذلك بالقلب، وهل هو يعتقد أنه عاشق دون أن يكون كذلك. إوخينيا، يا سادة، أيقظتني للحياة، للحياة الحقيقية، وكيفما كانت، فأنا مدين لها بالشكر الأبدي. والآن وداعا!

وخرج محتفلا. وعند مغادرته المنزل صاحت ضونيا إرميليندا:

- يا فتاة!

XII

- سيدي -دخلت ليدوبينا بعد يوم لتقول لأوغوسطو-، هاهي صاحبة تحديد الملابس.

- لتحديد الملابس؟ آ، نعم، فلتدخل!

دخلت الفتاة حاملة سلة ملابس أوغوسطو المحددة. نظر إلى بعضهما، وشعرت المسكينة أن وجهها اشتعل، لم يسبق أن حدث لها من قبل منذ أن دخلت إلى هذه الدار لمرات عديدة. وبدا أن السيد أوغوسطو وكأنه لم يراها، الأمر الذي أقلقها، لأنها كانت معروفة لديه وحتى أنها أحست بحزن.

أن لا ينتبه إليها! أن لا ينظر إليها كما ينظر إليها رجال آخرون! أن لا يلتهمها بعينيه، ومن الأحسن أن يلحسها بهما، عينيها وفهمها ووجهها كله!

- ماذا يحدث، لك يا روساريو، أعتقد أن هذا هو اسمك، أليس كذلك؟

- نعم، هذا هو اسمي.

- وماذا يحدث لك؟

- لماذا يا سيد أوغوسطو؟

- لم يسبق لي أن رأيتك محمرة الوجه. بالإضافة إلى أنك تبدين وكأنك أخرى.

- الذي يبدو لي وكأنه الآخر هو أنت يا سيدي...

- ممكن أن يكون... ممكن أن يكون... لكن تعالي، اقتربي.

- دعنا من المزاح ولننهي عملنا!

- مزاح؟ لكن، أنت تعتقدين أن هذا مزاح؟ -قال لها بصوت جدي-

اقتربي، هكذا، لأنظر إليك جيدا.

– لكن، ألم تشاهدني مرات أخرى؟

– نعم، لكن حتى الآن لم يسبق لي أن انتبهت أنك جميلة جدا...

– هيا، هيا، يا سيدي، لا تمزح... –وجهها كان يشتعل–.

– والآن، بهذه الألوان، كأنك الشمس كلها...

– خلاص...

– تعالي إلى هنا، تعالي. أنت ستقولين أن السيد ضون أوغوسطو مجنون، أليس هكذا؟ لا، ذلك ليس صحيحا، لا! كنت ذلك حتى اللحظة، أو من الأفضل القول أنني كنت بليدا، بليدا في كل شيء، ضائع في ضباب، أعمى... فتحت عيني منذ وقت قصير فقط. ها أنت ترين، دخلت إلى هذا المنزل عدة مرات، نظرت إليك وكأنني لم أراك. وكأنني يا روساريو لم أعش... لم أعش... كنت بليدا، بليدا... لكن، يا روساريو، ما بلك يا صغيرة؟

اضطرت روساريو للجلوس على مقعد، أخفت وجهها بيديها وانفجرت بكاء. نهض أوغوسطو، أقفل الباب، ورجع عند الفتاة، وضع يده على كتفها قائلا لها بصوت خفيض رطب وأكثر حرارة:

– لكن ماذا يحدث لك، يا صغيرة، ما هذا؟

– بهذه الأشياء تجعلني أبكي، يا ضون أوغوسطو...

– أنت ملك الله!

– لا تقل هذه الأشياء، يا ضون أوغوسطو.

– كيف لا أقولها! نعم، عشت أعمى، بليد، وكأنني لم أعش، حتى دخلت حياتي امرأة، أتعلمين؟ امرأة أخرى، وفتحت عيناي وأبصرت الدنيا، وخاصة تعلمت أن أرى النساء، كل النساء، النساء...

– وتلك المرأة... ستكون امرأة شريرة...

– شريرة؟ تقولين شريرة؟ أتعلمين ما معنى شريرة؟ أتعلمين ما تقولين، يا روساريو، أتعلمين ما تقولين؟ لا، لا، لا تلك المرأة لا، إنها مثلك، ملك؛ لكن تلك المرأة لا تحبني... لا تحبني... –وعندما قال هذا انكسر صوته واغرورقت عيناه بالدموع–.

– مسكين ضون أوغوسطو!

– نعم، أنت قلت ذلك يا روساريو، أنت قلت ذلك! مسكين ضون أوغوسطو! لكن أنظري، يا روساريو، انزعي «ضون» وقولي: مسكين أوغوسطو! هيا، قولي: مسكين أوغوسطو!

– لكن، سيدي...

– هيا، قولي: مسكين أوغوسطو!

– إذا كنت تصر... مسكين أوغوسطو!

جلس أوغوسطو.

– تعالي إلى هنا! –قال لها–.

نهضت وكأنها تحركت بفعل رافعة، كأنها متحركة بالتنويم المغناطيسي والإيحاء الذاتي، تتنفس بشوق. أخذها وأجلسها على ركبتيه، وضمها إلى صدره بقوة. ووضع خده على خدها الملتهب، وانفجر قائلا:

– آه، يا روساريو، لا أدري ما يحدث لي، لا أدري ما بي! تلك المرأة التي تقولين عنها أنها شريرة، دون أن تعرفينها، جعلتني أعمى عندما منحتني البصر. كنت لا أحيا والآن أحيا؛ والآن أحيا أشعر بما هي الموت. علي أن أدافع عن نفسي من تلك المرأة، علي أن أدافع عن نفسي من نظرتها. هل تساعدينني أنت، يا روساريو، ستساعدينني لأدافع عن نفسي منها؟ سمع نعم، حاد يهتف في أذنه، همس يبدو أنه آت من عالم آخر لمس أذن أوغوسطو.

– لا أعرف ما يحدث لي، يا روساريو، ولا ما أقول، ولا ما أفكر فيه؛ لا أعرف إن كنت أعشق أم لا تلك المرأة، تلك المرأة التي تسمينها شريرة...

– أنا يا ضون أوغوسطو...

– أوغوسطو، أوغوسطو..

– أنا يا أوغوسطو...

– طيب، اخرسي، كفى –وأغمض عيناه–، لا تقل شيئا، دعني أتكلم وحدي، مع نفسي. هكذا عشت منذ أن توفيت أمي، مع نفسي، مع نفسي لا أكثر؛ أي عندما أكون نائما. ولا أعرف النوم المشترك، نوم إثنان معا. النوم معا! ليس النوم معا وكل واحد ينام نومه، لا! بل النوم معا، النوم معا نفس النوم! وإذا نمنا أنا وأنت، يا روساريو، نفس النوم؟

– وتلك المرأة... –بدأت تلك الفتاة المسكينة، مرتعشة بين ذراعي

أوغوسطو والدموع في صوتها-.
- تلك المرأة، يا روساريو، لا تحبني... لا تحبني... لا تحبني... لكنها علمتني أن هناك نساء أخريات، بفضلها عرفت أن هناك نساء أخريات... وأن واحدة يمكن تحبني... أتحبينني أنت، يا روساريو، قل لي، أتحبينني أنت؟
-وضمها إلى صدره كالمجنون-.
- نعم، أعتقد أنني سأحبك...
- وأنا سأحبك يا روساريو، سأحبك!
- سأحبك...
- هكذا، هكذا، يا روساريو، هكذا!

في تلك اللحظة فتحت الباب، وظهرت ليدوبينا، صائحة: آه!، وأقفلتها. اضطرب أوغوسطو أكثر من روساريو، التي وقفت بسرعة،صففت شعرها، نفضت لباسها وبصوت متقطع قالت:
- حسن، سيدي، هل ننجز الحساب؟
- نعم، أنت على صواب. لكن ستعودين، إيه، ستعودين.
- نعم، سأعود.
- وتعذريني عن كل شيء؟، تعذريني؟
- أعذرك عن ماذا؟
- هذه حماقة... كانت حماقة. ستعذرينني؟
- لم يحدث شيئا يستحق العذر مني، يا سيدي. وما يجب عليك فعله هو أن لا تفكر في تلك المرأة.
- وأنت، ستفكرين في؟
- خلاص، يجب علي أن أنصرف.

قاما بتسوية الحساب وذهبت روساريو إلى حال سبيلها. وبمجرد مغادرتها المنزل دخلت ليدوبينا:
- ألم تسألني سيدي، في اليوم الآخر، كيف يعرف الرجل الذي يعشق أم لا؟
- فعلا.

– وقلت لك في ما يفعل أو ما يقول من تفاهات. حسن، اليوم يمكن لي أن أؤكد لك أنك مغرم.

– لكن.بمن؟، بروساريو؟

– بروساريو...؟ بأخرى!

– ومن أين أخرجت هذا، يا ليدوبينا؟

– خلاص! كنت تقول لها وفعلت معها ما لم تستطع قوله وفعله مع الأخرى.

– لكن، أنت تعتقدين هذا...؟

– لا، لا، أنا أفترض أنك لم تنتقل إلى ما هو أكبر؛ لكن...

– ليدوبينا!، ليدوبينا!

– كما تريد، سيدي.

ذهب المسكين لينام ورأسه يشتعل. وعندما استلقى في الفراش، حيث كان ينام في جهة الرجلين أورفيو، قال لنفسه: «آه، يا أورفيو، أورفيو، أن ينام المرء وحده، وحده، وحده، أن ينام نوماً واحداً! نوم المرء وحده هو ما يمكن أن يتوهم، الظاهر؛ أن حلم اثنين هو الحقيقة، الواقع. أليس العالم الواقعي غير الحلم الذي نحلم به جميعا، الحلم المشترك؟»

ونام.

XIII

بعد أيام قليلة دخلت ليدوبينا إلى غرفة أوغوسطو قائلة له بأن آنسة تسأل عنه.

– آنسة؟

– نعم، هي، أستاذة البيانو.

– إوخينيا؟

– إوخينيا، نعم. قطعا لست وحدك المجنون.

بدأ يرتعش أوغوسطو المسكين. وذلك لأنه شعر بأنه المتهم المحكوم. نهض، استحم بسرعة، ارتدى ملابسه واستعد لكل شيء.

– أعلم مسبقا، سيدي ضون أوغوسطو –قالت له إوخينيا باحتفالية وجلال بمجرد أن قابلته–، أنك اشتريت الدين الذي علي من مديني، الذي يملك رهن منزلي.

– لا أنفي هذا.

– وبأي حق فعلت هذا؟

– بالحق الذي يتمتع به كل مواطن، يا آنسة، لشراء أي شيء يريد ويكون مالكه يرغب في بيعه.

– ليس هذا ما أريد قوله، بل لماذا اشتريته؟

– لأنه يؤلمني أن أراك تابعة لرجل ربما أنه يعاملك باللامبالاة وأشك أنه ليس سوى مهرب لا يعطف على أحد، قلبه من حجر.

–.بمعنى أن قصدك، أن أصبح أنا تابعة لك، لأنني لست موضع لامبالاة بالنسبة إليك...

– خلاص، لن يحصل ذلك أبدا، أبدا، أبدا، أبدا يا إوخينيا، أبدا! لا

أبحث عن أن أجعل منك تابعة إلي. تسيئين إلي بمجرد أن تفترضين ذلك. أنظري -وتركها وحدها وخرج غاضبا-.

- ورجع بعد قليل حاملا أوراقا بيده.

- هاهي، يا إوخينيا الوثائق التي تثبت دينك. خديها وافعلي بها ما تريدين.

- كيف؟

- نعم، أتنازل عنها كلها. لهذا اشتريتها.

- كنت أعرف هذا، ولذلك قلت لك أنك لا تسعى سوى لجعلي تابعة لك. تريد أن تصطادني بالشكر. تريد أن تشتريني!

- إوخينيا! إوخينيا!

- نعم، تريد أن تشتريني، تريد أن تشتريني؛ تريد أن تشتري... ليس حبي، لأنه لا يباع، بل جسدي!

- إوخينيا! إوخينيا!

- هذا، وإن كنت لا تعتقد ذلك، ليس إلا خزي، ليس غير خزي.

- إوخينيا، بالله عليك، إوخينيا!

- لا تقترب مني أكثر، لست مسؤولة عن نفسي!

- إذن، طيب، نعم، سأقترب منك. اضربيني، إوخينيا، اضربيني، اشتميني، افعلي بي ما تشائين!

- لا تستحق أي شيء -ونهضت إوخينيا-؛ سأذهب، لكن سجل، إنني لا أقبل الصدقة أو العرض! سأشتغل أكثر من أي وقت مضى؛ وسأعمل على أن يشتغل خطيبي، وقريبا زوجي، وسنعيش. أما ذلك، خُذي الدار.

- لكن، أنا لا أعترض، يا إوخينيا، على زواجك بذاك الخطيب الذي تقولين!

- كيف؟ كيف؟ اشرح؟

- أنا لم أفعل هذا بقصد تبعيتك لي بالشكر وأن تقبليني كزوج!... أنا أتخلى عن سعادتي، ومن الأفضل القول، إذا كانت سعادتي تكمن في أن تكوني أنت سعيدة لا أقل ولا أكثر، وأن تكوني أنت سعيدة مع زوجك الذي ستختارينه!...

- آه، الآن أفهم؛ أنت تحتفظ بدور البطل الضحية!، الشهيد -خذي

الدار، أهديك إياها-.

- لكن، يا إوخينيا، يا إوخينيا...

- كفى!

و لم تعد تنظر إليه أكثر، اختفت تلك العينان الناريتان.

ظل أوغوسطو لحظة خارج ذاته، لم يشعر أنه موجود، وعندما نفض ضباب حيرته وأخذ قبعته وانطلق في الشارع، تائها في المغامرة. ولما مر أمام كنيسة سان مارطين، دخل إليها، دون أن ينتبه إلى ما يفعله. لم ير غير النور الخافت للمصباح الذي يوجد قبالة المذبح الكبير الذي كان يشتعل. بدا له أنه يتنفس العتمة، رائحة الشيخوخة، تقليد معطر بالبخار، بيت لعدة قرون، يمشي باللمس وجلس على كرسي خشبي. ترك نفسه يسقط فيه. شعر بالتعب، بتعب قاتل وكأن كل تلك العتمة، كل تلك الشيخوخة التي كان يتنفسها أثقلت قلبه. وأحس بهمس يبدو أنه آت من بعيد، طفى منه سعال مقطع من حين لحين. تذكر أمه.

أغمض عينيه وعاد ليحلم تلك الدار الحلوة الدافئة، التي يدخلها النور من خلال الستائر ذات الزهور البيضاء المطرزة. بدت له أمه، ذاهبة وآتية دون أن تحدث ضوضاء، مرتدية الأسود، بتلك الابتسامة التي كانت عبارة عن رواسب الدموع.

راجع حياته كلها كابن، عندما كان جزءاً من أمه وكان يعيش تحت رحمتها، وموتها البطيء، الخطير، الحلو، بدون ألم، رحلت كطائر عشية القطامي المهاجر الذي يطير دون إحداث أي ضجيج. ثم تذكر و أعاد حلمه يوم وجد أورفيو، وبعد قليل وجد نفسه غارقا في حالة روحية حيث مرت أمامه مشاهد سينمائية غريبة.

كان بجانبه رجل يصليْ في همس. نهض الرجل وهم بالخروج وتبعه أوغوسطو. عند خروجه من الكنيسة غمس الرجل أصابع اليد اليمنى في الماء المقدس وعرضه على أوغوسطو، ملمحا بعلامة الصليب.

– ضون آبيطو! –صاح أوغوسطو–.
– نفسه، ضون أوغوسطو نفسه!
– لكن أنت هنا؟
– نعم، أنا هنا؛ الحياة تعلم كثيرا، وأكثر الموت؛ يعلمان كثيرا أكثر من العلم.
– لكن، والمرشح بأن يكون عبقريا؟

السيد ضون آبيطو كاراسكال حكى له قصة ابنه. وختم قائلا:
– «ها أنت ترى، يا أوغوسطيطو، كيف جئت إلى هنا...»

أوغوسطو صامتا ينظر إلى الأرض. وهما في طريقهما إلى ألاميدا.
– نعم يا أوغوسطو، نعم –استمر في حديثه ضون آبيطو–؛ الحياة هي المعلمة الوحيدة في الحياة؛ ليست هناك بيداغوجية صالحة. نتعلم الحياة عندما نحياها، وعلى كل إنسان أن يبدأ تعلم الحياة من جديد...
– وعمل الأجيال، يا ضون آبيطو، تراث القرون؟
– ليس هناك غير تراثين: تراث الأمل وتراث خيبة الأمل، والاثنان يوجدان فقط حيث كنا منذ قليل: في المعبد. أكيد أن ما حملك إلى هناك إما الأمل أو خيبة أمل كبيرة.
– كلاهما.
– نعم، كلاهما، نعم. لأن الحلم، الأمل، الذكرى، تولد في الوقت ذاته خيبة الأمل. العلم هو الحقيقة، هو الحاضر، يا عزيزي أوغوسطو، وأنا لا أستطيع أن أعيش في الحاضر. منذ أن مات أبولودورو المسكين، ضحيتي –وبدأ يبكي بصوته– أي مات، قتل نفسه، انتحر، لم يعد لي حاضر ممكن، ليس هناك علم ولا وقع يصلحان لي؛ لا أحيا إلا على ذكراه وانتظاره. وانتهيت في ذلك المكان الذي يحوي كل الآمال والحلم، و كل خيبات الآمال: الكنيسة! بطريقة ما، هل أصبحت الآن مؤمنا؟
– لا أدري... !
– لكن، ألا تؤمن؟
– لا أدري هل أومن أم لا؛ أعرف أنني أصلي. ولا أعرف جيدا لماذا

أصلي. عندما يجتمع بعضنا في المساء لنصلي هناك صلاة السبحة. لا أعلم من هم، وهم لا يعرفونني، لكن، نشعر أننا متضامنين البعض مع الآخر كطائفة حميمية، الآن أشعر أن الإنسانية تحتاج إلى عباقرة.

- وزوجتك، يا ضون آبيطو؟

- آه، زوجتي! -صاح كاراسكال، وأطلت دمعة من عين واحدة، بدا أنها أشعة نور من داخله-. زوجتي! اكتشفتها! حتى شقائي المهول لم أكن أعرف أنه كان يوجد فيها. اقتحمت لغز الحياة بعد الليالي الرهيبة فقط، التي تلت انتحار ابني أبولودورو، كنت أضع رأسي في حجرها، حجر الأم، وكنت أبكي، أبكي، أبكي. وكانت هي تلمس رأسي بيديها، وتقول لي: «مسكين ابني! مسكين ابني!». لم يسبق لها أبدا أن كانت أماً مثل الآن. لم أعتقد أبدا أنني سأجعلها أماً، كيف؟، لتمنحني مادة خامة لعبقري... لم أعتقد أبدا أنني سأجعلها أماً كما هي وسأحتاجها في أحد الأيام. لأنني لم أعرف أمي، يا أوغوسطو، لم تكن لي أم، لم أعرف أمي، لم أعرف كيف يمكن أن تكون لي أم حتى أن فقدت زوجتي ابنها وابني شعرت أني ابنها. أنت عرفت أمك، يا أوغوسطو، السيدة العظيمة ضونيا سوليداد؛ وإلا فإني أنصحك بالزواج.

- عرفتها، يا ضون آبيطو، لكن فقدتها، وهناك، في الكنيسة، تذكرتها...

- إذن، إذا رغبت في أن تكون لك أم من جديد، تزوج، يا أوغوسطو، تزوج!

- لا، مثلها لن تكون لي مرة أخرى.

- إنها الحقيقة، لكن تزوج!

- وكيف؟ -أضاف أوغوسطو بابتسامة مجهدة ومتذكرا ما سمعه من إحدى مذاهب ضون آبيطو- كيف؟، اختزالية أم غير قابلة للاختزال؟

- دعك الآن من تلك الأشياء؛ بربك، يا أوغوسطو، لا تذكرني بالمأساة! لكن... وأخيرا، إذا كان علي أن أسايرك في الفكاهة، تزوج غريزيا!

- وإذا كانت المرأة التي أحبها لا تحبني؟

- تزوج بالمرأة التي تحبك، حتى ولو كنت أنت لا تحبها. من الأفضل أن يتزوج المرء لكي يكسب حب الآخر. ابحث عن امرأة تحبك.

- مرت بذهن أوغوسطو بسرعة فائقة صورة ابنة محددة الملابس. لأنه توهم أن تلك الفتاة المسكينة عشقته.

عندما ودع أوغوسطو ضون آبيطو توجه إلى الكازينو. أراد أن يبدد الضباب من رأسه ومن قلبه بلعب حصة من الشطرنج مع بيكطور.

XIV

لاحظ أوغوسطو أن شيئا غير عادي يحدث لصديقه بيكطور؛ لم يصب في أي لعبة، وكان نكدا وصامتا.

– بيكطور، شيء ما يحدث لك...

– نعم يا رجل، نعم؛ يحدث لي شيء خطير. وبما أنني أحتاج إلى أن أنفس على نفسي، هيا بنا نخرج؛ ليلة جميلة؛ سأحكي لك.

بيكطور، بالرغم من أنه الصديق الحميم لأوغوسطو، يكبره بخمس أو ست سنوات ومتزوج منذ اثنى عشر سنة، تزوج في سن مبكر من شبابه، من أجل واجب ضمير، حسب ما كانوا يقولون. لم يكن له أطفال.

عندما كانوا في الشارع، بدأ بيكطور حديثه.

– تعلم، يا أوغوسطو، أنه كان علي أن أتزوج في ريعان شبابي...

– كان عليك أن تتزوج؟

– نعم، خلاص، لا تجعل نفسك كمن يتلقى الخبر حديثا، الإشاعة تصل إلى الجميع. آباؤنا زوجانا، أنا وإيلينا، عندما كنا صغارا. وكان الزواج بالنسبة لنا عبارة عن لعب. كنا نلعب لعبة الزوج والزوجة. لكن، ذلك كان إنذاراً زائفاً...

– ما الذي كان إنذاراً زائفاً؟

– ذلك الزواج الذي كان سببه الآخرون.

– فعلوا خيرا.

– لن أقول أنا أكثر. المسألة هي أنه لم تكن لتلك الزلة تداعيات، و لم تكن كذلك للزلات الأخرى التي تلت زواجنا.

– أي زلات؟
– في حالتنا لم تكن هناك غير الزلات. قلت لك إننا كنا نلعب الزوج والزوجة.
– يا رجل!
– لا، لا تكن خبيثاً. كنا وما نزال شبابا لننحرف. وما لم نكن نفكر فيه هو بناء البيت العائلي. كنا فتيان نعيش معا ما يسمى الحياة الزوجية. ومر عام ولم نحصل على ثمرة، وبدأنا نلوي وجوهنا، ننظر إلى بعضنا بطرف العين، نتبادل التهم في صمت. لم أكن أقبل أن لا أكون أباً. أصبحت رجلا، كان عمري أكثر من إحدى وعشرين سنة، وبصراحة، أن أكون أنا أقل من الآخرين، أقل من أي همجي تزوج وبعد تسع سنوات من الزواج بالتمام أو قبل، أنجب ولده البكر... لم أكن أصبر على هذا.
– لكن، يا رجل، أي ذنب هذا...؟
– واضح. أنا حتى ولو لم أقل لها شيء، كنت ألقي باللوم عليها وكنت أقول لنفسي: «هذه المرأة عاقر تجعلك سخيفا.» وهي من جهتها، ما في ذلك شك، كانت تلقي علي باللوم، وكنت أفترض، لا أدري...
– ماذا؟
– لا شيء، عندما يمر عام ويليه آخر وآخر، بدون أطفال، تعتقد المرأة أن السبب يرجع للزوج، وهو كذلك، لأن الزوج لم يكن في صحة جيدة، لأنه حمل معه مرضاً ما... الحالة أننا كنا نشعر بأننا أعداء؛ وأن الشيطان دخل إلى بيتنا. وفي الأخير انفجر ذاك الشيطان وبرزت بيننا الخلافات المتبادلة، «أنت لا تصلح» و«التي لا تصلح هي أنت» وأشياء أخرى.
– لذلك كنت في فترة، خصوصا بعد مرور عامين أو ثلاثة عن زواجكما، كنت تعيش مشاكل صحية، مهموم، عصبي المزاج؟، وكنت دخلت مصحة قصد العلاج؟
– لا، لا، ليس ذلك... بل ما هو أسوء.

خيم عليهما صمت. كان بيكطور ينظر إلى الأرض.
– حسن، حسن، احفظه؛ لا أريد تمزيق أسرارك.
– فليكن، سأحكي لك! كان قد زاد من غضبي تلك النزاعات العائلية

الداخلية القائمة مع زوجتي المسكينة، كنت أخال أن المسألة ليست متعلقة بكثافة أي شيء، بل بالعدد، أتفهمني؟

– نعم،... نعم، أعتقد أنني أفهمك...

– وبدأت آكل بطريقة همجية، واعتقدت أنه مفيد ومغذي وناضج مع بعض أنواع التوابل، وخاصة التي تعتبر مقوية للجنس، وأن أمارسه باستمرار مع زوجتي وحسب الإمكان. وطبعا...

– ومرضت.

– طبعا! ولولا أنني أدركت الأمر في الوقت، وحكمنا العقل لكنت في العالم الآخر. وشفيت من ذلك في اتجاهين، رجعت إلى زوجتي وهدأت الأمور بيننا، وواجهنا كل شيء بالصبر. وشيئا فشيئا ساد في منزلنا السلام وكذلك السعادة. في بداية هذه الحياة الجديدة، بعد أربع أو خمس سنوات من الحياة الزوجية كنا نتأسف في بعض الأحيان عن العزلة التي كنا نعيش فيها، ولكن بسرعة اعتدنا هذه الحياة. وانتهينا إلى عدم اشتياقنا للأطفال، بل كنا نشفق على من لهم أطفال. ألفنا بعضنا البعض، وكل منا جعل الآخر من عاداته. أنت لا تفهم هذا...

– لا، لا أفهم.

– حسن؛ أنا أصبحتُ عادة من عادات زوجتي وكذلك هي، إلينا أصبحت من عاداتي. كل شيء منظم في بيتنا، كل شيء، كذلك الأكل. في منتصف اليوم تماما، الشوربة على المائدة، وبطريقة ما، نكاد نأكل تقريبا نفس الأشياء في كل الأيام، بنفس النظام وبنفس الكمية. أبغض التغيير وكذلك تبغضه إيلينا. في منزلنا نعيش على إيقاع الساعة.

– هذا يذكرني بما يقوله صديقنا لويس، عن الزوجين روميرا، حيث يقول زوج وزوجته عازبين.

– بالفعل، ليس هناك عازب متمرد كالمتزوج بدون أولاد. لتعويض عدم إنجاب الأولاد، لم تمت غريزتي الأبوية، ولم تمت كذلك عند زوجتي غريزة الأمومة، تبنينا كلبا، ولكن، عندما رأيناه يموت أمام عيوننا، بسبب عظم سد بلعومه، أحسسنا بألم ورعب، وشاهدنا كيف كانت عيناه مبللة، وكأنه يرجو أن ننقذه، فقررنا أن لا نربي أي كائن حي. واكتفينا ببعض الدمى الكبيرة المصنوعة من الثوب، لقد سبق لك أن رأيتها في منزلنا، وزوجتي إلينا

تغير لها ملابسها.

- تلك الدمى لن تموت.

- فعلا. كل شيء على ما يرام وفرحتنا كبيرة. لا يزعجني بكاء طفل، ولا يشغل بالي إن كان ولدا أو بنتا، وماذا سأجعل منه أو منها... بالإضافة إلى أن زوجتي تكون دائما تحت تصرفي وعلى استعداد مريح، دون ازعاجات الحمل والرضاعة؛ نعيش حياة ساحرة!

- أتعلم أن الفرق في هذا قليل أو ينعدم...؟

- في ماذا؟ تقصد العلاقات الغير الشرعية؟ هذا ما أعتقد. الحياة الزوجية بدون أولاد يمكن أن تتحول الزوجة إلى محظية شرعية، في علاقة منظمة ونظيفة، ونسبيا عفيفة، لكن، وختاما، ما قلنا! الرجل وزوجته كعازبين كبار، لكنهما متقاربين فعلا. هكذا مر أكثر من عقد... مرت... الآن تعرف ما يحدث لي؟

- يا رجل، كيف سأعلم بذلك؟

- لكن ألا تعرف ما يحدث لي؟

- ربما أن زوجتك حامل...

- ذاك، يا رجل، ذاك. تصور يا لها من تعاسة!

- تعاسة؟ ألم ترغبا في ذلك كثيرا؟

- نعم، في البداية، في السنتين أو السنوات الثلاث الأولى، أو تزيد قليلا. لكن الآن، الآن... رجع الشيطان إلى بيتنا، ورجعت الخلافات. والآن كما في السابق كل واحد منا يلقي باللائمة على الآخر، على ما هو آت. وبدأنا نسميه... لا، لا لن أقول لك...

- إذن لا تقل لي هذا.

- بدأنا نسميه «الدخيل»! وأنا حلمت أنه مات في إحدى الصباحات بسبب عظم اخترق بلعومه...

- يا لها من فظاعة!

- نعم، أنت على صواب، إنها فظاعة. وداعا للنظام، وداعا للراحة، وداعا للعادات! بالأمس كانت إلينا تتقيء؛ يبدو أنها الازعاجات الناتجة عن الحالة التي تدعى... مهم! مهم! مهم! يا له من شيء مهم! القيء! هل سبق لك أن رأيت شيئا غير محتشم، وأكثر قذارة؟

– لكن، أليست زوجتك الآن تشعر بمتعة لأنها ستصبح أما.

– هي؟ إنها مثلي! هذا ما لا نرغب فيه، ولكن، هذا ما أرادته العناية الربانية، الطبيعة، أو ما شئت، إنه هزل. لو كان قد جاء... الطفل أو الطفلة... لا يهم، لو كان قد جاء عندما كانت طيور الحب البريئة مليئة، أكثر بالتفاهة منها بالحب الأبوي، كنا سننتظر؛ لو كان قد جاء في زمن كنا نعتقد فيه، أن من ليس له أبناء يعتبر ناقصا عن الآخرين، لو كان قد جاء إذاك، سيكون قديسا، قديسا طيبا!، لكن، الآن، الآن؟ أقول لك إن هذا هزء. لو لا...

– ماذا يا رجل، ماذا؟

– كنت سأهديه لك، لكي يؤنس أورفيو.

– هدء نفسك يا رجل، ودعك من الحماقات...

– أنت على صواب، وأنا أقول الحماقات. أعذرني. لكن هل يبدو لك حسن، أنه بعد اثنى عشر سنة، حيث كنا نعيش حياة سعيدة، وبعد أن شفينا من التفاهة السخيفة لحديثي العهد بالزواج، يأتيني هذا؟ واضح، كنا نعيش في سلام، آمنين مؤمنين...!

– يا رجل، يا رجل!

– أنت على صواب، نعم، أنت على صواب. وأفظع شيء هو أنك لا تتصور؟ أن إيلينا المسكينة لا تستطيع الدفاع عن نفسها من الشعور بالسخافة التي هجمت عليها. تشعر بالسخافة!

– فأنا لا أرى...

– كذلك أنا لا أرى ذلك، لكن الأمر هكذا؛ تشعر بالسخافة. وتقوم بأشياء تجعلني أخشى أن... الدخيل... أو الدخيلة.

– يا رجل! –صاح أوغوسطو مهولا–.

– لا، لا، يا أوغوسطو، لا، لا! لم نفقد الحس الأخلاقي، وإلينا، كما تعلم متدينة إلى أقصى حد، تخضع، وإن كانت على مضض، إلى العناية الربانية وتصبر على أن تكون أما. وستكون أفضل أم، لا شك في ذلك. لكن الشعور بالسخافة بالنسبة إليها، لتستر حالتها، لتخفي حملها، أعتقد أنها قادرة على فعل أشياء... وأخيرا، لا أريد أن أفكر في ذلك. الآن لم تخرج من الدار منذ أسبوع؛ تقول إنها تستحي، تتصور أن الجميع في الشارع ينظر إليها. وتتكلم عن أن نغادر البلدة، وأنها إذا كان عليها أن تخرج لاستنشاق

الهواء والشمس عندما يكون حملها في شهور متقدمة، ولن تفعل ذلك حيث هناك أناس يعرفونها، وربما يهنؤونها على حملها.

صمتا الصديقان برهة، وبعد أن ساد صمت قصير طبع حكايته، قال بيكطور:

– إذن، تزوج يا أوغوسطو، هيا تزوج بصاحبة البيانو!

– ومن يدري...! –قال أوغوسطو كمن يخاطب نفسه– من يدري...! ربما إذا تزوجت ستكون لي أم من جديد...

– أم، نعم –أضاف بيكطور–، أم أبنائك! إذا كان لك أبناء...

– وأمي! ربما الآن، يا بيكطور، ستصبح زوجتك أمك، أم لك.

– ما سيبدأ بالنسبة لي الآن هو ضياع ليالي...

– أو تفوز بها يا بيكطور، أو تفوز بها.

– لا أدري ما يحدث لي، وما يحدث لنا. أما بالنسبة إلي أنا قادر على الصبر؛ لكن إلينا، إلينتي المسكينة... المسكينة!

– أرأيت؟ بدأت تشفق عليها.

– وأخيرا، يا أوغوسطو، فكر جيدا قبل أن تتزوج!

وافترقا.

دخل أوغوسطو إلى منزله ورأسه مليء بما سمعه من ضون آبيطو ومن بيكطور. يكاد يتذكر إوخينيا ودين الرهن الذي سدده، وكذلك لم يعد يتذكر الفتاة محددة الملابس.

بمجرد دخوله إلى المنزل خرج أورفيو قافزا لاستقباله، أخذه من خنقه، وضغط على صدره قائلا له: «حذاري من العظام، يا أورفيو، حذاري منها جدا، لا أريد أن تسد بلعومك، لا أريد أن أراك تموت بعيني. اسمع، يا أورفيو، ضون آبيطو، أن المربي، اعتنق ديانة أجداده... إنه الإرث! وبيكطور لا يصبر على أن يكون أبا.

الواحد لا يجد المواساة على فقد ابنه، والآخر لا يواسيه أن يكون له ولد.
ويا لها من عينين، يا أورفيو! يشع منهما بريق عندما قالت لي: «تريد أن تشتريني! لا تريد شراء حبي لأنه لا يباع، بل تريد شراء جسدي! خذ داري!» أن أشتري أنا جسدها... جسدها...! أنا أحتاج إلى الروح، الروح، الروح. وإلى روح من نار، مثل التي تشعها عينيها، عيني إوخينيا. جسدها... جسدها... نعم جسدها مهيب، رائع، لكن جسدها هو روحها، روح طاهرة، كله حياة، كله دلالات، كله مثل! أما جسدي أنا فائض، يا أورفيو، فائض جسدي لأن ما ينقصني هو الروح. أو في الواقع تنقصني الروح لأن جسدي فائض؟ ألمس جسدي، يا أورفيو، أتحسسه، أراه، لكن والروح؟، أين روحي؟، هل لدي روح؟ شعرت بأزيزها منذ قليل فقط، عندما أمسكت روساريو بين ذراعي، روساريو المسكينة، وهي جالسة على ركبتي؛ عندما بكت، وبكيت أنا. تلك الدموع لا يمكن أن تخرج من جسدي؛ خرجت من روحي. الروح هي منبع ماء ينكشف فقط عبر الدموع. عندما يبكي المرء بكاء صادقا، إذاك يعرف إن كانت له روح أم لا. والآن هيا بنا ننام، يا أورفيو، إذا سمحوا لنا بذلك.»

XV

– ماذا فعلت يا صغيرة؟ سألت ضونيا إرميليندا ابنة أخيها.

– ماذا فعلتُ؟ فعلتُ ما كنت ستفعلين أنت لو كنت مكاني، أنا متأكدة. يريد أن يشتريني!، يريد أن يشتريني أنا!

– انظري، يا فتاة، من الأفضل أن يشتريك من أن يبيعك، لا شك في هذا.

– يريد أن يشتريني!، يريد أن يشتريني!

– لكن، ليس كذلك، إوخينيا، ليس هكذا. فعل ذلك مدفوعا بكرمه، وبطولته.

– لا أريد أبطالا .بمعنى الذين يسعون لذلك. البطولة التي تأتي من أجل ذاتها، طبعا، حسنة!؛ لكن التي تأتي عن حسابات؟يريد أن يشتريني!، يريد أن يشتريني، أنا!، أقول لك، عمتي، سيؤدي عن هذا. سيؤدي الثمن عن هذا ذاك الرجل...

– ذاك... ماذا؟ خلاص أكملي!

– ذاك البليد اللطيف. وبالنسبة إلي فهو غير موجود!

– يا لها من تفاهات تقولين...

– ألا تعتقدين أنت يا عمتي أن هذا الشخص...؟

– من... فيرمين؟

– لا، ذاك...ذاك، صاحب طائر الكناري، أليس بداخله شيء ما؟

– على الأقل لديه أحشاء...

– لكن، أنت تعتقدين أن لديه أحشاء؟ خلاص! إنه أجوف، وكأنك تراه أجوف!

– لكن، تعالي إلي يا فتاة، ولنتكلم ببرودة، ولا تقولين تفاهات. إنسي

ذلك. أنا أعتقد أنه يجب عليك أن تقبلينه...

– لكن أنا لا أحبه، عمتي...

– ماذا تعرفين أنت عن الحب؟ تفتقرين إلى التجربة. أنت تعرفين نوتات الموسيقى مثل فوسا والهدج، أما الحب...

– يبدو لي عمتي أنك تتكلمين لأجل الكلام فقط...

– ماذا تعرفين أنت يا فتاة عن الحب؟

– لكن أنا أحب الآخر...

– آخر؟ ذاك الكسول، ماوريسيو، الذي تتجول روحه في جسده؟ وهذا تسميه أنت الحب؟، وهذا تسميه الآخر؟ أوغوسطو هو خلاصك. رقيق، غني، طيب...!

– لهذا السبب لا أحبه، لأنه كما تقولين طيب جدا... لا يعجبني الرجال الطيبون.

– كذلك أنا يا بنيتي، ولكن...

– لماذا؟

– لا بد من الزواج بهم. ولدوا لذلك وهم طيبون ليكونوا أزواجا. لكن، إذا كنت لا أحبه، فكيف سأتزوج به؟

– كيف؟ بزواجك به! ألم أتزوج أنا بعمك...؟

– لكن، يا عمتي...

– نعم، الآن أعتقد ذلك، يبدو لي كذلك؛ لكن عندما تزوجتُ به لم أكن أعرف إن كنت أحبه أم لا. اسمعي، مسألة الحب توجد في الكتب فقط، شيء اخترعوه ليتكلموا عنه ويكتبوا عنه فقط. تفاهات الشعراء. إن ما هو إجابي هو الزواج. مدونة القانون المدني لا تتحدث عن الحب بل عن الزواج. كل ما يتعلق بالحب ليس غير موسيقى...

– موسيقى؟

– موسيقى، نعم. وأنت تعلمين أن الموسيقى لا تصلح سوى ليكسب المرء قوت عيشه من تعليمها، وإذا لم تستغل مثل هذه الفرصة ستتأخرين للخروج من المطهر...

– وماذا؟ هل أطلب منكما شيئا؟ ألا أكسب قوت يومي بجهدي؟ هل أرهقكما؟

- لا تنفعلي هكذا، لا تنفجري، ولا تقولي هذه الأشياء، لأننا سنتخاصم.

- نعم، من أجل مصلحتي... من أجل مصلحتي... من أجل مصلحتي فعل خيرا السيد ضون أوغوسطو بيريث، فعل الرجال الشجعان، نعم، فعل الرجال! يريد شرائي...! شرائي أنا... أنا! فعل الرجال، قلت فعل الرجال... الرجال يا عمتي، أرى ما يفعلون، غير مهذبين، يفتقرون إلى الرقة. لا يعملون خيرا إلا للإساءة...

- كلهم؟

- كلهم، نعم كلهم! خاصة أولائك الذين يحسبون أنفسهم رجالاً حقيقين.

- آه.

- نعم، لأن الآخرين، الذين ليسوا قليلو الأدب، وليسوا أنانيين، ليسوا رجالا.

- إذن، ما هم؟

- لا أدري... متخنثون!

- يا لها من نظريات، يا صغيرة!

- في هذه الدار تنتقل العدوى.

- لكنك لم تسمعي قط من عمك هذا الكلام.

- لا، خواطر استنتجتها من ملاحظاتي للرجال.

- كذلك عمك؟

- عمي ليس رجلا... من طينة أولئك.

- إذن من المخنثين، أليس كذلك، مخنث. هيا، تكلمي!

- لا، لا، ليس كذلك. عمي... لم يعودني على أن يكون مثلهم... من لحم وعظم.

- إذن، ماذا تظنين أن يكون عمك؟

- ليس غير... لا أعرف كيف أعبر... إنه ليس غير عمي. وكأنه لا يوجد في الواقع.

- هذا ما تعتقدين، يا فتاة. أنا أقول لك إن عمك موجود، نعم موجود!

- متوحشون، كلهم متوحشون، متوحشون كلهم. ألا تعلمين ما قال

ذاك المتوحش، مارطين روبيو، قال للمسكين ضون إميتريو في الأيام الأولى من ترمله؟

- أعتقد أنني لم أسمعه.

- أنظري، كان ذلك عندما انتشر ذاك الوباء. الجميع كان قد أصابهم الهلع، و لم تسمحي لي بالخروج من الدار لعدة أيام، وكنت أشرب الماء المغلي. وكان الناس يهربون من بعضهم البعض، وإذا شاهدوا أحدا بلباس حداد حديث، يبتعدون منه وكأنه موبوء. طيب؛ بعد خمسة أو ستة أيام من ترمله خرج من منزله ضون إميتريو، طبعا بلباس الحداد، والتقى بمارطين، ذاك المتوحش. ولما رآه هذا الأخير بلباس الحداد، وقف على مسافة منه، خوفا من العدوى، وقال له: «لكن يا رجل، ما هذا؟ هل أصابتك مصيبة؟» «نعم -أجابه المسكين ضون إميتريو- فقدت زوجتي المسكينة...» آسف! وكيف حدث ذلك؟» «بسبب الولادة»، قال له ضون إميتريو. «شر أقل!، أجابه المتوحش ضون مارطين، وعندئذ دنا منه ومد له يده للسلام عليه. أرأيت شهامة أكبر من هذه...! هذا موقف رجولي! أقول لك إنهم وحوش، ليسوا إلا وحوشا.

- من الأفضل أن يكونوا وحوشا بذل أن يكونوا كسلى، مثل ماوريسيو، الذي، لا أدري لماذا وكيف أخذ عقلك... لأنه حسب أخباري، وهي ذات مصداقية، أؤكد لك، أن الملعون البليد لا يعشقك...

- لكن أنا أعشقه وكفى!

- وهل يبدو لك... أقصد خطيبك... إنه رجل حقيقي؟ لو كان رجلا، لبحث عن مخرج لوضعيته وبحث عن عمل.

- أنا سأصنع منه رجلا. الحقيقة، كما تقولين، ذاك هو عيبه، يا عمتي، وربما أحبه لهذا السبب. والآن بعد فعل الرجال الذي أظهره أوغوسطو... بشرائي، شرائي أنا!... بعد كل هذا قررت أن أغامر بكل شيء من أجل كل شيء، وسأتزوج بماوريسيو.

- وبماذا ستعيشان، يا شقية؟

- بما سأكسبه أنا من عملي! سأشتغل أكثر من الآن. سأقبل أن أعطي دروسا كنت قد رفضتها من قبل. هكذا، وسأتنازل عن منزلي، أهديته لضون أوغوسطو. كان نزوة، نزوة لا غير. إنه المنزل الذي ولدت فيه. والآن، بعد أن

تحررت من ذلك الحلم المزعج الذي سببته لي تلك الدار ودين رهنها، سأشتغل بجهد. وماوريسيو، عندما يراني أشتغل من أجل الاثنين، سيجد نفسه مجبرا على البحث عن العمل، ويشتغل. أي إذا استحيا...

– وإن لم يستح؟

– إذاك سأنفق عليه أنا!

– نعم، زوج أستاذة البيانو!

– وإن كانت الأمور هكذا. سيكون لي، لي، وكلما كان تابعا لي، سأملكه أكثر.

– نعم، سيكون لك... مثل كلب. وهذا يسمى شراء رجل.

– ألم يرد رجل شرائي برأسماله؟ إذن، أين هي الغرابة في أن أشتري أنا رجل بعملي؟

– كل ما تقولين، يا فتاة، يشبه كثيرا ما يسميه عمك بالمساواة بين الرجل والمرأة.

– لا أعلم ذلك، ولا تهمني معرفته. لكن، أقول لك، عمتي، لم يولد بعد الرجل الذي يقدر على شرائي. أنا؟، أنا؟، يشترينى أنا؟

في هذه اللحظة دخلت الخادمة لتخبرهما أن ضون أوغوسطو ينتظر الآنسة.

– هو؟ اذهبي! وقولي له لا أريد رؤيته. قولي له، لقد قلت له كلمتي الأخيرة.

– فكري قليلا، يا فتاة، اهدئي؛ أنت لم تفسري جيدا نوايا ضون أوغوسطو.

عندما وجد ضون أوغوسطو نفسه أمام ضونيا إرميليندا قدم لها اعتذاراته. حسب قوله، إنه كان متأثرا جدا؛ إوخينيا لم تكن صائبة في تفسير نواياه. أما هو، من جهته، كان قد سدد ديون الرهن رسميا، وأصبحت الدار قانونيا متحررة من ثقل الرهن وفي ملكية صاحبتها. وإذا كانت هي تصر على عدم تسلم الدخل، فهو كذلك لا يمكن أن يتسلمه، أي أن مداخل الدار لن يستغلها أحد، وفي النهاية ستودع في اسم مالكتها. بالإضافة إلى أنه قد تخلى عن

طلب الزواج بها، ويريد أن يراها سعيدة فقط؛ وأنه كان مستعدا أن يبحث عن عمل لماوريسيو لكي لا يعتمد على مداخل زوجته.

– عندك قلب من ذهب! –صاحت ضونيا إرميليندا–.

– الآن، سيدتي، ما نحتاج إليه هو أن تقنعي ابنة أخيك بحقيقة نيتي، وأن مسألة تسديد رهن الدار كانت وقاحة وأعتذر عن ذلك. ويبدو لي أنه لا يمكن التراجع عنها. وإذا قبلت سأكون عراب زفافها. ثم سأقوم بسفر بعيد ولمدة طويلة.

نادت ضونيا إرميليندا على الخادمة، وقالت لها أن تنادي على إوخينيا لأن ضون أوغوسطو يريد الحديث معها. «الآنسة خرجت منذ قليل»، أجابت الخادمة.

XVI

– إنك مستحيل، يا ماوريسيو -قالت إوخينيا لخطيبها، في البيت الصغير الوسخ للبوابة-، مستحيل تماما، وإذا استمرت هكذا، إذا لم تنفض عنك ذاك الخمول، إذا لم تبحث لك عن شغل وأن نتجوز، فأنا قادرة على أن أرتكب أي حماقة.

– أي حماقة؟ هيا قولي، يا حلوة -لامسا عنقها ومدخلا أصبعه في حلقة من شعرها-.

– انظري، إذا أردت، نتزوج وأبقى أنا أعمل... من أجل الاثنين.

– لكن، ماذا سيقولون عني، يا امرأة، إذا قبلت هذا ؟

– أنا لا يهمني ما سيقوله الناس عنك؟

– هذا خطير!

– نعم، أنا لا يهمني ذلك؛ ما يهمني هو أن ينتهي هذا الأمر في أقرب وقت...

– هل الأمور سيئة بالنسبة لنا؟

– نعم، الأمور سيئة بالنسبة لنا، سيئة جدا. وإذا لم تقرر فأنا قادرة على...

– على ماذا؟

– أن أقبل تضحية أوغوسطو.

– تتزوجين به؟

– لا، أبدا! أن أستعيد داري.

– افعلي ذلك يا حلوة، إذا كان ذلك هو الحل، وليس آخر...

– لك الجرأة...

– لا، ليست لي الجرأة! السيد ضون أوغوسطو يبدو لي أنه غير سوي، وإذا كانت له تلك النزوة، فلا يجب علينا أن نضايقه...

– أي أنك...
– طبعا يا حلوة، طبعا!
– وأخيرا يا رجل.
– ليس بالقدر الذي تريدين. لكن، تعالي إلى هنا...
– هيا، دعني يا ماوريسيو؛ قلت لك مآت المرات أن لا تكون...
– أن لا أكون محبا...
– لا، لا تكن... متوحش! هدئ نفسك. وإذا أردت أن تكون الثقة بيننا انفض عنك كسلك، ابحث عن عمل، أما الباقي تعرفه. عليك أن تعود إلى عقلك، إلى صوابك، سبق أن صفعتك.
– أعرف ذلك جيدا! هيا يا حلوة، امنحني أخرى! ها هو خدي...
– لا تقول ذلك.
– هيا!
– لا أريد أن أرضيك.
– والآخر؟
– قلت لك أن لا تكون متوحشا. وأكرر إذا لم تسرع في البحث عن العمل، فأنا قادرة على أن أقبل ذلك.
– طيب إذن، يا إوخينيا، أتريدين أن أتكلم معك بكل قلبي، أن أقول لك الحقيقة، كل الحقيقة؟
– تكلم!
– أنا أحبك كثيرا، كثيرا، مجنون بحبك، لكن موضوع الزواج يفزعني، يخيفني كثيرا، بطريقة فظيعة. أنا ولدت كسولا مزاجيا، لا أنكر هذا؛ إن أكثر ما يزعجني هو العمل، وأخمن أننا إذا تزوجنا، وكما أتوقع وأفترض إن أنت سترغبين في أن يكون لنا أطفال ...
– ذاك ما لا يجب أن ينقصنا!
– سيكون علي أن أعمل، بصرامة، لأن الحياة تحتاج مصاريف. وأن أقبل أن تعملي أنت، لن يكون أبدا، أبدا! إن ماوريسيو بلانكو كلارا لا يمكن أن يعيش من عمل زوجته. لكن هل هناك حل لكي لا تعملي أنت ولا أنا وأن نرمم كل شيء...
– إذن... هل تعاهدني بأن تريحي نفسك؟

– هيا، تكلم!

– حسب ما أعرفه أنا، وما سمعته منك، فإن المسكين ضون أوغوسطو رجل غبي، شيطان مسكين...

– هيا، أكمل!

– إنه كما قلت، فإن قدره محدد سالفا. وربما من الأفضل أن تقبلي مسألة دارك، وإلا فإن...

– هيا، ماذا؟

– أن تقبلينه كزوج.

– آه، –ووقفت على رجليها–.

– أن تقبلينه، وبما أنه رجل مسكين، فكل شيء سيتم على ما يرام...

– كيف سيتم على ما يرام؟

– نعم، سيسدد...

– ونحن... ماذا؟

– إذ... نحن...

– كفى!

وخرجت إوخينيا، وعيناها مشتعلتان، قائلة: «يا لهم من وحوش!، يا لهم من وحوش! لم أكن لأعتقد هذا أبدا... يا لهم من وحوش!» وعندما وصلت إلى المنزل، انعزلت في غرفتها وانفجرت بكاء. وكان عليها أن تنام بحرارة مرتفعة. بقي ماوريسيو برهة معلقا؛ وفي الحين عاد إلى حاله، أشعل سيجارة، وخرج إلى الشارع، حيث غازل أول فتاة مرت أمامه متبخترة. وفي تلك الليلة تكلم مع صديق عن زير النساء ضون خوان طينوريو.

– بالنسبة إلي أنا، فإن هذه الشخصية لم تقنعني –قال ماوريسيو– ليس ذلك غير مسرحية.

– وأن تقول أنت هذا، يا ماوريسيو، أنت الذي تحسب نفسك ضون طينوريو، أنت الذي تغري النساء!

– أغري النساء؟، أنا أغري النساء؟ يا لها من أشياء تخترع، يا روخيليو!

– وإلى أين وصلت مسألة أستاذة البيانو؟

– خلاص، أتريد أن أقول لك الحقيقة، يا روخيليو؟

– هيا!
– طيب؛ من كل علاقة حب، زائد أو ناقص شريفة، وهذه التي لمحت إليها هي علاقة شريفة جدا، من بين كل مائة علاقة حب بين رجل وامرأة، تسعون منها تكون المرأة هي التي تغري الرجل.
– إذن ماذا، أتنفي أنك أنت الذي ظفرت بأستاذة البيانو إوخينيا؟
– نعم أنفي ذلك؛ لست أنا الذي ظفرت بها، بل هي.
– إنك أنت الذي قمت بإغرائها.
– كما تريد... هي، هي. لم أستطع أن أقاوم.
– في هذه الحالة الإغراء كان متبادلا...
– لكن يبدو أن هذا الأمر سينتهي وسأجد نفسي حرا من جديد. سأتحرر منها، طبعا، ولن أستجيب لإغراء امرأة أخرى. أنا ضعيف جدا! لو كنت قد ولدت أنا امرأة...
– طيب، وكيف سينتهي؟
– لأنني... أخطأت ولم أعرف كيف أتصرف! أردت أن نستمر، أن نبدأ علاقات، أتفهمني؟، بدون التزامات... وواضح!، يبدو لي أنني سأهرب. تلك المرأة تريد أن تمتصني.
– وستمتصك!
– من يدري...! أنا ضعيف جدا! ولدت لكي تنفق علي امرأة، لكن بكرامة، وإلا لا شيء!
– ما هي الكرامة عندك؟ إذا أمكن أن أعرف؟
– يا رجل لا تسأل هذا السؤال! هناك أشياء لا يمكن وضع تعريف لها.
– حقيقة! –أجابه روخيليو بقناعة عميقة، وأضاف–: وإذا هجرتك أستاذة البيانو، ماذا ستفعل؟
– سأبقى شاغرا. وسأرى إن ظفرت بي أخرى. لكن هذه لا تتنازل، تحافظ دائما على المسافة الشريفة، وباختصار، لأنها كشريفة جعلت مني مجنونا، مجنونا كاملا وتاما. كان بإمكانها أن تفعل بي ما تريد. والآن إذا هجرتني، سأتأسف كثيرا، ولكن سأتحرر. سأجد نفسي حرا.
– حرا؟
– حرا، نعم، حرا الأخرى.

- أنا أعتقد أنكما ستتصالحان...

- من يدري...! لكنني أشك، لأن لها شخصية قوية... واليوم أسأت إليها، الحقيقة أنني أسأت إليها.

XVII

– هل تتذكر يا أوغوسطو –قال له بيكطور–، ضون إلوينو رودريغيث من ألبوكيركي وألباريث دي كاسطرو؟

– ذاك الذي كان موظفا بالمالية، الذي كان يهوى أن يفرغ خاصة إذا وجد ما هي أرخص؟

– بالضبط نفسه. حسنا... لقد تزوج!

– رجل شجاع غريب تزوج بمن ستتحمله!

– لكن ما هو غريب هو طريقة زواجه. انتبه وسجل ملاحظاتك. ستعلم أن ضون ألبوكيركي وألباريث دي كاسطرو، رغم لقبه العائلي، لا يملك أي شيء سوى أجره الشهري من المالية، وبالإضافة إلى هذا يعاني من عطب في صحته.

– هذه الحياة التي يعيشها.

– المسكين يعاني من علة قلبية لا علاج لها. أيامه معدودة. منذ أيام قليلة خرج من وعكة صحية خطيرة، كانت قد وضعته على حافة الموت، وحملته إلى الزواج، لكن الآخر... انفجر. والحالة أن هذا الرجل المسكين كان يعيش من متنقل من دار الضيافة إلى أخرى، وكان عليه أن يخرج منها، لأن أجره ضعيف، وبما كان يكسبه لا يمكنه أن يطلب الأكل اللذيذ والرفيع، وكان ملحاحا. ولم يكن نظيفا في كل شيء. وهكذا، بدأ يدور من دار إلى دار حتى وقع في دار قوادة موقرة، ومتقدمة في السن، أكبر منه سنا، كما تعرف، أقرب إلى الستين، أكثر من قربها إلى الخمسين، وأرملة مرتين؛ زوجها الأول كان نجارا، انتحر بإلقاء نفسه من طابق سقالة البناء إلى الشارع، وتتذكره باسم روخيليو، وزوجها الثاني كان عريفا في الجمارك، مات وورثت عنه رأسمال صغير، يدر عليها بسيطة في اليوم. وصادف المرض ضون إلوينو في منزل هذه

السيدة الأرملة، مرض ووصل إلى حالة سيئة جدا، كان مريضا لدرجة بدا أنه لن يشف من هذا المرض وأنه يحتضر. أحضروا أولا السيد ضون خوصي، ثم السيد ضون بالينطين. والرجل يموت! ومرضه يتطلب عناية كبيرة، وليس هناك نظافة كافية، التي كانت تحتكرها القوادة، وهدد بعض نزلاء دار الضيافة بالذهاب إلى جهة أخرى. وضون إلوينو، لم يعد يقدر على أداء أكثر، والأرملة المضاعفة تقول له أنها لا تحتمله في دارها، لأنه يضر تجارتها. «لكن يا سيدتي، بربك قليلا من الإحسان! -كان يترجاها- إلى أين أذهب أنا في هذه الحالة الصحية، في أي دار أخرى سيقبلونني؟ إذا طردتني أنت سيكون علي أن أذهب إلى الموت في المستشفى... بربك قليلا من الإحسان! أحسني بي في هذه الأيام القليلة المتبقية في عمري... !» كان مقتنعا أنه سيموت في القريب. أما هي من جهتها، وطبيعي، هو أن دارها ليست مستشفى، وأنها تعيش من هذه التجارة ووضعيته بدأت تضرها. أمام كل ما كان يجري خطرت ببال أحد زملاء ضون إلوينو في العمل فكرة منقذة، وقال له: «ليس لديك يا ضون إلوينو سوى وسيلة وحيدة لكي تقبلك في منزلها هذه السيدة الطيبة ما دمت حيا.» «ما هي؟» ، سأل هو. «أولا -قال له زميله- لنعرف ما تعتقده أنت عن مرضك.»

– «آه، أنا لن أعمر طويلا، ربما لن يكون الوقت كاف ليصل إخواني ويروني حيا.» «أتعتقد أنك في حالة سيئة جدا؟» «أشعر أنني أموت...» «إذا كان كذلك، ليس لك سوى وسيلة وحيدة لكي تنجح في أن لا تطردك إلى الشارع، وتفرض عليك الذهاب إلى المستشفى.» «وما هي؟» «أن تتزوجها.» «أن أتزوجها؟، أتزوج بالقوادة؟ من، أنا؟ واحد يحمل اسم عائلة رودريغيث البوكيركي وألباريث دي كاسطرو! يا رجل أنا لست في حالة المزاح!» وبدا أن الفكرة كان لها مفعول وبدأ يتقبلها شيئا فشيئا.

– وليس لما هو أقل.

– لكن الصديق، بعد أن عاد إلى نفسه من المفاجأة الأولى، أظهر له أن زواجه بالقوادة سيدر عليها 13 ريالاً شهريا عند ترملها، وإلا لن ينتفع بهم أحد وسيعودون إلى الدولة. انظر جيدا...

– نعم صديقي بيكطور، أعرف أكثر من واحد تزوج فقط لكي لا توفر الدولة معاش الترمل. هذا هو التحضر والمدنية!

– لكن ضون إلوينو رفض غاضبا الاقتراح، تصور ما كانت ستقوله القوادة: «أنا أتزوج، في سني هذا، وللمرة الثالثة، بذاك الرجل الغريب؟ يا له من اشمئزاز!». تخابر مع الطبيب، الجميع أكد له أنه لم يبق من عمره إلا أياما معدودة. وقال: «الحقيقة هي أن 13 ريالا شهريا سترتب لي الأمور»، وانتهى به الأمر إلى قبول الاقتراح. وإذاك نودي على الراهب، ضون ماطياس الطيب، بارون من طائفة الرسل، كما تعلم، ليقنع المفرغ من دار الضيافة. لكن نعم، نعم -قال ضون ماطياس-؛ نعم، مسكين! مسكين!» وأقنعه. ثم نادى ضون إلوينو على كوريطا، قالوا إنه قال له بأنه يريد أن يتصالح معه -كانا قد حدث بينهما خصام- وطلب منه أن يكون شاهدا في عرسه. «لكن، هل تتزوج يا ضون إلوينو؟» «نعم، يا كوريطا، نعم، سأتزوج بالقوادة!، سأتزوج بضونيا سينفوا، أنا رودريغيث دي ألبوكيركي إي ألباريث دي كاسطرو، تصورا لكي تعتني بي الأيام المتبقية في حياتي... لا أدري هل سيلحقونني إخوتي حيا... وهي ستتزوج بي مقابل 13 ريالا معاش أرملة.» وحسب ما يحكون أن كوريطا عندما ذهب إلى منزله حكى كل شيء لزوجته إميليا التي صاحت قائلة: «أنت بليد، يا بيبي! لماذا لم تطلب منه أن يتزوج بإنكارنا -إنكارنا هي خادمة، ليست شابة ولا هي جميلة، التي كانت قد أخذتها إميليا ضمن صداقها عندما تزوجت- كانت ستعتني به جيدا مقابل 13 ريالا لمعاش الأرملة. وأضافت إنكارنا: «أنت على صواب يا سيدتي؛ كنت أتزوج به وأعتني به المدة التي ما زالت في عمره، وهي ليست بمدة طويلة، من أجل 13 ريالا.»

– لكن، يا بيكطور يبدو كل هذا اختراع.

– ليس كذلك. هناك أشياء لا تخترع. وحكى لي ضون بالينطين، أن ضون خوصي الذي كان يعالج ضون إلوينو، وجد في أحد الأيام ضون ماطياس بلباسه، واعتقد أنه سيدهنه بالزيت المقدس الذي يعده الراهب للمريض الذي يكون في حالة ميؤوس منها، وقالوا له بأنه كان يزوجه. وعندما عاد في ما بعد رافقته حتى الباب القوادة العريسة، للمرة الثالثة!، وبصوت حزين و قلق سألته: «قل لي يا سيدي ضون بالينطين، سيحيا؟ سيحيا في ما بعد؟» «لا يا سيدتي، لا؛ مسألة أيام قليلة...» «سيموت قريبا» «نعم، قريبا.» « أصحيح أنه سيموت؟»

- يا للفظاعة!

- ليس هذا كل شيء. أوصى ضون بالينطين أن يعطى المريض الحليب فقط، قليلا منه كل مرة، لكن ضونيا سينفو كانت تقول لنزيل آخر: «أنا أعطيه كل ما يطلبه! لماذا سأحرمه مما يشتهي إذا كان سيموت قريبا...!»

- هذا شيء فانطاسطيكي!

- لا، إنه تاريخي. وحضر إخوانه، أخ وأخت، وكان يقول تحت وطأة المرض: «تزوج أخي وهو يحمل اسم عائلة رودريغيث ألبوكيركي إي ألباريث دي كاسطرو بقوادة بشارع بييخيروس!، أخي ابن رجل كان رئيسا لمحكمة سرقسطة، سر-قس-طة، تزوج ب...ضونيا سينفو» كان مرعبا. وكانت أرملة المنتحر، والمتزوجة الآن بالمهدد بالطرد من دار الضيافة: «والآن وكأنك تراه، وبما أنهم أصهارنا سيذهبون دون أداء العناية والحماية، وأنا أكسب العيش من هذا!» ويبدو أنهم سددوا كل شيء، نعم، العناية أداها الزوج، لكنهم أخذوا معهم عكازا قبضته من الذهب كان يستعمله.

- ومات؟

- نعم، مات في ما بعد. عرفت حالته الصحية تحسنا، تحسنا كبيرا. وكانت هي تقول: «كان خطأ من ضون بالينطين، الذي شخص مرضه... الأحسن كان الآخر، ضون خوصي، الذي لم يعرف مرضه. لو كان قد عالجه هذا الأخير لكان قد مات، والآن ها هو ينغصني.» ضونيا سينفو، بالإضافة إلى أبنائها مع الزوج الأول، لها بنت من الرجل الثاني، الديواني، وبعد زواجه بقليل كان يقول لها ضون إلوينو: «تعالي، تعالي إلى هنا، تعالي لأقبلك، فأنا الآن أبوك، إنك ابنتي...» لا ليست ابنتك -كانت تقول الأم- ابنتك بالتبني. والأم كانت تُعرف بتذمرها: «والذي لا حياء له كان يفعل ذلك للمسها فقط...! أرأيتم...!» ثم جاءت، كالعادة، القطيعة. «هذه خدعة، كانت خدعة لا أكثر، يا ضون إلوينو، فأنا تزوجت بك لأنهم أكدوا لي بأنك ستموت عاجلا وإلا فلا... خدعوني، خدعوني.» -كذلك أنا خُدعت، يا سيدتي. وماذا كنت تنتظرين مني أن أفعله؟ أن أموت لكي تتمتعي أنت؟» «ذاك هو المتفق عليه.» «سأموت، يا سيدتي، سأموت... وأرغب أن يكون ذلك قريبا. واحد من عائلة ألبوكيركي إي ألباريث دي كاسطرو!». قام نزاع بينهما، اختصما حول بعض النقود التي كان عليه أن يؤديها مقابل الاعتناء

به، وخلصت هي إلى طرده من الدار. «وداعا يا ضون إلوينو، أتمنى أن تكون أمورك بخيرا» «أن يحفظك الله يا ضونيا سينفو». وأخيرا توفي زوجها الثالث، وترك لها معاشا قدره 15،2 بسيطة يوميا، بالإضافة إلى أنهم منحوها 500 بسيطة كعزاء، وحداد. طبعا أنها لم تصرفها في الحداد. لم تقم له أكثر من صلاتين للقداس، لأنها أحست بتأنيب الضمير، وترحمت عليه من أجل 13 ريالا عن الترمل.

– يا لها من أشياء يا إلاهي!

– أشياء لا تخترع، لا يمكن اختراعها. الآن أجمع معلومات ومعطيات لهذه المأساة الكوميدية، هذه المهزلة الجنائزية. فكرت أولا أن أعد مسرحية كوميدية؛ وبعد أن راجعت الأمر واعتبرته، قررت أن يكون من الأفضل، مثل ما فعل سيربانطيس، عندما أدخل في الكيخوطي تلك الروايات التي تشكل الكتاب، سأدخل كل هذا في رواية أكتبها لكي أخفف من أتعاب الرأس التي يسببها لي حمل زوجتي.

– لكن، حشرت نفسك في كتابة رواية؟

– وماذا تريدني أن أفعل؟

– وما هو موضوع الرواية، إذا كان من الممكن أن أعرف؟

– روايتي لا تقوم على، من الأحسن أن يكون موضوعها عفويا. الموضوع يخلق لوحده.

– وكيف ذلك؟

– في أحد هذه الأيام لم أكن أعرف ماذا سأعمل، لكنني شعرت بشوق كبير لأفعل شيءً ما، شعرت بقلق حميمي، اهتزاز خيالي، قلت لنفسي: سأكتب رواية، سأكتبها كما هو المعيش، دون علم بما هو آتي. جلست وأخذت بعض الأوراق، وبدأت أكتب أول شيء خطر ببالي، دون أن أعرف من سأتبع، دون أية خطة. وشخوصي الروائية سأخلقها حسب تصرفاتهم وكلامهم، وأهم شيء هو ما يقولون؛ طبائعهم سيتم تشكيلها شيئا فشيئا. وأحيانا لن تكون لهم طبائع.

– مثل طبعي أنا.

– لا أدري. سيبرز.

– وتتضمن السيكولوجيا؟، والوصف؟

- ستركز أكثر على الحوارات؛ المهم هو أن تتكلم شخصيات الرواية، أن تتكلم كثيرا، حتى وإن لم يقولوا أي شيء.
- هذا ما لمحت لك به إلينا.
- لماذا؟
- أتذكر أنها طلبت مني رواية لتقتل بها الوقت، وأكدت على أن تحتوي على حوارات مقتضبة.
- نعم، عندما تقرأ رواية وتجد فيها وصفا طويلا، أو خطب الوعظ الديني أو حكايات، تقفز عنها قائلة: تبن!، تبن!، تبن!، بالنسبة إليها الحوار فقط ليس تبن. وأنظر أنت أنه يمكن توزيع خطب الوعظ في حوار...
- وما سبب هذا؟...
- لأن الناس يفضلون الحديث من أجل الحديث، حتى ولو كان فارغا. هناك من لا يحتمل سماع خطاب نصف ساعة، ويقضي ثلاثة ساعات في حديث بالمقهى. إنه سحر الحديث، الكلام من أجل الكلام، الكلام المتقطع.
- كذلك أنا، نبرة الخطاب تثقلني...
- نعم، لذة الإنسان في الكلام، وليس الكلام الحي... وفوق كل شيء أن يبدو أن الكاتب لا يقول الأشياء لذاته، لا يزعجنا بشخصيته، بأناه الشيطانية. بالرغم من ومن دون شك، كل ما تقوله الشخصيات الروائية أقوله أنا...
- كيف؟ لهذه الدرجة؟
- نعم، ستبدأ وكأنك توجههم أنت، وستقتنع بأنهم يوجهونك. غالبا ما ينتهي الأمر بالكاتب إلى أن يتحول إلى دمية خيالاته...
- ربما، لكن، أعتقد أنني سأضع في هذه الرواية كل ما سيخطر ببالي، مهما كان الأمر.
- إذن لن تكون رواية.
- لا، ستكون... «نيبولا» رواية قصيرة.
- وما هي، ما هي «نيبولا»؟
- لقد سمعت الشاعر مانويل ماشادو، أخ أنطونيو ماشادو، يحكي أنه ذهب عند إدواردو بينويط، ليقرأ عليه قصيدة من أربعة مقاطع، ورباعيات من أربعة أبيات، ولا أدري أي شكل من الشعر التقليدي. وقال له ضون

إدواردو:
«هذه ليست رباعيات...» «لا يا سيدي، هذه سونيطي.» وهكذا يحدث مع روايتي، ليست رواية، بل... كما قلت نبيلو... نيبولو، لا، لا، نيبولا، بالضبط، نيبولا! وهكذا لا أحد له الحق بالطعن بحجة أنني لا أحترم قوانين هذا الجنس الأدبي... أخترع الجنس الأدبي، أن تخترع الجنس الأدبي هو أن تعطيه اسما جديدا، وأن تضع له القوانين التي تحلو لك. حوار كثير ومكثف!
وفي الالة التي يبقى فيها البطل وحيدا؟
– إذاك... نلجأ إلى المونولوغ. ولكي يبدو شيئا كحوار أخلق شخصية كلب
– الذي يتوجه إليه البطل.
– هل تعلم يا بيكطور، أنني أتخيل أنك تخلقني؟...
– هذا ممكن!

عندما افترقا بيكطور وأوغوسطو، خاطب نفسه هذا الأخير قائلا: «وحياتي هل هي رواية أم رواية قصيرة؟ كل ما يحدث لي ولمن حولي، هل هو واقع أم خيال؟ أليس هذا كله حلم من عند الله، أو أي كان. أليست تراتيل جميع الديانات طريقة لتحريكنا في مهدنا أثناء نومنا لنترك أحلامنا؟ آه، يا إوخينيا!، إوخينيتي!، إوخينيتي! وروساريو لي...»
– أهلا، يا أورفيو!
أورفيو كان قد خرج للقائه، يقفز، ويريد أن يتسلق عبر رجليه. أخذه وبدأ الحيوان الصغير يلعق يده.
– سيدي –قالت له ليدوبينا–، ها هي الآنسة روساريو تنتظرك بالمكواة الحديدية.
– لماذا لم ترتبي معها الأمور؟
– لا أدري... قلت لها إنك لن تتأخر، وإذا أرادت يمكنها الانتظار... لكن كان بإمكانك أن تصفي معها الحساب مثل ما فعلت سابقا...
–نعم، ولكن... أنت تفهمني...
– ليدوبينا! يا ليدوبينا!
– من الأحسن أن تسوي أنت معها الأمور بنفسك.
– سأفعل ذلك.

XVIII

- أهلا روساريتو -صاح أوغوسطو عندما رآها-.

- مساء الخير يا ضون أوغوسطو-كان صوت الفتاة هادئ وواضحا، ولم تكن نظراتها واضحة وهادئة-.

- لماذا لم تسوي الحساب مع ليدوبينا مثل المرات الأخرى، حيث لم أكن أنا في المنزل؟

- لا أدري! قالت لي علي أن أنتظر. اعتقدت أنك تريد أن تقول لي شيئا ما... «هل هذه سذاجة أم ماذا؟»، فكر أوغوسطو وبقي معلقا برهة. لحظة سيطرت فيها الحشمة، مليئة بصمت قلق.

- ما أريده يا روساريو، هو أن تنسي ما وقع بيننا ذاك اليوم، ألا تتذكري ذلك، أتفهمين؟

- طيب، كما تريد سيدي...

- نعم، كانت حماقة... حماقة... لم أكن أعرف جيدا ما كنت أفعله، ولا ما كنت أقوله... وكما لا أعرف الآن... وبدأ يقترب إلى الفتاة.

كانت تنتظره هادئة وبصبر. جلس أوغوسطو على الأريكة، وناداها:

- تعالي إلى هنا، طلب منها أن تجلس على ركبتيه، ونظر إلى عينيها مدة قصيرة. قاومت هي بهدوء تلك النظرة، لكنها كانت ترتعش كورقة شجر الحور.

- ترتعشين، يا فتاة...؟

- أنا؟ أنا لا أرتعش. يبدو لي أن الذي يرتعش هو أنت...

- لا ترتعشي، هدئي نفسك.

- لا تجعلني أبكى مرة أخرى...

– هيا، نعم، أتريدين أن أجعلك تبكين مرة أخرى. قولي، هل عندك خطيب؟
– لكن، ما هذا السؤال...
– قولي، هل عندك خطيب؟
– خطيب... هكذا، خطيب... لا!
– لكن، ألم ينتبه إليك فتى من أقرانك؟
– ها أنت ترى يا ضون أوغوسطو...
– وماذا قلت له؟
– هناك أشياء لا تقال...
– صحيح. وقولي لي، هل تحبينا بعضكما؟
– لكن، بربك يا ضون أوغوسطو...!
– انتبهي، إذا كنتِ ستبكين سأبتعد عنك.

أسندت الفتاة رأسها على صدر أوغوسطو، خبأته فيه، وانفجرت بكاء محاولة خنق تنهداتها. «هذه الفتاة سيغمى عليها»... فكر هو بينما كان يلمس شعرها
– هدئي نفسك، هدئي نفسك!
– وأين تلك المرأة...؟ سألت روساريو دون أن ترفع رأسها، وبلعت تنهداتها.
– آه، تذكرت تلك المرأة، لقد رفضتني كليا. لم أربح أبدا، والآن خسرتها كليا، كليا! –رفعت الفتاة جبهتها ونظرت إلى وجهه، لتتأكد هل هو صادق فيما يقولِ–.
– إنك تريد أن تخدعني... –همست–.
– كيف أريد أن اخدعك... آه، سترين! ألا تقولين إن كان لك خطيب؟
– أنا لم أقل أي شيء...
– اهدئي!، اهدئي! –وأجلسها على الأريكة بجانبه، ثم وقف وبدأ يتجول في القاعة–.

لكنه عندما أعاد النظر إليها رأى أن الفتاة المسكينة ترتعش وتغير لونها.

وأدرك أنها بدون حماية، هكذا وحدها أمامه، على مسافة قليلة، جالسة على الأريكة كسجين في التحقيق أمام النيابة العامة، يشعر بنفاذ قوته.
- صحيح! -صاح-؛ نكون تحت الحماية عن قرب أكثر.

جلس مرة أخرى، أجلسها مرة أخرى في حجره، ضمها بيديه إلى صدره بقوة. ألقت المسكينة دراعها على كتفه، لتتوكأ عليه، وأعادت لتخبأ وجهها في حضن أوغوسطو. وكأنها تسمع نبض قلبه، الذي أقلقها.
- هل أنت مريض، يا ضون أوغوسطو.
- ومن يوجد بصحة جيدة؟
- أتريد شيئا؟
- لا، لا، اتركي هذا الأمر. أنا أعرف مرضي. وما أحتاج إليه هو أن أقوم بسفر. -وبعد صمت قليل قال لها-: هل ترافقيني في هذا السفر؟
- يا ضون أوغوسطو!
- لا تناديني بضون! هل ترافقيني في هذا السفر؟
- كما تريد...

غزا ضباب ذهن أوغوسطو؛ بدأ الدم ينبض في جبهته، أحس بضغط في صدره. ولكي يتحرر منه بدأ يقبل روساريو في عينيها. ووقف بسرعة و قال لها:
- دعني!، دعني!، لقد انتابني الخوف!
- الخوف من ماذا؟
- أفزعه الهدوء المفاجئ الذي أظهرته الفتاة.
- أشعر بالخوف، لا أدري مِن مَن، منك، من نفسي؛ من أي شيء!، من ليدوبينا! اذهبي، اذهبي، لكن ستعودين، هل ستعودين؟
- سأعود عندما تريد.
- وسترافقينني في سفري، أليس هكذا؟
- كما تأمر...
- انصرفي، انصرفي الآن!
- وتلك المرأة...

ارتمى أوغوسطو على الفتاة، بعد أن وقفت على رجليها، أخذها وضمها إلى صدره، قبلها في شفتيها، ألصق فمه في فمها بينما كان ينفض رأسها. ثم أفرج عنها: هيا، اذهبي! وانصرفت روساريو. وعندما خرجت، ذهب أوغوسطو في الحين إلى الفراش، كان يحس بتعب كبير وكأنه قطع على رجليه أميالا عبر الجبال، أطفأ الإنارة، ودخل في مونولوغ:

«كذبت على نفسي، وكذبت عليها. هكذا دائما! الخيال في كل شيء، وليس هناك غير الخيال. الإنسان عندما يتكلم يكذب. ليست هناك حقيقة غير الحياة الفسيولوجية. اللغة، هذا المنتوج الاجتماعي، وجد من أجل الكذب. سمعت فيلسوفنا يقول إن الحقيقة مثل الكلمة، منتوج اجتماعي، ما يعتقد الجميع، وهذا الاعتقاد يؤدي بهم إلى التفاهم. ما هو منتوج اجتماعي هو كذب...»

عندما أحس بكلبه يلعق يده صاح: آه، إنك هنا، يا أورفيو؟ أنت لا تتكلم إذن أنت لا تكذب، وأعتقد أنك لا تخطيء، ولا تكذب على نفسك. بالرغم من أنك حيوان أليف، أعتقد أنك أخذت شيئا من الإنسان... نكذب ونعطي أهمية لأنفسنا. الكلمة وجدت لكي نبالغ في تحويل أحاسيسنا كلها إلى انطباعات... الكلمة وكل أنواع التعبير التقليدي، مثل القبلة والعناق... لا يقوم كل واحد منا إلا بأداء وتشخيص دوره. جميع الأشخاص، كلهم بقناع، كلهم رسوم ساخرة! لا أحد يعاني أو يستمتع بما يقول وربما يعتقد أنه يستمتع ويعاني؛ وإلا لن يتحمل أحد الحياة. في عمقنا مطمئنون. مثلي أنا هنا، أشخص وحدي الكوميديا الخاصة بي، ممثلا ومتفرجا في نفس الوقت. الذي يقتل وحده هو الألم الفيزيقي. الحقيقة الوحيدة هي الإنسان الفيزيولوجي، الذي لا يتكلم، الذي لا يكذب...»

سمع طرقة في الباب.

– ما تريدين؟

– العشاء جاهز، هل يتعشى سيدي؟ –سألته ليدوبينا–.

– صحيح؛ انتظري، أنا آت.

«ثم أنام اليوم، مثل الأيام السابقة، وتنام هي كذلك. هل ستنام روساريو؟ ألم أزعج سكينة روحها؟ وشخصيتها الطبيعية، هل هي براءة أم خبث؟ هل يوجد شيء أكثر خبثا من البراءة، أو من الأحسن أبرء من الخبث. نعم، نعم، كنت أفترض أنا، أنه في العمق ليس هناك أكثر... أكثر... كيف أقول؟... كلبي أكثر من البراءة. نعم ذاك الهدوء الذي سلمت به نفسها إلي، والذي أدخل الخوف إلى قلبي، الخوف، لا أدري من ماذا، لم يكن ذلك غير البراءة. وسؤالها: «وتلك المرأة؟»، غيرة، الغيرة؟ من المحتمل أن الحب يولد من الغيرة؛ الغيرة تكشف عن الحب. مهما كانت امرأة عاشقة لرجل ومهما كان الرجل عاشق لامرأة، لا يشعرون بما هم فيه، ولا يقولون عن أنفسهم إنهم في تلك الحالة، أي بمعنى، لا يعشق الرجل المرأة العشق الحقيقي إلا عندما يرى أنها تهتم برجل آخر، أو عندما تراه هي ينظر إلى امرأة أخرى. لو كان في هذه الدنيا رجل واحد وامرأة واحدة، يعيشان وحدهما في هذا المجتمع، كان مستحيلا أن يعشق بعضهما البعض. بالإضافة إلى أنهما سيحتاجان إلى ثالثة، إلى الوسيطة (القوادة) والقوادة هي المجتمع. القواد العظيم! شيء جيد! القواد العظيم! وحتى وإن كان في اللغة فقط. ولهذا فإن كل ما هو حب كذب زائد. وما هو فيزيولوجي؟ خلاص، ما هو فيزيولوجي لا يمت للحب بصلة، شيء لا يصلح! لذلك هو الحقيقة! لكن... هيا، يا أورفيو، هيا لنتعشى. هذه هي الحقيقة!»

XIX

بعد يومين من ذلك الإعلان لأوغوسطو بأن امرأة ترغب في لقائه للحديث معه، خرج أوغوسطو لاستقبالها والتقى بالسيدة إيرميليندا: أنت من هنا؟ رد عليها أوغوسطو قائلا «كيف لا تريدين أن نلتقي مرة أخرى!»

– أنت تدركين سيدتي –رد أوغوسطو– لأنه بعد الذي حدث في بيتك في المرتين الأخيرتين التي ذهبت فيها عندكم، واحدة مع إوخينيا منفردين والأخرى حين لم ترغبي في رؤيتي، وكان علي أن لا أعود إلى هناك! ...

– لقد جئتك في مهمة من طرف إوخينيا.

– من عندها؟

– نعم، أنا لا أعرف ما الذي حصل لها مع خطيبها، ولكني لا أريد أن أسمع الكلام عنه، هي ضده، غاضبة وفي اليوم السابق، وعند العودة إلى البيت، أغلقت عليها حجرتها ورفضت أن تتناول طعام العشاء. عيناها ملتهبتان من فرط البكاء، والدموع التي تنهمر حامية. تعرف لماذا؟ من الحنق...

– آه! هل هناك أصناف مختلفة من الدموع؟

– أمر طبيعي، هناك دموع تبرد وتخفف وتفرج عن النفس، ودموع تشعل وتخنق النفس بشكل قوي. لقد بكت، ورفضت العشاء، وكررت علي لمرات كلامها المعهود بأن الرجال كلهم عنيفون ليس إلا. وكانت هذه الأيام من الغضب، مع خليط من الضجيج، حتى نادت علي بالأمس، وقالت لي بأنها كانت نادمة عما صدر منها، حين تطاولت عليك، وتجاوزت حدودها ولم تكن عادلة معك، وهي تعترف باستقامتك ونبل نواياك وأنها تريد منك أن تعفو عنها مما صدر منها بأنك تريد أن تقتنيها، وإن كانت لا تعتقد ذلك. وهو ما جعلها تصر عليك وتقول بأنها قبل كل شيء تريدك أن تصدق بأن كل

ما صدر عنها كان سببه الهيجان الذي أغضبها، ولكن هي لا تعتقد...

- واعتقد أنها لم تعتقده.

- من بعد ... بعد أن كلفتني تريد أن أتحقق منك بطريقة دبلوماسية.

- وأحسن دبلوماسية، سيدتي، إنها لا تمتلكها، وخصوصاً معي...

- بعد أن توسلت إلي، تريد أن تعرف إن كان ذلك يزعجني بموافقتها دون أي حرج على الهدية التي قدمتها لها في بيتك.

- كيف بدون حرج؟

- هَلُمَّ، نعم، الذي يقبل الهدية كأي هدية أخرى.

- نعم كما لو قدمتها لها، كيف عليها أن تقبلها؟

- لأنها تقول نعم، ومستعدة لأن تبين حسن إرادتها، وجديتها عن أسفها على ما صدر منها، وتقبل عطائها السخي، ولكن دون أن يكون الأمر ملزماً...

- كفى سيدتي، كفى! الآن يبدو بأنه لا داعي لإحراجي مرة أخرى...

- قد يكون ذلك دون قصد...

- ثمة مناسبات تكون فيها الإهانات المشينة ذات إقاع مضر دون قصد، حسب ما يقال.

- إذا لم أفهم...

- وهو، رغم ذلك. أمر واضح جداً. مرة دخلت إحدى الاجتماعات وكان هناك أحد المشاركين يعرفني، ولم يتفضل حتى بتحيتي. وعند الخروج اشتكت من ذلك لصديق، وخاطبني قائلاً: «لا تستغرب ذلك، ربما لم يكن الأمر عمداً، أو لم يدرك ذلك عند حضورك.» وأجبته: «إذن كان هناك فظاظة كبيرة، ليس لأنه لم يحييني وإنما لم يبال بوجودي». «ذلك هو الأمر اللاإرادي، إنه السهو...» فرد علي. وأنا بدوري «الفظاعات الكبرى هي التي تسمى اللاإرادية، وفظاظة من الفظاعات تعتبر حالة سهو أمام الأفراد». إنه سيدتي، كذلك الذي يسمى كلاماً فارغاً منسياً وهو نوع من الفظاظة.

- وما الدافع إلى ذلك؟

- الدافع، سيدتي ضونيا إرميليندا، بأنه بعد الاعتذار مني عن ذلك النوع من الهجوم مع تبرعي بالبحث عن اقتنائها بإجبارها على الامتنان، لا أعلم جيداً ما الذي يجعلني أن أقبله، ولكن مع يقيني بأنه غير ملزم.

أي التزام، أي التزام؟

– لا تتبجح سيدي هكذا، أوغوسطو!

– إذن علي أن لا أشيد بنفسي، سيدتي، إذاً علي أن لا أشيد بنفسي!

– إن هذه.. الشابة سوف تسخر مني، وتحب أن تلعب معي؟

– وحين تقول هذا تتذكر روساريو

– بربك، ضون أوغوسطو، بربك! ...

– لقد سبق أن قلت على أن الرهن قد حل، وإني ألغيته وإنه إذا هي لم تتحمل مسؤولية بيتها فأنا لا دخل لي معها.

– وسواء شكرتني أم لا، فهذا لم يعد يهمني

– ولكن سيد أوغوسطو، لا تكن هكذا! إن كل ما تريده هي هو السلام معك، وتصبحا صديقين! ...

– نعم الآن لقد تم قطع العلاقة مع الآخر؟ أليس كذلك؟ في السابق كنت أنا هو الآخر بتصيدي، إيه؟

– ولكن، أنا لم أقل أي شيء!

– لا، ولكن خمنت فيه

– إذن أنت مخطئ تماماً، لأنه بالضبط بعد أن أخبرتني ابنة أخي عن كل شيء أمليته عليك، وألمحت لها ونصحتها بعد أن تشاجرت مع الكسلان خطيبها وتعويضه بمحاولة جذبك إليها، هَلُمَّ أتفهمني..

– نعم، لتستردديني...

– ذلك! إذاً حسناً، على تقديم هذه النصيحة، قلت لي مراراً وتكراراً بأن هذا لم يكن لا، لا، وكنت أقدره واحترمه وأريده صديقاً ليس إلا، ولكن لم تكن ترغب فيه كزوج، ولا تريد الزواج إلا من رجل الذي كانت تحبه.

– وبالنسبة لي لا يمكن أن أصل إلى ذلك. أليس كذلك؟

– لا، ليس ذلك، لم تقل...

– هيا بنا، نعم، إن هذه كذلك دبلوماسية...

– كيف؟

– نعم، مجيئك شخصياً ليس فقط لأعتذر لها... أيتها الشابة، وإنما لترى إن كنت سأقبل بها كزوجة أليس كذلك؟ أمر متفق عليه. آه؟ وهي ستتنازل...

– أقسم لك سيد أوغوسطو، أقسم لك بالذاكرة المقدسة للأم المقدسة بأنه كان مفخرة، أقسم لكِ ...

– الثاني، ليس قسماً ...

– إذا أقسم على أنك أنت الذي تنسى، بطرقة لا إرادية بطبيعة الحال، لمن أنتمي أنا، لمن هي إرميليندا رويت إي رويت.

– إن كان هكذا...

– نعم، هكذا هو وتلفظ بهذه الكلمات بتلك النبرة التي لا تترك مكاناً للشك...

– إذاً حينئذ... حينئذ... قلِ لابنة أخيك بأنني أقبل شروحها، وأشكرها من أعماقي، سوف أستمر صديقاً لها، صديق مخلص ونبيل، ولكن فقط صديق، آه؟ لا شيء أكثر من صديق فقط صديق... ولا تقولي لها بأنني لست جهاز بيانو الذي يمكن العزف عليه حسب هواها، وإنني لست رجلاً معاصراً أتركك لحظة وبعدها أقبلك، ولست البديل ولا نائب الخطيب، أنا لست طبقاً للمائدة الثانية...

– لا تمجد نفسك هكذا!

– لا، أنا لا أمجد نفسي! إذاً حسناً، سأستمر صديقاً لها...

– وهل ستقدم قريباً لزيارتنا؟

– ذلك...

– انظري وإذا المسكينة لم تثق بي، سوف تحسه...

– إنني أفكر في القيام برحلة طويلة وبعيدة...

– قبل توديعها...

– حسناً... سنرى...

افترقا وعندما وصلت السيدة إرميليندا إلى المنزل، وحكت لأبنة أخيها الحوار الذي دار مع السيد أوغوسطو، قالت إوخينيا. «هنا توجد أخرى، لا شك في ذلك، الآن أعلم أنني استردته».

أوغوسطو من جهته، حين انفرد بنفسه، قام بالتجول عبر غرفته مخاطباً نفسه «تريد أن تلعب معي، كما لو كنت جهاز بيانو... تتركني، تقبلني،

وستعود لتتركني... أنا كنت في الاحتياط... لتقل ما تشاء، تذهب باحثة لأعود إلى طلبها، ربما لتنتقم، وحتى تثير الغيرة في نفس الآخر ويعود عن قراره... كما لو كنت دمية، مخلوق ليس له أحد... وأنا لي مزاجي، يا عجباً إنه موجود، أنا هو أنا! نعم، أنا هو أنا! أنا هو أنا! ينبغي أن أقوله لها لإوخينيا، كيف أنفيه؟

ذلك الذي أيقظ في نفسي القابلية الغرامية، ولكن بمجرد أن أيقظتني أثارت لدي عدم الرغبة فيها، وفي الأخير هن نساء»

وحين وصل إلى هذا لم يستطع على الأقل الابتسامة، وأنه تذكر تلك الجملة لفيكتور حين أخبرهما خيرباسيو، الذي تزوج قريباً، وأنه سيذهب مع زوجته في رحلة إلى باريس لقضاء فترة قصيرة، قال له: «إلى باريس ومع زوجته؟ إنه كمن يذهب مع سمك القد إلى اسكتلندا»! وهو ما أنعم كثيرا أوغوسطو.

واستمر يقول له: «وفي الأخير هن نساء، و يا لها من إمرأة خبيثة! الخبث البريء من روساريو، هذه طبعة جديدة لحواء السرمدية! يا لها من فتاة فاتنة! إنها إوخينيا. لقد أنزلتني من مجرد إلى حسي، ولكنها هي التي أوصلتني إلى الإحساس بجنسي، وثمة نساء كثيرات شهيات. كثيرات... كثيرات إوخينيا كثيرات روساريو! لا، لا، معي لا يلعب أحد، وخصوصا المرأة. أنا هو أنا! نفسي ستكون صغيرة، ولكنها ملكي !». والإحساس بهذا الإطراء بالأنا كما هو خارج عن التفخيم، التفخيم، والبيت أصبح ضيقاً بالنسبة إليه، فخرج إلى الشارع ليشعر بفساحة مجرد أن نزل إلى الشارع والتقى مع السماء فوق رأسه والناس يقطعونه ذهاباً وإياباً، كل إلى حاجته أو إلى رغبته، دون أن يهتموا به، دون إرادة طبعاً، ولا أحسوا به لعدم معرفتهم به، دون شك، أحس بأناه، تلك أنا التي «أنا هو أنا!» بدأت تصغر، وتقهقر داخل جسمه بضبط، باحثاً عن موقع صغير يقبع فيه حتى لا يُرى. كان في الشارع كمصور سينمائي، وأحس بأنه سينمائي، سحابة، شبح. وهو كالحمامة مكتظ دائما بكثرة الأعداء البشرية، الضائع وسط عامة الرجال الذين يذهبون ويعودون

دون أن يتعرفوا عليه، أو يبالون به، وهو ما أنتج عنه آثار عميقة نفسها للحمام في الطبيعة المفتوحة على السماء المفتوحة، وزهرة الرياح.

كان يحس وحيداً في عزلته: وحيداً في عزلته، ويمكن القول هكذا هو نفسه، ربما ليقنع نفسه: «أنا هو أنا!». أما الآخرين متموقعين وسط الحشد البشري المنجذب أو المنصرف، لم يكن يحس نفس الإحساس.

هكذا وصل إلى تلك الحديقة الصغيرة المحجوبة والوحيدة والمنعزلة في الحي الذي يسكنه. كانت الساحة عبارة عن ركود هادئة حيث كان يلعب فيها بعض الأطفال، إذ لم تكن تمر من هناك الحافلات، بل وحتى السيارات نادراً ما كانت تمر، ويذهب إليها بعض الشيوخ للاستجمام في الأمسيات الحلوة من فصل الخريف، حينما كانت تعيش الأوراق الإثنى عشر لشجر القسطل الهندي الذي كانت تحيا بها محبوسة بعد أن اهتزت نحو السماء بسبب الرياح الشمالية، لتحط على الرصيف أو تغطي الكراسي ذات الأدراج الخشبية المصبوغة دائماً باللون الأخضر، لون ورقة الأشجار الطرية. تلك الأشجار الأليفة، المؤنسة المضبوطة في شكلها، وكانت تسقى في ساعات معينة، حين لا تمطر السماء بواسطة ساقية والتي تمتد جذورها تحت رصيف الساحة. تلك الأشجار الأسيرة التي تنتظر الخروج وتتموضع تحت الشمس لتردف بظلها سطوح المنازل. تلك الأشجار الأسيرة، والتي تشتاق أحياناً إلى الغابة البعيدة، يقذفون بها بشكل غريب. وفي رؤوسها تغني بعض الطيور المؤنسة كذلك، من أولئك الذين يتعلمون كيف يفرون من الأطفال وأحياناً يقتربون من الشيوخ الذين يقدمون لهم بعض لبوب الخبز.

لمرات عديدة جَالس ومنفرد على أحد تلك الكراسي الخضراء بتلك الساحة الصغيرة، رأى حريق الغروب فوق سطح ومرة بروز فوق ذهب النار الرائع لتورد الغيوم المحيطة بقط أسود فوق مدفئة أحد المنازل! وبالضبط في فصل الخريف، حيث تتساقط الأوراق الصفراء، أوراق عريضة كأوراق الكرم، على شكل الأيادي المحنطة، المصفحة، في الحدائق الصغيرة وسط وعلى ممراتها وأحص الورود. وكان الأطفال يلعبون بين الأوراق اليابسة، يلعبون وربما في التقاطها، دون أن يثيرهم حريق الغروب.

عندما حل ذلك اليوم بالركن الهادئ وجلس فوق الكرسي ليس قبل أن ينتزع عن المقعد الأوراق اليابسة التي تغمره -إذ كان الفصل خريفاً- كان بعض الصبية يلعبون كعادتهم بالقرب منه. وواحد منهم وضع صديقه إلى جانب جذع شجرة القسطل الهندي، قريب منه جداً، وقال له: «أنت كنت هناك أسيراً، فقد احتجزك بعض اللصوص...». «هو أنني...» وشرع الآخر سائماً، والأول علق عليه: «لا، أنت لا لم تكن أنت...» أوغوسطو حاول أن يسمع أكثر، قام وذهب إلى مقعد آخر. وقال في نفسه: «هكذا نلعب كذلك نحن الكبار. أنت لم تكن أنت! أنا لا لست أنا! وهذه الأشجار المسكينة هي ذاتها؟ تتساقط أوراقها قبل أن تتعرض أخواتها في الجبل بكثير، ويبقى منها الهيكل، وهذه الهياكل تختلط بظلالها المتقطع على الأرصفة

مع اللمعان المنعكس من الأضواء الكهربائية. شجرة منيرة بالضوء الكهربائي! يا للغرابة، يا لروعة المظهر ذلك المتعلق بأعلى الشجرة في فصل الربيع عندما يمنح القوس الكهربائي ذلك المظهر المعدني! وهنا حيث النسيم لا يهزها!... مساكين تلك الأشجار التي لا تستطيع التمتع بواحدة من هذه الليالي السوداء للحقول، بدون القمر بعباءته من النجوم النابضة! يبدو أن الذي غرس كل شجرة من هذه الأشجار في هذا المكان قال لهم الرجل: «أنت لم تكن أنت!» وحتى لا ينسوا ذلك، فقد منحوه هذه الأنوار الليلية عبر الضوء الكهربائي... حتى لا ينامون. مساكين الأشجار الساهرة! لا، لا معي لا يمكن اللعب كما هو الشأن معكم».

قام وبدأ يجري عبر الشوارع كأحد المتربصين.

XX

سأقدم على السفر نعم أم لا؟ فقد كنت أخبرت به، أولاً روساريو، دون أن أعرف إن كنت قد قلت شيء، أو أكثر من ذلك حجة لأسألها إن كانت ستصحبني فيه، وبعدئذ إلى السيدة إرميليندا لاختبارها... ماذا؟ ما الذي تعنيه باختبارها إن كانت ستقدم على السفر؟ وهو أمر مضى! كان أكثر من حالة أطلقتها مرتين كدليل على ما قلت عن مبادرة السفر الطويل والبعيد، وأنه كان رجلاً مزاجياً، إنه كان هو، وهل كان عليه أن يكون إنساناً صادقاً في وعده؟.

الرجال الصادقون في وعدهم يقولون أولاً شيئاً، وبعد ذلك يفكرون، وأخيراً ينفذونه سواء أكانت نتيجته حسنة أو سيئة بعد التفكير فيه، الرجال الصادقون في وعدهم لا يستدركون ولا يتراجعون إلى الخلف عما قالوه أول مرة. وهو قال بأنه سيقوم برحلة طويلة وبعيدة.
سفر طويل وبعيد! لماذا؟ وكيف؟ وإلى أين؟

- أشعر بأن هناك آنسة ترغب في لقائه.
- آنسة؟
- نعم، -قالت ليدوبينا- أظن أنها هي التي... عازفة البيانو!
- إوخينيا!
- هي نفسها.

بقي حائراً كالبرق الذي سبب له دواراً في عقله، فراودته فكرة طردها، بأن يقولوا لها بأنه غير موجود بالبيت. «جاءت لتستردني، واللعب معي كما لو كنت دمية -كما قالت- تهيئني للعب لتستبدلني بالآخر...» بعدئذ

فكرت جيداً. «لا، يجب أن أبين لها أني قوي!»
– قولي لها بأنني سأذهب الآن.
كان منذهلاً من جرأة تلك المرأة «يجب الاعتراف بأنها امرأة كاملة، وأنها خراج متكامل، يا لها من جسارة! يا له من حل! يا لها من عيون! ولكن، لا،لا، لا لن أخضع! لن تستردني!».

حين دخل أوغوسطو القاعة كانت إوخينيا واقفة في استقباله. وأشار عليها بالجلوس هناك، وقبل أن تفعل ذلك صاحت:
– السيد أوغوسطو لقد خدعوك كما خدعوني أنا كذلك!

مع الشعور الذي أحس به الرجل المسكين الأعزل وبدون أن يعرف ماذا يقول.
– السيد أوغوسطو، لقد خدعوك وفيما يتعلق بي وأنا خدعوني فيما يتعلق بسيادتك، هذا كل ما في الأمر
– ولكن إذا كنا قد تحدثنا أنا وأنت، إوخينيا!
– لا تبالي بما سبق أن قلته لك. الماضي قد ولى!
– نعم، الماضي دائما قد ولى ولن يستطيع أن يكون غير ذلك.
– تفهمني، وأنا لا أريد أن تعطي مدلولا آخر لقبولي هبتك أكثر مما يستحق
– وكما أرغب، آنستي، أن لا تعطي لهبتي مفهوماً آخر أكثر مما هي عليه
– هكذا وفاء بوفاء. والآن، يجب أن نتكلم بوضوح، لقد قلت لك، بأنه بعد كل ما مضى، ومع كل ما قلته، لا أستطيع رغم رغبتي، الإدعاء على مكافأتك مقابل سخائك النبيل إلا أن أتقدم إليك بتشكراتي العميقة، من جهتك أظن ذلك...
– فعلاً، آنستي، من جهتي، أنا، بعد كل مل مضى والذي عبرت عنه في لقائنا الأخير، والذي حكته لي عمتك، وعن الذي حدث لا أستطيع، وإن كنت أرغب في ذلك أن تجرح كرامتي...
– هل نحن إذاً متفقون؟

- تماماً، آنستي.
- وهكذا، فهل سنعود أصدقاء، أصدقاء طيبون، أصدقاء حقيقيون؟
- يمكننا.

مدت له إوخينيا يدها الرقيقة، البيضاء والباردة كالثلج، بأناملها العظمية المهيأة للضرب على الآلة الكاتبة، وشد عليها بيده التي كانت ترتعش لحظتها سنكون أصدقاء إذاً، سيد أوغوسطو، أصدقاء طيبون، وإن كانت هذه الصداقة ملكي...

- ماذا؟
- ربما أمام الناس...
- ماذا؟ تكلمي! تكلمي!
- لكن، في النهاية، وبعد تجارب مؤلمة حديثة، لقد تخليت تماماً عن بعض الأشياء...
- وضحي أكثر آنستي. لا يكفي التفوه عن الأشياء بدون هوادة.
- جيد، سيد أوغوسطو، الأشياء واضحة، واضحة جداً، أتظن أن الأمر سهل وبعد الذي فات ومعروف، وكما هو معروف بين معارفنا، على أنك قمت بفسخ الرهان الذي كان بذمتي تهديه لي هكذا، هل من السهل أن يكون هناك من يتوجه إلي بهذه المطالب؟

«هذه المرأة شيطانة!» فكر أوغوسطو، وانحنى برأسه إلى الأرض دون أن يعرف بماذا يجيب. عندها، مباشرة رفعها، رأى أن إوخينيا قد مسحت دمعة خفية.

- إوخينيا -صاحت بصوت مرتعش-.
- أوغوسطو -توشوس هامساً لها-
- ولكن، ماذا تريدين أن نفعل؟
- آه، إنه القدر، ليس أكثر من القدر، نحن لعبة له إنه سوء الحظ!
- ذهب أوغوسطو تاركاً أريكته، ليجلس على المتكأ، إلى جانب إوخينيا

- انظري إوخينيا، بربك، لا تلعبي هكذا معي! القدر كنت أنت هنا لا يوجد قدر أكثر منك، أنت التي كنت تجلبيني وتحمليني وتجعليني أدور مثل

غانديو، أنت التي جعلتني أحمق، أنت التي جعلتني محطم أهدافي الثابتة، كنت أنت التي جعلتني أن لا أكون أنا...

ووضع ذراعه على العنق، جلبها إليه، وضمها إلى حضنه، وهي بهدوء كامل نزعت قبعتها.

- نعم، أوغوسطو، إنه القدر من جلبنا إلى هذا. لا... لا أنت ولا أنا يمكننا أن نكون خائنين وغير أوفياء لبعضنا، لا أنت يمكنك إظهار حبك لاقتنائي، كما كنت أنا في فترة من الانبهار تركتك، لا أنا يمكنني إظهار نيتي في أن أجعل منك بديلاً، نائباً، صحناً للمائدة الثانية، كما قلت لعمتي، وبرغبتي في مكافأتك على حسن سخائك...

- ولكن، وماذا يهمنا، إوخينيا حبيبتي، أن نظهر بشكل أو بآخر؟ وماذا عن العيون؟

- بالنسبة لنا نحن؟

- وماذا، إوخينيا حبيبتي؟

عاد إلى ضمها ثانية، وانطلق في تقبيلها من الجبهة إلى العينين وكان يسمع تنفسهما معاً.

- اتركني! اتركني! -قالتها وهي تسوي شعرها وتصففه-.

- لا، أنت... أنت... إوخينيا... أنت...

- لا، أنا لا، لا غير ممكن...

- ألأنك لا تحبني؟

- أم الحب... من يعرف معنى الحب؟ لا أعرف... لا أعرف... لست متأكداً من ذلك.

- وهذا إذاً؟

- هذا هو... قدر اللحظة! منتوج الندم... وما أدراني أنا... هذه الأشياء يجب إخضاعها للتجربة...! إضافة، على ماذا اتفقنا، أوغوسطو، بأن نكون أصدقاء طيبين، ليس أكثر من أصدقاء؟

- نعم، ولكن... ذلك المتعلق بتضحيتك؟ والخاص بالموافقة على هبتي، لأصبح صديقك، ليس أكثر من صديقتي، ولن يكون هناك من يتطلع

إليك؟

- آه، ذلك لا يهم! فلدي حل لذلك.
- حتى بعد القطيعة التي حصلت؟
- ربما...
- إوخينيا! إوخينيا!

في هذه اللحظة سمع من يطرق الباب، وأوغوسطو، المرتعش ووجهه ملتهب، صاح بصوت جاف:

- من بالباب؟
- إنها روساريو، التي تنتظر! قالت بصوت ليدوبينا.

تغير لون أوغوسطو، تحول إلى لون قاتم

- آه! -صاحت إوخينيا- هنا إزعاج إذاً. إنها... روساريو، التي تنتظرها. أترى كيف لا يمكن أن نكون أكثر من أصدقاء، الأصدقاء الطيبون، طيبون جداً؟
- ولكن إوخينيا...
- لتنتظر لا روساريو...
- وإذا رفضتني، إوخينيا، كما رفضتني سابقاً، وقلت بأنني كنت أرغب في شرائك وبصرامة لأنك كنت تملكين الآخر، ماذا كنت سأفعل عندما أراك قد تعلمت الحب؟ ربما لا تعلمين ما يعنيه الحقد، وما معنى العشق المذلل؟ كفى، أوغوسطو، هات تلك اليد، سنلتقي مرة أخرى، ولكن على اعتبار الماضي قد ولى
- لا، لا، الماضي، قد ولى، أظن لا! لا! لا!
- حسناً، حسناً، لتنتظر لا روساريو...
- بربك، إوخينيا...
- لا، ما الغرابة في ذلك، وأنا كذلك كان ينتظرني في فترة ما... مَوْريثيو. سوف نلتقي. وسنكوْن متزنين وأوفياء لأنفسنا

وضعت القبعة على رأسها، ومدت يدها لأوغوسطو الذي أخذها

ومررها على شفاهه وملأها بقبلاته، وخرج بصحبتها نحو الباب، نظر إليها لحظة وهي تنزل الدرج أنيقة رشيقة، وعند أسفل الدرج رفعت عيناها وحيته بالنظرة واليد.

عاد أوغوسطو، دخل إلى غرفته، وعند رؤيته لروساريو واقفة مع سلة المكواة، خاطبها بجفاء.

- ماذا هناك؟
- يبدو لي سيد أوغوسطو بأن تلك المرأة تخادعك...
- وما الذي يهمك أنت؟
- يهمني كل شيء فيك
- تريدين أن تقولي بأنني أخادعك...
- ذلك هو الذي لا يهمني
- ستجعلني أعتقد أنه بعد كل هذه الآمال التي وفرتها لك تدركين أنك غير غيورة؟
- لو تعرف سيد أوغوسطو، كيف نشأت وفي أي أسرة، ستعرف رغم كوني فتاة صغيرة، فأنا أوجد خارج نطاق الغيرة.
- نحن اللواتي في مركزي
- اخرسي!
- كما تريد، ولكني أكرر بأن تلك المرأة تخادعك. وإن لم يكن هكذا وإذا كنت تحبها وذلك هو ذوقك، ما الذي أرغب فيه أكثر من أن تتزوجها؟
- ولكن أتقولين كل هذا حقيقة
- نعم حقيقة
- كم عمرها؟
- 19 سنة.
- تعال إلى هنا -حملها بين يديه الاثنين من تحت إبطها وجعلها وجهاً لوجه وبقي ينظر إلى عيونها-

وكان أوغوسطو هو من تغير لونه وليس هي.

- حقيقة إنها فتاة صغيرة...
- أظن ذلك

– أنا لا أدري ما هذا. براءة، مكر، سخرية، عناية إلاهية...
– هذا ليس أكثر من عاطفة
– عاطفة؟ ولماذا!
– تريد أن تعرف لماذا؟
– ألا تحس بالحرج إذا صرحت لك بذلك؟
– أتعدني بأن لا تشعر بالحرج؟
– هيا قولي ذلك
– إذا، طيب، لأن... لأن.. لأنه رجل تعيس، رجل مسكين...
– وأنت كذلك؟
– كما تريد، ولكن ثق بهذه الفتاة الصغيرة: ثق ب... روساريو الأكثر وفاء لك!
– أيكون هذا دائماً؟
– دائماً!
– ليكن ما يكن.
– نعم، يكن ما يكن.
– أنت، أنت هي الحقيقة... –وقام ليضمها إليه–
– لا، الآن، لا، عندما تكون أكثر هدوءاً. وعندما لا...
– كفى، أفهمك
وتوادعا.

وحين بقي وحيداً، قال أوغوسطو: «بين الواحدة والأخرى سيحولونني إلى مجنون يجب وثاقه... أنا لم أعد أنا...»

– يبدو لي بأن الشاب كان عليه أن يتعاطى للسياسة أو شيء على منوالها –قالته ليدوبينا عندما كانت تقدم له الطعام–. ذلك سيشغله.
– وكيف حدث لك هذا؟
– لأن ذلك أفضل ليتسلى الواحد على دومينغو، ريثما انتهي من الأكل، وقولي له بأنني أريد مبارزته في مباره لعب ورق التوتي... لأتسلى بها. وأثناء اللعب ترك أوغوسطو ورقة اللعب على الطاولة بسرعة وتوجه بالسؤال:

- قل لي دومينغو، عندما يكون الرجل مغرماً بامرأتين أو أكثر من امرأة واحدة، ماذا عليه أن يفعل؟
- حسب الإقناع!
- كيف حسب الإقناع؟
- نعم، إذا كان لديه مال كثير، وشجاعة أقوى، يتزوجهن جميعاً، وإلا أن يتزوج بأية واحدة منهن في حالة انعدام الشرطين
- ولكن يا رجل، أولا ذلك غير ممكن!
- في حالة وجود المال الكثير كل شيء ممكن!
- وإذا هن علمن بذلك فما العمل؟
- إذاً ألا يهمهن، الرجل الذي تريد أن تجلبه امرأة أخرى وتحاول أن تنزع منه عاطفة زوجه؟
- تقتنع بنصيبها، يا ابن السيد، إذا لم تضع له سقفاً مالياً مما ينفقه. إن الذي يزعج المرأة هي أن زوجها عليه أن يخصص لها حصتها من الأكل والملبس، وكل ما يتعلق بذلك، وهكذا ما يتعلق بالترف، ولكن إذا تركتها تتصرف كما تهوى... الآن، وإذا كان لها أبناء منه...
- وإذا كان لها أبناء منه، ماذا يعني؟
- إن الغيرة الحقيقية تأتي من هناك، سيدي، من الأولاد
- إنها الأم التي لا تتسامح مع أم أخرى، أو يمكن أن تحل مكانها، وتتقلص نفقات أبنائها لأجل الأبناء الآخرين من أم أخرى. ولكن إذا لم يكن لها أبناء فسوف لن تكلفك ضريبة المأكل والملبس والعظمة والتباهي، كفى! إلى حد أن يتكاثر عليك الكدر... وإذا لم تكن زوجة تكلفك زوجة أكثر من زوجة أخرى إضافية لا تكلفك شيئاً، فإن التي تكلفك ربما تحس بالغيرة من التي لا تكلف شيئاً، إضافة على عدم تكلفتها، وفوق ذلك تنتج والأخرى تستفيد. إذاً...
- ماذا إذاً؟
- كل شيء يتم طلبه عبر الفم، صدقني سيدي، ليس هناك رقابة...
- ولا أنفة؟
- ممكن...!
- ولكن أية أشياء تقول...

– إذ أنه قبل أن أتزوج ليدوبينا، وجئت للخدمة في بيت سيادتكم لقد سبق أن كنت أشتغل في بيوتات كثيرة أخرى لسادة عظام... لقد نمت أسناني بها...

– ومن صنفك؟

– في صنفنا؟ كفى! نحن لا نسمح لأنفسنا ببعض التناهي

– وما هي الأبهات في نظرك؟

– لهذه الأشياء التي تشاهد في الساحة وتقرأ في الروايات...

– إذاً يا رجل، قليل هم أولئك الذين يرتكبون الجرائم باسم العاطفة يكون سببها الغيرة، التي تراها في طبقتك!

– كفى! هذا لأنهم... قليلو الحياء أولائك الذين يذهبون إلى المسرح ويقرأون الروايات، وإلا...

– إذاً لا... كيف؟

– لأننا جميعاً، نحبذ، يا سيدي، أن نقوم بالدور، ولا أحد هو بذاته، وإلا يفعل ما يقوم به الآخرون.

– أنت فيلسوف...

– هكذا كان يسميني السيد الأخير الذي كنت أشتغل عنده أخيراً.

– لكني أظن أن ما قلته لي عزيزتي ليدوبينا بأن يجب أن تتعاطى للسياسة.

XXI

– نعم أنت على صواب –قالها سيد أنطونيو لأوغوسطو ذلك المساء، في النادي، وهم يتحدثون على انفراد في أحد الأركان الجانبية– أنت على صواب؛ ثمة سر مؤلم، مؤلم جداً، في حياتي. خمنت في شيء. مرات قليلة قمت بزيارة إلى منزلي الفقير... منزلك؟ ولكن...

– نعم، شيء غريب، أنا لا أعرف أي حزن عائم كان يجلبني إليه...

– بالرغم من أبنائي، أبنائي الفقراء، فسيادتك يمكن أن يبدو لك البيت دون أطفال وربما دون أزواج...

– لا أدري... لا أدري...

– جئنا من بعيد، من بعيد جداً، هرباً، ولكن ثمة أشياء تصاحب الواحد دائماً، تحيط به وتعاوده كالدائرة الغريبة، مسكينة زوجتي...

– نعم، يبدو ذلك على محيا زوجتك، إنه مسار حياة ال...

– من العذاب، قلها. طيب إذا صديقي السيد أوغوسطو، لقد كنت، لا أدري جيداً لماذا، بسبب ظرافة خفتك، ذات التأثير الكبير، وأكثر تفهماً الذي ربما أوضحته لنا، وأنا حتى أتصور ذلك مرة أخرى على أن أتحرر من ثقل، تكلفت به لسوء حظي. تلك المرأة هي أم أولادي، ليست زوجتي

– كنت أظن ذلك، لكن إذا كانت هي أم لأبنائك، والتي تعيش معك وكأنها زوجتك، الأمر كذلك.

– لا، أنا متزوج من امرأة أخرى... شرعية، حسب المعمول به.

– أنا متزوج، ولكن ليس مع التي تعرفها. وهذه هي أم أولادي وهي متزوجة كذلك، ولكن ليس معي.

– آه، زوجتان.

– لا، انه رباعي العدد، كما سترى، أنا تزوجت عن جنون، ولكنه

جنون الغرام تماماً، بزوجة صغيرة محافظة وصموتة، وكانت تتكلم قليلاً، وكان يبدو عليها أنها تريد أن تقول شيئاً أكثر مما قالت، بعيونها الزرقاوين الحلوتين.

حلوة، حلوة، والتي تبدوان نائمتين، وتستيقظان فقط في المساء، وكان ذلك لأجل إطلاق شرارة النار. وكانت كلها هكذا. قلبها، روحها كاملة، كل جسمها. كل هذا يبدو نائماً كالعادة، وتستيقظ بسرعة وكأنها في حالة فزع، لتعود مرة أخرى إلى النوم بسرعة كبرق الحياة وأية حياة هي!، وبعد ذلك كأن شيئاً لم يقع، وكأنها نسيت كل ما حدث.

وكانت كما لو كنا دائماً نجدد الحياة. كما لو كان الأمر لصد هجوم متتابع. لقد قبلتني خطيباً لها وكأنه هجوم على مصروع وأظن أنه في هجوم آخر وافقت على أن تتزوجني. و لم أستطع أبداً أن أحصل منها على محبتها لي أم لا. كثيرا ما سألتها قبل وبعد زواجنا، وكانت ترد دائماً: «ذلك لا يسأل عنه، انه بلادة» وأحياناً أخرى كانت تقول بأن فعل أحب لم يعد يستعمل إلا في المسرح والكتب. ولو قدر لي أن كتبت أحبك! لكانت قد ودعتني منذ البداية.

نعيش سنتين متزوجين بطريقة عجيبة، وفي كل يوم أعيد الهجوم على أبي الهول. لم يكن لنا أولاد. في إحدى الأيام غابت عن البيت بالليل، وأصبحت كالمجنون، أبحث عنها في كل اتجاه، وفي اليوم التالي، عرفت من خلال رسالة جافة ومختصرة بأنها ذهبت بعيداً، بعيداً جداً مع رجل آخر.

– وأنت لم تشك فيها من قبل، و لم تتصوره؟

– أبداً! زوجتي كانت تخرج من البيت مرات متكررة إلى منزل أمها، ولبعض صديقاتها، وبغرابتها الباردة كانت تدافع عن نفسها أمامي ضد أي حالات للشك! ولا خمنت تماماً في ذلك الهرم! الرجل الذي هربت معه كان متزوجاً، و لم يترك زوجته وابنته الصغيرة فقط ليذهب مع زوجتي، وإنما حمل معه كنز زوجته كله، والذي كان متوسطاً، وكان الأمر طبيعياً بعد أن سيرها حسب رغبته. بمعنى أنه لم يترك زوجته، وإنما دمرها بسرقتها.

وفي تلك الرسالة الجافة والمختصرة والباردة التي توصلت بها تشير فيها إلى الحالة النفسية التي كانت عليها المرأة المسكينة زوجة المختطف لزوجتي مُخْتَطف أو مُخْتَطَفٌ... لا أعلم! في بعض الأيام لم أنم و لم آكل و لم أسترح، و لم أقَم سوى بالمشي في الأماكن المنعزلة بأحياء مدينتي. وكنت على وشك الوقوع في الرذائل الأكثر دناءة والأكثر حقارة. وبعدما بدأت أسترد قوتي وأتغلب على الألم اهتديت إلى تفكيري، تذكرت تلك الضحية المسكينة، تلك المرأة التي بقيت بدون حماية، سرق حبيبها وكنزها. تولد لدي إحساس بأزمة الضمير لأن زوجتي كانت السبب في خسارتها، فذهبت لأقدم لها مساعدتي المادية التي رزقني بها الله في الماضي.

– خمنت في الباقي سيد أنطونيو.

– لا يهم، ذهبت لرأيتها .تخيلت عن ذلك اللقاء الأول. بكينا نحن معاً طرق كربنا، والذي كان كرباً شاملاً. أنا قلت لها «ألأجل زوجتي ترك ذلك الرجل زوجته؟» وأحسست لماذا كان علي ألا أطلعها على الحقيقة؟ يكفي الرضا الودي، أمر غامض، كأنه كان معروفاً أن اختياري كان أحسن من اختياره، وهو إقرار منه وهي، زوجته عكست ذلك بشكل مشابه. وان كانت رأساً على عقب، حسب ما أخبرتني به من بعد. منحتها مساعدتي المادية، من ثروتي لسد حاجتها، وبدأت ترفض هذه المساعدة «سأشتغل لأعيش وأحتفظ بابنتي» هذا ما قالته لي ولكني ألححت عليها! إلحاحاً إلى أن قبلتها. طرحت عليها أن تصبح ربة منزل، وتأتي لتعيش معي، طبعاً لأننا غرباء عن الوطن وجئنا من بعيد، وبعد تفكير كثير وافقت على ذلك.

طبعاً، أصبحتم تعيشون معاً...

لا، بل تأخر، تأخر قليلاً. كانت الحاجة إلى التعايش، من جهة الإحساس بالانتقام، والحقد، وماذا أعرف أنا... فتنت ولكن ليس بها وإنما بابنتها، التعسة إبنة عاشق زوجتي، منحتها حب الأب، الحب الأبوي العنيف. كما أحس به نحوها حالياً، إذاً أنا أحبها كثيراً، كثيراً ، ربما أكثر من أولادي الحقيقيين. كنت أحملها بين ذراعي، وأضمها إلى صدري ألفها بقبلاتي، وكانت تبكي، وأبكي لأجلها. والبنت المسكينة خاطبتني «لماذا تبكي يا أبي؟» لقد جعلتها تناديني هكذا وعلى الأقل حتى تملكني.

وأمها المسكينة كانت عندما تراني أبكي هكذا، كانت هي الأخرى كذلك، وأحياناً تمسح دموعنا بالشعر الأشقر لابنة عاشق زوجتي لسارق سعادتي.

«ذات يوم علمت -تابع- أن زوجتي رزقت بولد من عاشقها، ذلك اليوم أغاظني كثيراً تألمت كما لم أتألم من قبله أبداً واعتقدت كأنني سأصاب بالحمق، وأن حياتي تنتزع مني. الغيرة الأكثر فظاظة والتي لم أحس بها إلا في حينه. الجرح النفسي الذي بدا لي جرحاً عميقاً، انفتح وسال دماً... أدامني ناراً! لقد عشت أكثر من سنتين مع زوجتي، مع زوجتي الحقيقية ولا شيء! ولان ذلك اللص...!

تخيلت على أن زوجتي قد استفاقت تماماً، وأنها تعيش في جذوة خالصة. الأخرى التي تعيش معي، عرفت شيئاً وسألتني: «ما الذي حصل لك؟» لقد تعودنا أن نتحاور دون تكليف، لأجل البنت، «اتركني» قلت لها، فاعترفت لها بكل شيء، وبمجرد سماعها ذلك بدأت ترتعش. واعتقدت أنني عاديتها بغيرتي الهائجة

- طبعاً، بعد ذلك...

- لا، جاء شيئاً آخر من بعد وعن طريق آخر. وكان يوماً أن كنا معاً والبنت التي كانت تجلس على ركبتي وأحكي لها حكايات وأقبلها، وأروي لها بعض الحماقات، اقتربت أمها وبدأت تداعبها كذلك. وحينئذ وضعت المسكينة يدها الصغيرة على كتفي، والأخرى على كتف أمها، وقالت لنا: «أبتي... أماه... لماذا لا تنجبان لي أخاً صغيراً ليلعب معي، كما هو شأن البنات الأخريات، وأن لا أبقى وحيدة...؟» تغير لوننا، وبدأنا ننظر إلى عيون بعضنا نظرات تعري النفس، رأينا ذلك العراء، وحتى لا نخجل قمنا بتقبيل البنت، وبعض هذه القبل غيرت وجهتها. وفي تلك الليلة بين الدموع وهيجان الغيرة، بدأنا في نسل أول أخ صغير لبنت اللص الذي سرق سعادتي.
يا لها من حياة غريبة!

وذهب حبنا، هكذا تريد أن تسميه، حبنا الجاف والصامت، المنبثق من النار والغضب، دون كلمات الحنان. زوجتي، أم أبنائي أريد أن أقول هذه

وليست الأخرى هي زوجتي، زوجتي لأنها كما ترى، زوجة مليحة وأحياناً رائعة. ولكن بالنسبة لي لم تلهمني حماسة الرغبات، هذا رغم التعايش. وإن كان بعد ما انتهينا مما كنا نقول تظاهرت بأن لا أكون مبالغاً في حبها، حتى أقتنع بعكس ذلك. وفي إحدى المرات وبعد ولادتها للابن الرابع، أحسست بالسوء، وضع سيء اعتقدت معه أنني سأفتقدها. فقد فقدت أكثر دماء شرايينها، وأصبحت كشمعة بيضاء، وأغمضت جفنيها... ظننت أنني خسرتها. وأصبحت كالأحمق أبيض أنا كذلك كالشمعة، تجمد الدم في عروقي. وانزويت في ركن ببيتي، حيث لا يراني أحد، وجثوت وطلبت من الله أن يأخذ روحي قبل أن تموت تلك المرأة القديسة. وبكيت وقرصت وخدشت صدري حتى سالت الدماء. وفهمت ما أقوى على قلبي ذلك الرباط الذي تقيد به مع قلب أم أبنائي. وعندما ارتاحت هذه الأخيرة بعض الشيء، واستعادت وعيها، وخرجت من حالة الخطر، اقتربت إليها بفمي نحو أذنها، إن ابتسمت لها الحياة من جديد فوق سريرها، وقلت لها ما لم أقله لها أبداً و لم أعد إليه، بنفس الطريقة في الكلام. وهي تبتسم، تبتسم، تبتسم وهي تنظر إلى السقف. ووضعت فمي على فمها وارتبطت مع ذراعيها العاريتين حتى العنق، وانتهيت من بكاء عيوني فوق عيونها، وقالت لي: «شكراً أنطونيو شكراً، لأجلي ولأجل أبنائنا، لأجل أبنائنا كلهم... كلهم... لأجلها هي، لأجل ريتا» ريتا هي ابنتنا البكر، ابنة ذلك السائق...؛ لا، لا، إنها أبنتنا، إنها إبنتي. إن ابنة السائق هي الأخرى، إنها لتلك التي كانت تسمي زوجتي في فترة من الزمن. هل عرفت الآن كل شيء؟

- نعم، وأكثر سيد أنطونيو

- أأكثر من ذلك؟

- أكثر، نعم! على أساس أن تملك زوجتين، سيد أنطونيو.

- لا، لا، ليس لي إلا واحدة، واحدة فقط، أم أبنائي. الأخرى ليست زوجتي، لا أعلم إن الأب هو والد البنت.

- وذلك الحزن...

- القانون حزين دائماً، سيد أوغوسطو، وهو أكثر حزناً الحب الذي يولد وينمو فوق مقبرة الآخر وكأنه نبتة تتغذى، مثل الدبال، من عفونة النبتة الأخرى. جرائم غير مكترث بها جمعتنا، وهل زواجنا ربما هو جريمة؟ هم

كسروا ما لا يجب تكسيره؛ لماذا لم نقم نحن بربط الأطراف المتبقية؟

- ولم لم يعودوا إلى الصواب...؟

- لم نرد العودة إلى الصواب. وخصوصاً أن ابنتنا ريتا أصبحت امرأة صغيرة؛ فاليوم الأفضل عندنا هو عندما تتزوج... حاملة إسمي، طبعاً، ويفعل القانون بعد ذلك ما يريده. إنها ابنتي وليست ابنة السائق: أنا الذي قمت بتربيتها ورعيتها.

XXII

- حسناً، وماذا؟ -سأل أوغوسطو بيكطور- كيف استقبلتم ذلك الدخيل؟

- آه! ما كنت أبداً لأصدق ذلك! وحتى قبل أن يولد بيوم كان تأثرنا كبيراً. وبينما هو يصارع ليأتي إلى الوجود، لا تعرف جيداً الشتائم التي قذفتني بها عزيزتي إلينا. «أنت، أنت من يتحمل المسؤولية، أنت!» كانت تخاطبني. وأحياناً أخرى: «ابتعد من أمامي، ابتعد عن عيوني! ألا تخجل من وجودك هنا؟ وإذا مت، فستكون أنت المسؤول» ومرات أخرى: «هذه وليس أكثر، هذه وليس أكثر!» ولكنه ولد، وبعدها كل شيء قد تغير. بدا ذلك وكأننا استيقظنا من حلم وكأننا على وشك الزواج. وأصبحت أعمى، هكذا أعمى؛ ذلك المولود أعماني، شبه أعمى أنا، والكل يقول بأن عزيزتي إلينا بقيت مع حملها وولادتها مشوهة، ولم يبق فيها إلا الهيكل العظمي، وأنها تقدمت في السن بعشر سنوات على الأقل، ولكنها تبدو لي أكثر رشاقة، أكثر نضارة، أكثر شباباً لدرجة أنها أكثر بدانة من قبل.

- هذا يذكرني فيكتور بأسطورة بائع الشهب الاصطناعية، كنت قد سمعتها في البرتغال.

- هيا تفضل

- أنت تعرف أنه في البرتغال ما يعرف بالشهب الاصطناعية الصاروخية، إنه حقيقة فن جميل. وكل من لم يشاهد الشهب الاصطناعية في البرتغال لا يعرف كل ما يمكن أن يفعله مع ذلك. وما هذه الكشوفات، يا إلاهي!

- لكن هاتي الأسطورة.

- إلى هناك ذاهب. إذاً، الأمر هو أنه كان بقرية برتغالية بائع الألعاب

النارية أو الشهب الاصطناعية، كانت له زوجة جميلة جداً، هي مواساته، سحره وكبرياؤه. كان يحبها لدرجة الجنون، ولكن كان أكثر كبرياء. يتباهى بها أمام الآخرين، هكذا يقولون لباقي البشر الفاني، وكان يتجول معها ويقول لهم: «أترون هذه المرأة؟»، «هل أعجبتكم؟ نعم، آه؟ إنها ملكي، ملكي وحدي! وكان يزعجهم بذلك!» لم يكن يهتم سوى بمدح الجمال الرائع لزوجته، لدرجة أنه كان يزعم بأنها ملهمته في إنتاج أجمل الشهب الاصطناعية الصاروخية، آلهة فنونه. وذات مرة، وهو يصنع إحدى هذه الشهب، وكعادته كانت تجلس إلى جانبه زوجته لتلهمه، اندلعت النار من البارود، فكان الانفجار، وعليهم أن يخرجوا الزوج وزوجته وقد أغميا عليهما وبحروق خطيرة جداً. لقد أحرق الجزء الجميل من وجه وصدر الزوجة، لدرجة أنها أصبحت مشوهة بشكل فظيع، ولكن بائع الشهب الاصطناعية كان من حسن حظه أن أصبح أعمى حتى لا يرى الصورة المشوهة لزوجته. وبعد ذلك استمر كبرياؤه بزوجته وإطراؤها أمام الجميع وهو يسير إلى جانبها وقد تحولت الآن إلى دليلته، بنفس المظهر والقامة بعجرفته متحديا أكثر من السابق. «هل رأيتم أجمل امرأة؟»، كان يتساءل وكل الذين يعرفون حياته، كانوا يشفقون على المسكين بائع الشهب الاصطناعية ويمدحون جمال زوجته.

– طيب، ألم تعد جميلة بالنسبة إليه؟

– ربما أكثر من قبل، كما هو الحال بالنسبة لك، فزوجتك بعد أن منحتك الدخيل.

– لا تسميه هكذا!

– ذلك أمر يتعلق بك

– نعم، ولكن لا أريد أن أسمعها للآخر.

– هذا يحدث كثيراً، نفس اللقب الذي ننعت به أحداً يصبح مشاعاً أكثر بطريقة أخرى عندما نسمعه للآخر.

– نعم، يقولون بأن لا أحد يعرف صورته...

– ولا وجهه أنا على الأقل أعرف عن نفسي أن أقول لك بأن إحدى الأشياء التي ترعبني أكثر هي بقائي انظر إلى المرآة. وحيداً، عندما لا يراني أحد. أكاد أشك في وجودي! لشخصي، وأتخيل نفسي كالآخر، أنا حلم،

كائن وهمي...

- إذاً لا تنظر إلى نفسك هكذا.

- لا أستطيع تعديله، مهووس بالاستبطان.

- إذن ستصبح كالعرافين الذين يقولون بأنهم يتأملون حتى السيرة الشخصية.

- وأظن لو أن الواحد لا يعرف صوته ولا وجهه، فإنه لن يعرف من سيكون، نفسه بالذات، وكأنه سيكون جزءاً منه...

- زوجتك، مثلاً.

- طبعاً: كنت أتصور أن ذلك سيكون مستحيلاً التعرف على تلك المرأة التي تتعايش معها، والتي أصبحت تشكل جزءاً منا. ألم تسمع ذلك الذي قاله أحد شعرائنا الكبار وهو كامبو أمور؟

- لا، ما هو؟

- إذ كان يقول بأنه عندما يتزوج الانسان، يرتبط بحب صادق، في البداية لا يستطيع أن يلمس جسم زوجته دون أن يغتاظ، وتشتعل بداخله الشهوة الجنسية، ولكن مع مرور الأيام، يعتاد على ذلك، يأتي اليوم الذي يتآخى فيه الجسد، فيصبح مس فخذ زوجته العاري كمس فخده، ولكن كذلك إذا ما حدث قطعه لزوجته فسوف يؤلمه وكأنه حدث لفخذه نفسه.

- وهكذا، في الحقيقة. لا تعرف كيف عانيت عند الولادة!

- لكن هي أكثر.

- من يدري!... والآن، كما هو أمر يتعلق بي، جزء من كياني، لم أبالي بما يقولون على أنها قد تغير شكلها وتشوهت.

- ولكن هل تعتقد بأن أحدهم لا يبالي بانه بدأ يهرم ويتشوه؟

- لا، رغم أنها قيلت. إذا كان الأمر مستمراً وبطيئاً. الأن، الأمر مفاجئاً قد يحدث للواحد شيئاً... ولكن ذلك الذي يحس بالشيخوخة، هيهات! ما يحس به الانسان هو شيخوخة الأشياء التي من حوله أو تشبيها. وذلك هو الأمر الوحيد الذي أحس به الآن بعدما أصبح لي طفل. لأنه كما تعلم ما تعود الآباء على قوله في إشارة إلى أبنائهم: «هؤلاء، هؤلاء هم من يجعلوننا شيوخا!». وأنت ترى طفلك يترعرع هو أكثر حلواً والأكثر رعباً في اعتقادي. لا تتزوج إذاً أوغوسطو، لا تتزوج، إن أردت أن تتمتع بروعة

- وماذا سأفعل إذا لم أتزوج؟ وأين سأقضي الوقت؟
- تتعاطى للفلسفة.
- لعل الزواج أفضل، ربما المدرسة الوحيدة للفلسفة؟
- لا، يا رجل، لا! إذاً ألم تركم وما أكثرهم الفلاسفة الكبار الذين كانوا عزاباً؟ أذكرهم الآن دون أولئك الذين كانوا قساوسة، عندك ديكارت، باسكال، سبينوزا، وكانط.
- لا تكلمني عن الفلاسفة العزاب!
- وعن سقراط ألا تتذكر كيف تخلص من جهته مع زوجته خانطيبا، في اليوم الذي كان سينتحر حتى لا تزعجه؟
- لا تكلمني عن ذلك أيضاً. لا تحملني على الاعتقاد عن ذلك الذي يرويه أفلاطون، فهو ليس إلا رواية...
- أو نيبولا...
- كما تريد.
وانقطع بشكل مفاجئ شهوانية الحوار، وخرج.

في الشارع، اقترب منه متسول يطلب منه صدقة قائلاً له: «صدقة بربك، سيدي، لدي سبعة أبناء!...». «لماذا ولدتهم!» فرد عليه أوغوسطو متضجراً «كنت أتمنى أن أرى في وضعيتي -رد عليه المتسول مضيفاً-: وماذا تريد أن نفعل نحن الفقراء، إذا لم ننجب الأبناء... للأغنياء؟» معك حق -أجابه أوغوسطو- وعن الفيلسوف، آه! سأفعل لها! ومنحه بسيطة واحدة، حيث قام الرجل الطيب بصرفها في الخمارة القريبة.

XXIII

كان أوغوسطو المسكين مفجوعاً. لم يكن وحده الذي يوجد كحمار بوريدان، بين إوخينيا وروساريو؛ كان ذلك الذي يعشقهم جميعاً كما يرى، في لحظة عليه أن يقلل من ذلك حتى يتقدم. ووصل إلى اكتشاف أشياء محتومة.

– اذهبي، اذهبي ليدوبينا، بربك! اذهبي، اتركني وحدي! اذهبي -قالها مرة واحدة لخادمته-.

و لم تكد تذهب حتى أسند كوعيه فوق المنضدة، ورأسه بين كفيه. وقال: «هذا فظيع، حقيقة فظيع، يبدو لي بأنني دون أن أهتم بذلك، سأصبح عاشقاً... حتى ليدوبينا. مسكين دومنغو! بدون شك. وهي في الخمسين من عمرها، وإن كان مظهرها جميل في نظرته، وفوق كل شيء مليئة باللحوم (بدينة)، وعندما تخرج بعض المرات من المطبخ بذراعيها العاريتين المستديرتين... هيا بنا، هذا هو الحمق نفسه!

وتلك اللحية المزدوجة وتلك الثنايا الموجودة في عنقها!... هذا فظيع، فظيع، فظيع.

«تعالى إلى هنا أورفيو -استمر في أخذ الكلب- ماذا تعتقد أنت وماذا علي أن أفعل؟ كيف علي أن أدافع عن هذا حتى أنتهي إلى أن أقرر من سأتزوج؟ آه، إذاً، هناك فكرة، فكرة نيرة! أورفيو! نتحول إلى المرأة، وهكذا سأستمر، في مادة الدراسة. ما هو رأيك سأتخصص في علم النفس الأنثوي؟ نعم، نعم، وسأنجز بحثين، إذاً الآن، هناك كثير من الأبحاث، واحد سيحمل

إسم إوخينيا والآخر روساريو، مع إضافة عنوان: دراسة المرأة. ما رأيك في فكرتي، أورفيو»؟.

وقررت أن أذهب للاستشارة مع أنطولين. -أو ليكن سانشيث باباريغوبولوس لأجل أن يتخصص بعد ذلك لدراسة المرأة، وإن كان في الكتب وليس في الحياة.

أنطولين س. باباريغوبولوس كان هو العالم كما يقولون، الشاب الذي أعطى للوطن أياماً من المجد موضحاً مفاخر جهله. وإذا كان اسم باباريغوبولوس. غير مشهور حتى بين أولئك الشباب الصاخب الذي يريد بقوة ضجيجه أن يجلب إليه انتباه الجمهور، لأنه كان موضع الحقيقة الخاصة لباطن القوة: الصبر، ولأنه كان موضع احترام لدى الجمهور ولنفسه مدد ساعة حضوره إلى غاية ما فيه الكفاية من الاستعداد جالساً بالتأكيد على الأرض الواطئة.

إن عقلية س باباريغوبولوس. كانت صافية، وبالخصوص أنها صافية بشكل شفاف رائع، بدون ظلامية، بدون بلبلة من أي نوع. كان يفكر بلغة قشتالية نظيفة، دون أية شبهة من ضباب رهيب شمالي، ولا أهمل أساليب الشارع الباريسي، في صفاء قشتاليته، وهكذا كان يفكر بمتانة وعمق، لأنه كان يفعل ذلك بروح الشعب الذي كان يسانده والذي منحه روحه. ضباب الشمال يبدو له واضحاً بين شاربي الجعة الذين يتصدرون القائمة، ولكن في هذه إسبانيا الصافية ذات السماء الرائعة الصحية بالديبيناياس المخصص. كانت تلك التي تنتمي إلى فقيد العلم والفن بيثيرو ديل بينغوا الذي بعد أن أطلق على شوبنهاور النهر الغريب، كان يؤكد بأنه لم يحدث معه ما حدث لهذا من الأمور هو ما حدث له، و لم يكن متشائماً من الذي شربه من بالديبيناياس بدل الجعة، وكان يقول كذلك بأن النورستينيا سببها هو أن يتدخل الانسان فيما لا يعنيه، وأن علاجه يكون بواسطة سلطة الحمار.

أصبح س باباريغوبولوس. مقتنعاً بأنه في آخر الوقت كل هذا يبقى شكلياً، شكلياً أكثر أو أقل داخلياً، الكون نفسه عبارة عن كاليدوسكوب

بأشكال يصل بعضها مع البعض. وبالشكل الذي تعيشه العديد من الأعمال (المؤلفات) التي أنقذتها القرون، كان يعمل بعناية في إنجاز مقالاته الرائعة عن عصر النهضة واللغة البديعية لأعماله المستقبلية.

كان قد اكتسب فضائل قوية لمقاومة كل التيارات العاطفية والرومانتيكية الجديدة، وتلك الموضة المدمرة بسبب القضايا التي أطلق عليها الإجتماعية، مقتنعاً بأن القضايا الاجتماعية لا يمكن تفسيرها هنا أسفله، حيث سيوجد دائماً الفقراء والأغنياء وأنه لا يمكن أن تنتظر أكثر الفرج والذي سيجلبه إحسان هؤلاء وصبر أولئك، وكان قد فصل روحه عن الجدول الذي لا فائدة منه والمؤدي إلى اللجوء إلى منطقة خالصة جداً للفن الطاهر، حيث لا تصل حثالة الانفعالات وحيث كان الرجل قد وجد ملاذاً هادئاً لخلع هموم الحياة. التي كان يبغضها، زيادة عن العقم الذي يعم العالم، ولا يعمل سوى على قذف الأرواح في الأحلام التي لا تتحقق وفي الخطط الخيالية الواهنة، وحب هذه المعبودة إسبانيا، المفترى عليها، المجهول من طرف بعض أبنائها، لهذه إسبانيا التي كانت تمنحهم المادة الأولية للأعمال التي ستأسس لمستقبل سمعتها.

كان باباريغوبولوس يكرس قدرات طاقاته الروحية في البحث عن باطن الحياة الماضية لشعبنا، وكان متفانياً في عمله كصلابته. كان سعيه على الأقل هو بعث روح الحياة في عيون مواطنيه عن ماضينا -أعني ماضي أجداده- والاطلاع على تضليل العديد من الذين كانوا يهتمون بالخيال الخالص، يبحث وينقب في كل أصناف الذكريات القديمة ونصبها فوق الأحجار المربعة المنحوتة للبناية المختصة بالعلوم التاريخية.

لم يكن هناك حدث مضى لتفاهته التي ظهر بها، ولم يحظ أمام عينيه بالأهمية الفائقة.

كان يعلم بأنه يجب أن نتعلم فهم الكون في قطرة ماء، التي كونت مع عظم العالم الإحائي الحيوان الكامل ومع يد قدر كلها حضارة قديمة للعالم الأثري،

دون تجاهل أيضاً بأنه لا يجب النظر إلى النجوم بالمجهر أو التليسكوب نظرة إلى نقاع، كالفكاهيين الذين اعتادوا القيام بما يكون معكراً. أكثر من ذلك، وإن كنت أعرف بأن يد القدر تكفي لعالم الآثار العبقري لإعادة بناء الفن المدفون في حافة النسيان، كما هو في تواضعه لم يكن يعتبر نفسه عبقرياً، كان يفضل يدين على اليد الواحدة -كلما كانت أكثر أحسن- وكان يفضل القدر كله على اليد الواحدة.

«كل ما له علاقة بالتمديد يبدو ربحاً، الضياع يكون في الشدة»، ذلك كان شعارهم. كان يعرف باباريغوبولوس بأنه في العمل المخصص هو الأكثر وضوحاً في الدراسة التي يمكن أن ترى فيها فلسفة كاملة، وكان يعتقد فضلاً عن ذلك في الأعمال الرائعة للعمل وفي تقدمه الهائل المجلوب للعلوم من فرق متفانية من الذين يقومون بوخز -الضفادع، وصيد- الكلمات، وتخمين التواريخ وحساب -القطرات من كل الأنواع-.

كانوا يلتمسون بالخصوص الانتباه إلى ما هو أكثر صعوبة وتعقيداً لمشاكل تاريخنا الأدبي، كما هو الشأن بالنسبة لوطن الفطنة، كان يجب النظر إلى خلاصة مطبقة هكذا وبوضوح، حول ما هو، وليس في نظريات مجردة وخالصة، كان يجب النظر إليها حسب نوعها. كل محاضرة من تلك التي تمثل سنة دراسية في المنطق الاستقرائي، هي معلمة رائعة جداً مثل مؤلف ليونيط يقترب من يسروع الصفصاف الأبيض، والواحدة تمثل نموذجاً، لاسيما تلك التي تتعلق بالحب الصارم للحقيقة المقدسة. كان يفر من الألمعية كما يفر من الوباء وكان يعتقد بأنه فقط سوف نتعود على احترام الحقيقة المقدسة، حتى وإن كان في أقل الأمور، يمكننا أن نقدم له ما يستحقه من تقدير خاص.

كان يهيئ طبعة شعبية عن الحكايات في كتاب «كليلة ودمنة» مع مقدمة تقترب من التأثير الأدبي الهندي في الإسباني في العصور الوسطى، وياليته كان قد توصل إلى نشره، لأن قراءته كانت ستبعد بالتأكيد الشعب عن الخمارة وعن التعاليم المميتة والمستحيلة خلاصها اقتصاديا. ولكن المؤلفين العظيمين اللذين وضعهما باباريغوبولوس كانا عن تاريخ الكتاب الاسبان المغمورين. يعني بأولائك اللذين لا يشكلون في تاريخ الأدب الإسباني الرائج، أو يتم

ذكرهم بشكل خاطف وبالطبع دون أهمية مؤلفاتهم، مصححاً بذلك ظلم العصور، ظلم كان أكثر رثاءً بل وحتى خوفا، وكانت إحدى مؤلفاته تقترب من تلك التي ضاعت، ولم يبق لنا منها أكثر من ذكر عناوينها وعلى الأكثر عناوين المواضيع التي كتبت عنها، وكان على وشك بداية كتابة تاريخ لأولئك الآخرين الذين فكر الكتابة عنهم ولم ينجزوا تلك الأعمال.

وبالنسبة لأفضل عمل أنجزه، بعد أن غذاه بأعمال أكثر أهمية ورفيعة من أدبنا الوطني، بعد أن تعمق في الآداب الأجنبية، وكان في ذلك معانات، لأنه كان لا يتقن اللغات الأجنبية وتعلمها مما يتطلب مدة زمنية ممتدة، وهو ما يتطلب الوقت أكثر من الدراسة العليا، فلجأ إلى مهارة تعلمها من أستاذه اللامع وذلك لأنه كان يقرأ الأعمال الرئيسة في النقد وتاريخ الأدب التي كانت تنشر بالخارج كلما وجدها بالفرنسية، ويعد أن الرأي المتوسط من النقاد ذائعي الصيت، يتعلق الأمر بهذا الكاتب أو ذاك، وكان يتصفح تلك الأعمال في وقت وجيز ليرضي ضميره، ويبقى حراً كي يكون أو يكون أحكاماً أخذها عن الآخرين بدون أن ينتقص ذلك من دقة عمله كناقد

أنظر، إذاً، بأن باباريغوبولوس. لم يكن واحداً من تلك الأرواح الشابة التائهة التي تتجول بدون اتجاه محدد من ميادين الفكر والتخيل، يرمي بها ربما هنا وهناك، كأنها الشرارة الهاربة. لا! كانت نزعته صارمة ذات المسالك المحددة الاتجاه. وإن كان في أبحاثه لم يكن ليظهر شيئاً بارزاً، وذلك يرجع إلا أن كل شيء بالنسبة إليه كان في القمة، بينما كانت في شكل هضبة، نقل المخلص للسهول القشتالية الشاسعة والمشمسة حيث تتمايل المحاصيل الناضجة والمذهبة والغنية.

هكذا ستمنح العناية الإلهية لإسبانيا الكثير من أنطولينيس سانشيث باباريغوبولوس! ومعهم، سيجعلوننا جميعاً أصحاب مال تقليدي، الذي يمكننا أن نستخرج منه فوائد كثيرة.

كان باباريغوبولوس يطمح -ويطمح الآن مادام حياً ويستمر في إعداد

أعماله- لإدخال سكة محراثه النقدي، وإن كان فقط سنتيمتراً واحداً أكثر من المحاريث التي كانت قد سبقته في ذلك الميدان، كي تنمو المحاصيل، بفضل العصارة الجديدة أكثر نضرة، وتتمر أفضل السنابل والدقيق سيكون أكثر لذة، ونأكله نحن الإسبان كأفضل خبز روحاني والأرخص ثمناً.

لقد قلنا بأن باباريغوبولوس ما زال يعمل ويهيئ أعماله كي يمنحها النور.

أوغوسطو كان قد حصل على خبر عن الدراسات الأنثوية التي كان يتعاطى لها من طرف بعض الأصدقاء العاديين، ولكنها لم يعلن عنها أي شيء ولا سبق نشرها بعد.

ليس هناك نقص العلماء، بنفس الطبائع الحسانية، في النوع يمكنهم أن يلمحوا باباريغوبولوس الذي يحسدونه مسبقاً على الشهرة التي ينتظرون بأنه سيصل إليها، هناك الكثير ما يقال عن باباريغوبولوس، فهناك من يقول بأنه مثل الثعلب الذي يمحي آثاره بذنبه ثم يدور إلى أين ذهب الثعلب ليصطاد الدجاجة فيضلله.

عندما يرتكب المرء خطيئة ما يجب عليه أن يستعمل الصراط وبعدما ينتهي إلى الصومعة، هكذا يمنعها من الظهور. الآخر يسميه ازدراء منسق الأصوات فقط وكأن ذلك ليس فناً رفيعاً. الآخر والأبعد يتهمه بأنه كان يترجم فقط، وينظم أفكاراً أخذها من الخارج، ناسياً أنه عندما كان يلبسها باباريغوبولوس بلغة قشتالية صافية وأصيلة وشفافة كما هي لغته، بحيث يجعلها قشتالية وبالتالي تكون في ملكيته، ليس بنفس الأسلوب الذي فعله الأب إيسلا الذي نسب لنفسه جيل بلاس دو ليساج. البعض أطلق عليه لقب المساند الرئيسي نظراً لايمانه العميق لجهله للوسط، بعدم معرفته لأنه يحكم على الايمان يحرك الجبال. لكن الظلم الأعلى لهؤلاء وأحكام أخرى خقودة لأناس آخرين. علماً بأن باباريغوبولوس لم تركب في حقهم أي شيء ولم يضرهم، ظلمه الظاهر سوف يبرز بوضوح جيد فقط مع الأخذ في الحسبان هو أنه لم يسلط الضوء عليهم وأن أولائك الذين كانوا يسيئون إليه يتكلمون عن طريق السمع ومن

عاداتهم عدم الصمت.

وختاماً لا يمكن الكتابة عن هذا العالم الفريد إلا بهدوء وسكينة وبدون مفعول قائم على تفاصيل مفرطة قادرة على خلق انطباع سهل في النفوس الروائية من أي نوع. وعن الرجل أريد أن أول، عن هذا العالم، إذ إعتقد أوغوسطو أنه عالم كان يتعاطى إلى الدراسات الأنثوية، طبعاً هذا موجود في الكتاب، والتي تعالجهن أقل عرضاً، وعن نساء من القرون الماضية، وهن كذلك أقل تعرضاً من طرف الدارسين لنساء اليوم.

لهذا أنطولين العالم المتوحد، وبسبب خجله من التوجه إلى النساء في الحياة ولأجل أن يأخذ ثأره من ذلك الخجل كان يدرس عنهن في الحياة، وكان هو من استعان به أوغوسطو في الاستجابة لنصائحه.

لم يكن هدفه من العرض الجيد هو الاندفاع نحو العالم

- آه، مسكين السيد بيريث، كيف أشفقت عليك! أتريد دراسة المرأة؟ عمل واجب ...

- إذاً لمجرد الدراسة...

- عليك أن تضحي كثيراً. الدراسة، والدراسة المبهمة، تحتاج إلى صبر صامت، إنها حجة وجودي في الحياة. لكن أنا، كما علمت، أنا متواضع، مشتغل بالفكر متواضع جداً، أنقل وأرتب المواد لأولئك الذين سيأتون من بعدي يعرفون كيف يستغلونها. العمل الإنساني هو عمل جماعي، ولا شيء يكون صلباً ويضمن الاستمرارية إذا لم يكن جماعياً.

- وماذا عن أعمال العباقرة الكبار؟ الكوميديا الإلاهية، وإينايدا تراجيديا لشكسبير لوحة بيلاسكيث...

- كل هذا هو عمل جماعي، أثر جماعياً مما يعتقد بكثير. الكوميدية الأهلية، كانت قد أنجزت لأجل سلسلة كاملة ...

- نعم، ذلك أعرفه

- ومع احترامي لبيلاسكيث... على فكرة، هل تعرف كتاب خوستي؟

بالنسبة لأنطولين، فإن ما هو أساسي تقريباً هو القيمة الوحيدة لأعمال

التحف الكبيرة للعبقرية الإنسانية، مستفزة لأنها لم تتضمن كتاباً واحداً في النقد أو الشرح، كبار الفنانين، الشعراء، الرسامين، الموسيقيين، المؤرخين، الفلاسفة، ولذلك يقوم عالم بكتابة سيرتهم. وناقد يعلق على أعماله، وأية جملة كيفما كانت لكاتب كبير مباشرة لا تكتسب قيمتها حتى لا يقوم عالم بتكرارها والاقتباس منها، الطبع والصفحة البيبلوغرافيا.

– آه، البيبلوغرافيا! نعم، أعرف ذلك...

– لا، لا تستمر صديقي باباريغوبولوس، وقلي بالملوس وما تقدر عليه وماذا يبدو لك علم النفس الأنثوي.

– كان يجب البداية على طرح المسألة الأولى وهي التي تتعلق بان كانت المرأة تملك روحا.

– يا رجل!

– آه! لا ينفع نبذها هكذا، إطلاقا...

«هل ستكون لها مستقبلاً؟» فكر أوغوسطو، وبعد ذلك:

– طيب، إذاً ما يتعلق بأن النساء تحل محل الروح... ماذا تعتقد أنت؟

– أتعدني أنت صديقي بيريث أن تحتفظ بسري الذي سأقوله لك؟... وإن كان، لا، لا، أنت لست عالماً.

– ماذا تريد أنت قوله بذلك؟

– على أنك لست واحداً من أولئك الذين يقومون بسرقة أحد آخر سمعوه، ونسبه إلى نفسه.

– ولكن، أليس ذلك موجود عندنا؟

– آه، صديقي بيريث، العالم بطبيعته سارق صغير، أقولها لك يعرضها. وكل ذلك الصمود العملي الجماعي لم يكن سوى أكثر من الحسد وعدم القدرة، ينتمي إلى نوع هؤلاء المعلقين على هوميروس، ولو كان هوميروس نفسه حياً لدخل إلى إدارته وهو يغني فسيطرد دونه شر طرد، لأنه كان يعرقل عملهم حول نصوص ميتة من أعمالهم والبحث عن أباكس، أي واحدة منها.

– لكن، طيب فما هو رأيك أنت عن علم النفس الأنثوي؟ سأله أوغوسطو

- سؤال كهذا، جد مبهم، جد عام، مجرد جداً، لا معنى له محدود ودقيق للباحث المتواضع مثلي، صديقي بيريث، لرجل ليس عبقرياً ولا يرغب أن يكون كذلك...

- ألا يرغب في ذلك؟

- نعم، ولا أرغبه، إنها مهنة سيئة. إذاً طيب، ذلك السؤال خال من المعنى المحدد بالنسبة لي، والإجابة عنه يتطلب...

- نعم، إذن لو كنا مثل مريدك، الذي كتب كتاباً حول علم النفس الشعب الإسباني، وبما أنه يبدو إسبانياً ويعيش بين الإسبانيين، لم يخطر بباله إلا القول بأن هذا أو ذاك الآخر ووضع أنا، ومن أنا. العلماء البعض منا من الآخرين الأشياء الصغيرة التي نحقق فيها ونمنع الآخر على أن سيقنى.

- فهمتك: حتى يملك خزيناً يحفظ فيه نوعه الأكثر غيرة من الذي يملك المعمل؛ يجب الاحتفاظ بماء البئر لا أن يحتفظ بماء المنبع.

- يمكن ذلك. إذاً، إن لم تكن أنت عالماً، أن تعدني بأن تحتفظ لي بسري حتى أكشف عنه أنا، سأقول لك بأنني وجدت عند كاتب هولندي ويكاد أن يكون مجهولاً من القرن السابع عشر وجدت لديه نظرية جد مهمة حول روح المرأة...

- لنطلع عليها.

- يقول ذلك الكاتب، ويقوله باللاتينية، هكذا مثل كل رجل له روح، فالنساء كلهن، ليس لهن إلا روح واحدة، ونفس الروح. هي روح جماعية، شيء هكذا مثل أفكار الفاعل ابن رشد، موزعة بينهم جميعاً. ويضيف على أن الاختلافات التي نلاحظها في طريقة الإحساس والتفكير والحب لكل امرأة لا تصدر إلا عن الاختلافات الجسدية، وحسب العرق، والمناخ، والتغذية، الخ... ولأجل ذلك هي غير هامة.

- النساء، يقول هذا الكتاب، يظهرن فيما بينهن أكثر من الرجال ولأنه كلهن هي واحدة ونفس المرأة...

- لماذا تنظر إلا هناك يا صديقي باباريغوبولوس، هكذا أحببت واحدة ومباشرة أحسست بأنني أحبهن كلهن.

- هذا واضح! وأضاف أن ذلك مهم جداً، ويكاد أن يكون مجهولاً في الطب النسائي على أن المرأة لها الكثير من الفردية ولكن أقل بكثير شخصية

من الرجل، كل واحدة منهن تحس أكثر بذاتها، أكثر فردية من كل رجل، ولكن بأقل محتوى.

– نعم، نعم، أعتقد التلميح لأي شيء.

– ولأجل ذلك صديقي بيريث، نفس النتيجة سواء درست أنت امرأة واحدة أو بعضهن. المسألة هي التعمق فيها بهذه الدراسة التي تتعاطى لها أنت ألم يكن من الأحسن أخذ امرأتين أو أكثر كي تستطيع القيام بدراسة مقارنة؟

– فعلاً، العلم هو المقارنة، والأكثر بالضبط للنساء اللواتي لسن في حاجة إلى المقارنة، من يعرف واحدة، واحدة جيداً، يعرفهن كلهن، معرفة المرأة الحقيقية. بالإضافة إلى ذلك، أنت تعرف أن كل ما يكتسب في السعة يخسر في الشدة.

– بالفعل، وأنا أرغب في أن أتعاطى بالعناية للشدة وليس إلى المرأة الشاملة. ولكن اثنتين على الأقل... وعلى الأقل اثنتين.

– لا، اثنتان لا! بأي طريقة! لا يمكن أن يكتفي بواحدة، والذي اعتقده أنا هو من الأحسن والاكتفاء بالنظرية، فعلى الأقل ثلاثة. الثنائية لا تقفل.

– كيف لا تقفل الثنائية؟

– الأمر واضح، مع الخطان لا يُسد الفراغ. أكثر مضلع بساطة هو المثلث. على الأقل ثلاثة

– ولكن المثلث خال من العمق. الأكثر بساطة المتعدد السطوح هو الرباعي السطوح؛ بحيث أنه لا يمكن أن يكون على الأقل أربعة

– ولكن اثنتين. أبداً! تخطى واحدة، على الأقل ثلاثة. ولكن تعمق أنت في واحدة.

XXIV

عندما خرج أوغوسطو من حواره مع باباريغوبولوس.

ذهب وهو يقول: «علي أن أتخلى عن واحدة من الاثنتين أو أبحث عن ثالثة. وإن كان هذا من أجل الدراسة النفسية التي يمكن أن تفيدني كهدف ثالث: هدف خيالي خالص لمقارنة، ليدوبينا. لدي إذن ثالثة: إوخينيا التي تحدثني خيالياً، في القمة روساريو، التي تحدثني قلباً، وليدوبينا طباختي، والتي تحدثني بواسطة المعدة. والرأس، والقلب، والمعدة هم الكليات الثلاث للنفس التي يسميها الآخرون الذكاء، الإحساس، الإرادة. نفكر بالرأس، نحس بالقلب، ونحب بالمعدة. هذا بديهي والآن...»

«الآن -واصل تفكيرك- فكرة نيرة، نيرة جداً! سأتظاهر لإوخينيا بأنني أحب مغازلتها من جديد، سأطلبها من جديد، لأرى إن كانت تقبلني كخطيب ثم بعدها زوجاً، طبعاً لأختبرها فقط، كتجربة نفسية والأكيد في حالتي هذه، فإنها سترفضني..إذاً لم يبق أكثر! وعليها أن ترفضني. بعد كل الذي حدث، بعدما خاطبتني في لقائنا الأخير بأنه من الممكن أن تقبلني. إنها امرأة جدية وعند وعدها حسب اعتقادي. الأكثر... هل يفي النساء بوعدهن؟ وهل المرأة، المرأة، هكذا بحروف بارزة، الوحيدة، والتي تقتسم بين الملايين من الأجساد النسائية لا أقل ولا أكثر جمالاً -لأكثر طبعاً الأكثر قلة-، هل من الضروري أن تلتزم المرأة بوعدها؟ ذلك المتعلق بالوفاء بالوعد، أليس خاص بالرجال؟ ولكن، لا.لا !

إوخينيا لا يمكن أن تقبليني، لأنها لا تحبني، لا تحبني، ولكنها قبلت هبتي.

وإذا كانت قد قبلت هبتي وتمتعت بها، فلماذا ستحبني؟ «ولكن... وإذا عدت إلى ما قالته لي سابقاً -فكرت بعد ذلك- قالت لي أيمكن أن تقبليني كخطيب وكزوج مستقبلاً؟ لأنه عليها أن تصل إلى كل شيء وهل تقبلني؟ أقول ستزعجني! اصطادتني بصنارتي الخاصة! وهذا ما يريد أن يصطاده الصياد! ولكن لا،لا اغير ممكن! وهل يحدث ذلك؟ آه، لن يبق إلا التنازل. هل أتنازل؟ نعم، أتنازل يجب أن تعرف كيف تتنازل عن نصيبك المهم ولعل التنازل من أجل السعادة هو علم صعب. ألم يقل لنا بياندرو أن النكبات كلها تنشأ من عدم القدرة على هضم سعادته؟ عليك أن تهضم السعادة! وإذا قالت لي إوخينيا نعم بأنها تقبلني، بعد ذلك... يكون قد انتصر علم النفس! ولكن لا، لا، لا، لن تقبلي لا تستطيع أن تقبلني، ولو فقط للخروج معها. امرأة كإوخينيا لا تقبل أن يثني ذراعها أحد، المرأة، عندما تقف أمام الرجل لترى من هو الأكثر ثباتاً وانتظاماً في أهدافه، وإنه قادر على كل شيء.. لا لن تقبليني !»

روساريو تنتظر.

– مع هذه الكلمات الثلاثة تحمل المشاعر، قطعت ليدوبينا درس التفكير على سيدها

– قولي ليدوبينا، أتعتقدين أن النساء تتميزن بالوفاء. على كل ما تقولينه؟ أتحتفظين بوعدك؟

– حسب الظروف.

– نعم، قرار زوجك. ولكن تحبين بشكل صادق وليس كما تعودتم أنتن النساء يا للغرابة للأجوبة التي تجبن بها على من يسألكن، وربما حتى تتظاهرن بأنه سوف تسألن .

– وما هو الذي أردت أن تسأل عنه؟

– ان كنتن أيتها النساء تحتفظن بالوعد الذي تمنحوه.

– حسب الوعد.

– كيف حسب الوعد؟

– الأمر واضح، وعود تمنح للاحتفاظ بها وأخرى لعدم الاحتفاظ بها. ولا أحد ينخدع، لأنه قيمة معقولة.

- طبعاً، طبعاً، قولي لروساريو بأن تدخل.

وعندما دخلت روساريو سألها أوغوسطو:

- قولي، روساريو ماذا تعتقدين أنت، بأن المرأة يمكنها أن تحتفظ بالوعد الذي منح لها أو لا يمكنها ذلك؟

- لا أتذكر بأنني وعدتك مرة...

- لا يتعلق الأمر بذلك، وإنما إذا كانت امرأة ما تحتفظ بوعدها...

- آه! تتحدث عن الأخرى... عن تلك المرأة...

- لأجل أن تقولي لها، ماذا تعتقدين أنت؟

- إذن، أنا لا أفهم في هذه الأمور...

- لا يهم!

- حسناً، ما دام الأمر يلزمك، سأقول لك بأنه من الأفضل هو أن تعد أية واحدة.

- وإذا كنت قد فعلت ذلك؟

- لم يكن عليك أن تفعله.

- «الأمر واضح -قال أوغوسطو- يجب أن لا أخرج هذه الفتاة من هناك، ولكنها موجودة هنا، سأضعها في لعبة علم النفس لأصل إلى نهاية التجربة»

- تعالي إلى هنا، اجلسي هنا! -وقدم لها ركبتيه-.

امتثلت الفتاة بهدوء تام وبدون أن تتأثر كما لو كان الأمر متفقاً عليه من قبل.أوغوسطو على عكس ذلك، بقي حائراً لا يعرف من أين سيبدأ تجربته في علم النفس وبما أنه لم يكن يعرف ما يقول، إذن... فعل. ضغط على روساريو بصدره المشتاق وانهال على وجهها بالقبلات، وهو يقول من حين لآخر «يبدو لي أنني سأفقد رباطة الجأش الكافية للبحث في علم النفس» حتى توقف فجأة، وبدا هادئاً أبعد روساريو قليلاً منه وخاطبها فجأة:

- ولكن ألا تعرفين بأنني أحب المرأة الأخرى؟

- صمتت روساريو، وهي تنظر إليه بإمعان ورفعت كتفيها.

- ولكن ألا تعرفين؟ كررها هو.

- وأنا لا يهمني ذلك الآن؟...

- كيف لا يهمك؟
- الآن لا! الآن تحبني أنا، هكذا يبدو لي.
- وأنا كذلك يبدو لي، ولكن...

وبعد ذلك وقع شيء فريد، شيء لم يكن ضمن توقعات أوغوسطو، في برنامجه التجريبي في علم النفس حول المرأة وهو أن روساريو ألقت ذراعيها على رقبته وبدأت في تقبيله، لم يبق للرجل المسكين حتى الوقت للتفكير: «الآن أنا هو من المجرَّب، هذه الفتاة تقوم بإجراء دراستها في علم النفس الذكوري»، وبدون أن تشعر بما كانت تقوم به، تفاجأ وهي تلاطفه بيديها المرتعشتين.

قام أوغوسطو بسرعة، نهض ورفع عن الأرض روساريو ووضعها على الأريكة، تركته يفعل ذلك، بوجه متحمس وهي ممسوكة من ذراعيها بين يديه، وبقي ينظر إلى عيونها.
- لا تغلقيهما روساريو، لا تغلقيهما، بربكِ! افتحيهما. هكذا، هكذا، أكثر مرة أخرى. أتركيني لتراني بهما صغيراً جداً...

ولما رأى نفسه هكذا في كلتا العينين كالمرآة الحقيقية، أحس بأن الهيجان الأول قد بدأ يخف.
- اتركيني أن أرى فيهما كالمرآة، لأرى نفسي صغيراً جداً... هكذا فقط سأصل إلى معرفة نفسي، لأراها في العيون والمرآة

وكان ينظر إليها بطريقة غريبة، روساريو كانت تفكر: «هذا الرجل لا يبدو لي كباقي الرجال؛ ينبغي أن لا يكون أحمقاً» ابتعد أوغوسطو عنها مباشرة، ونظرت إلى نفسها، وبعد ذلك لمسها صائحاً في الأخير.
- والآن سامحني روساريو.
- أسامحك؟ لماذا؟

وكان في صوت المسكينة روساريو خوف أكثر من أي إحساس آخر.

كانت تحس بالرغبة في الهروب، لأنها كانت تقول:
«عندما يبدأ الواحد في قول، أو ارتكاب التناقضات لا أ درى أين سيقف. هذا الرجل في إمكانه أن يقتلني في إحدى نوبات حمقه.» وانهمرت من عينيها دمعات.

– أرأيت؟ –قال أوغوسطو– أرأيت؟ نعم، سامحيني، روساريو، سامحيني، لم أعلم ماذا فعلت.

– فكرت «ما لا يعرف هو ما لا يرتكب»

– والآن، اذهبي! اذهبي!

– أتطردني ؟

– لا، أدافع عن نفسي. لا أطردك، لا! الله سيحررني!

– إذا أردت سأذهب، وتبقين أنت هنا، لترين بأنني لا أطردك.

– «حتمياً، لم يكن حسناً» فكرت، وأحست بالشفقة عليه.

– اذهبي، اذهبي، ولا تنساني، إيه؟ –أخذته من ذقنه وبدأت تلاطفها– لا تنساني، لا تنسى أوغوسطو المسكين.

ضمها إليه، وقبلها طويلا في فمها. وعند خروج الفتاة توجهت إليه بنظرة مليئة بالخوف الغامض. وما أن خرجت حتى فكرت إن كان أوغوسطو: «يحتقرني، بدون شك يحتقرني، لقد كنت تافهة، تافهة، تافهة... ولكن ما الذى تعرفه، المسكينة عن هذه الأمور؟ ما الذي تعرفه عن علم النفس؟

لو كان أوغوسطو المسكين استطاع حينذاك قراءة ما في روح روساريو لأصيب بيأس أكبر، لأن الفتاة الساذجة كانت تفكر: «في يوم من الأيام سأعود لأمنح نفسي فترة هكذا للاستفادة على حساب الغير...»

بدأ يتراجع هيجان أوغوسطو. أحس بأن الزمن الماضي لا يعود ليجلب الفرص الضائعة. أصيب بحنق ضد نفسه. دون أن يعرف ماذا يفعل، ولملء الفراغ، نادى على ليدوبينا، وحين رآها أمامه هادئة جداً وبدينة تقريباً، وهي تبتسم له بخبث، كان ذلك وعلى انفراد، راوده إحساس بالإغارة عليها، حيث قالت له.. «اذهب، اذهب، اذهب!» فخرج إلى الشارع. فخاف

لحظة عدم قدرته على احتوائها والهجوم على ليدوبينا.

عند خروجه إلى الشارع أحس بهدوء، الحركة البشرية كانت كالغابة. كل واحد في مكانه، منضبطا.

«هل سأكون مطمئناً على نفسي؟ -هكذا كان يفكر أوغوسطو- لن يحدث ربما خلال اعتقادي بأنني أسير بشكل طبيعي في الشارع، كان الناس العاديين -ومن هو الإنسان العادي؟- وبدأ يقوم بإشارات و اعوجاجات وتمثيليات صامتة، وأن الناس الذين كنت أعتقد أنهم لا ينظرون إلي أو أنهم ينظرون بدون مبالات ليس ذلك، وإنما لكونهم كلهم يركزون نظرهم إلي، يسخرون أو يشفقون علي...؟ وهذه الحالة، أليست حماقة؟ هل سأكون حقا أحمق؟ وفي آخر المطاف، حتى وإن كان ذلك، فماذا؟ رجل له قلب، له إحساس، طيب، فإذا لم يتحول إلى أحمق فلأنه مغفل تماماً. الذي ليس أحمقاً هو بليد أو خبيث، مالا يمكن قوله، بوضوح هو أن الخبثاء والبلداء لا يصابون بالحمق.»

«ما فعلته مع روساريو -واصل تفكيره- كان تافها، ببساطة تافهاً. ماذا ستحسبني؟ وماذا يهمني ما ستظنه فتاة مثلها؟... مسكينة! ولكن... أية سذاجة دفعتها إلى ذلك الفعل! إنه كائن فيزيولوجي، تماماً فيزيولوجي، ليس أكثر من فيزيولوجي، بدون أي علم النفس. إنه عديم الفائدة، إذاً استغلالها لها كأرنب صغير هندي أو ضفدعة صغيرة للتجارب (علم النفس= النفسانية)... إجمالاً هل علم النفس، وخصوصا الأنثوي، شيء أكثر من الفيزيولوجيا أو إذا كنت أريد علم النفس فيزيولوجيا؟ هل للمرأة روح؟ ولتقحمني في التجارب النفسانية.

الفيزيولوجية تقتضي الاستعداد التقني. لم أحضر أبداً في أي مختبر... إضافة إلى انعدام الآليات. وعلم النفس يتطلب الآليات هل ستصبح إذن أحمق؟» بعدما أصبح مستريحا مع هذه التأملات الزقاقية وسط المشتغلين بأعمالهم والمحتشدين والغير مبالين، أحس بالهدوء وعاد إلى البيت.

XXV

ذهب أوغوسطو لرؤية بيكطور، ومداعبة طفله البطيء النضج، والتسلي بالتأمل في السعادة الجديدة لذلك المنزل، ولاستشارته في موضوع حالته النفسية. وأثناء لقائه مع صديقه على انفراد، قال له:

– وماذا عن تلك الرواية؟ أو... كيف كانت؟ آه، نعم نيبولا التي كنت كتبتها؟ أظن أنك الآن مع موضوع الولد قد تخليت عن كتابتها.

– ظنك خطأ. بالضبط لأجل ذلك، لأنني أصبحت أباً، لذلك عدت إليها وفيها أجد سلوتي بالفرح الجميل الذي ينتابني.

– أتريد أن تقرأ لي بعضا منها؟

أخرج بيكطور الأوراق، وبدأ يقرأ من هنا وهناك على صديقه. ولكن، يا رجل، لقد غيرت كثيرا –اصاح أوغوسطو–.

– لماذا؟

– لأن ثمة أشياء أشبه بالإباحية البونوغرافيا وأحياناً تتعداها...

– أية إجابة بورنوغرافيا؟ بأية طريقة! ما يوجد مسطراً هنا هو فظاعة ولكن ليست الإباحية البورنوغرافيا، أحياناً هناك أحد العراة، ولكن لا يكون مجرداً من الثياب... كل ما هناك هو الواقعية...

– الواقعية، نعم، وزيادة...

– السفسطائية، أليس كذلك؟

– السفسطائية، نعم!

– ولكن السفسطائية ليست الإباحية البورنوغرافيا، هذه الفظاظة هي وسيلة لإثارة الخيال الحي يقوده لاختبار أكثر اقتحاما لواقع الأشياء؛ هذه الفظاعات هي فظاعات... بيداغوجية. قلت بيداغوجية؟

– وشيء خشن...
– فعلا، لا أنفي ما تقول. مذاق المشهد الهزلي.
– هو دائماً في العمق حزين.
– نفس الشيء. إنها لا تعجبني، وإنما كالحكايات الحزينة، نعَمُ الجنائز. الابتسامة بابتسامة نفسها التي تسبب لي إزعاجاً إلى درجة الخوف. الابتسامة ليست إلا تهيئاً للتراجيديا.
– إذن، بالنسبة لي فإن هذا التهريج الجاف يسبب لي بغضاً مؤثراً. لأنك المتوحد، أوغوسطو المتوحد، تفهمني جيداً، متوحداً...
– وأنا أكتب للعلاج... لا، لا، لا أكتبها من أجل الفراغ، وإنما لأنني ألهى بكتابتها، وسيتلهى بها من سيقرأها التي سأمنحها لهم بعد الأداء. ولكن إذا ما حققت معها وضع مساري لعلاج أحد المتوحدين مثلك، الثنائي المتوحد...
– ما هو الثنائي؟
– نعم، وحدة الجسد، ووحدة الروح.
– بالمناسبة، بيكطور..
– نعم، لقد عرفت ما ستقوله لي. كنت ستأتي لاستشارة حول وضعك، الذي مر عليه بعض الوقت، هو مقلق، حقيقة مقلق، أليس كذلك؟ نعم، ذلك مؤكد.
– لقد خمنته، ولكن حسناً أوغوسطو تزوج وتزوج في أقرب وقت.
– ولكن بمن؟
– آه! ولكن، هل هناك أكثر من واحدة؟
– وكيف خمنت ذلك؟
– بسيط جداً، لو كنت قد سألتني: ولكن بمن؟ لم يكن مفترضاً أن يكون هناك أكثر من واحدة ولا حتى هذه الواحدة موجودة وأكثر عند السؤال: ولكن بمن، يفهم مع من الاثنتين أو ثلاثة، أو عشرة، أو...
حقيقة.
– تزوج، إذن، تزوج بأية واحدة من هؤلاء اللواتي تحبهن مع التي هي في متناول اليد، وبدون التفكير في ذلك كثيراً كما ترى، أنا تزوجت دون أن أفكر في ذلك، كان علينا أن نتزوج.

- والآن منحتني التفرغ للتجارب النفسانية، علم النفس الأنثوي.
التجربة النفسانية الوحيدة حول المرأة هي الزواج. والذي لا يتزوج، لن يستطيع أبداً القيام بتجربة نفسانية لنفسية المرأة. المختبر الوحيد لنفسية الأنثى هو الزواج.
- ولكن، ذلك لابد منه!
- ليست هناك تجربة حقيقية تحتوي كل من يدخل حب تجربة شيءٍ ما، لكن مع الاحتفاظ بالانسحاب، دون قطع خط الرجعة، ولن يعرف شيئاً بالتأكيد. لا تتكر أبداً جراح الآخر، الذي سبق ببتر هو نفسه بعض أعضائه، ولا تسلم نفسك لأخصائي في الأمراض العقلية الذي لا يكون أحمقا، تزوج، إذن، إن أردت معرفة علم النفس الأنثوي.
- على أساس أن العزاب...
- ما يتعلق بالعزاب، ليس علم النفس، ليس أكثر من الميتافيزيقا، بمعنى أكثر بعداً من الفيزياء، أكثر بعداً من الطبيعة.
- وما هو ذلك؟
- أقل نسبة مما هو أنت فيه.
- هل أنا موجود في الميتافيزيقا؟ ولكن إن كنت أنا عزيزي بيكطور، لست أبعد مما هو طبيعي، وإنما أكثر قرباً منها!
- هم سواسية.
- كيف هم سواسية.
نعم، أكثر قرباً مما هو طبيعي هو نفسه أكثر بعداً، كما هو أكثر بعداً من الفضاء نفسه الذي هو أكثر قرباً منه. أريت هذا الخطأ؟
وسطر خطاً على ورقة. - مدده بآخر، والآخر جانبي إلى ما لا نهاية، الخطان سيلتقيان ويقفلان في النهاية، حيث سيلتقي الكل والكل سيرتبط. الخط المستقيم كله هو منحني من محيط دائرة نصف قطرها بدون نهاية، وفي النهاية يقفل. بعد ذلك نفس الشيء يمنحه أكثر قرباً مما هو طبيعي مما هو أكثر بعداً. أليس هذا واضحاً؟
- لا، إنه جد مبهم، مبهم جداً.
- لأنه أكثر إبهاماً، تزوج.
- نعم، ولكن... تراودني الشكوك كثيراً!

- أحسن، يا هاملت الصغير، أحسن. أية شكوك؟ بعد ذلك فكر؛ هل تفكر؟ بعد ذلك تحسس وجودك.

- نعم، الشك معناه التفكير.

- والتفكير هو الشك، ولا شيء أكثر من الشك. يؤمن، يعرف، يتخيل بدون شك، فلا الإيمان، ولا المعرفة ولا الخيال يفرضون الشك، وحتى الشك يدمرها، ولكن لا يمكن التفكير بدون شك، ولأن الشك هو الذي يؤدي إلى الإيمان و إلى المعرفة، وهما ساكنان، هادئ، ميت، يعمل على التفكير، وهي الديناميكية، قلق، حي.

- وماذا عن الخيال؟

- نعم، هناك يوجد بعض الشك. أحياناً أشك فيما فعلته قولاً، أو أسنده لشخصيات روايتي، وإن كنت بعدما فعلت ذلك، قولاً أو فعلاً، وهو أمر أشك إن كنت في حالة جيدة، وإن كان في الحقيقة يناسبها. ولكن... أتجاوز الجميع!، نعم، إذا كان هناك شك في الخيال وهو في حد ذاته تفكير...

بينما كان أوغوسطو وبيكطور يتواصلان في هذا الحوار حول الرواية، أنا مؤلف هذه الرواية التي بين يديك أيها القارئ وأنت تقرأها الآن، أبتسم بشكل غامض عندما أرى شخوص روايتي الذين كانوا يدافعون عني، ويبررون منهجية مسطرتي، وكنت أقول لنفسي «ما أبعد وجودهم أولائك التعساء عن التفكير، والذين لا يقومون بعمل آخر غير تبرير ما أفعله أنا بهم! هكذا، عندما يبحث الواحد عن الحجج لتبريراته، لا يفعل بصرامة أي عمل غير تبريره أن الله موجود، وأنا هو رب هؤلاء المسكينين الشيطانين من شخوص روائية.

XXVI

توجه أوغوسطو إلى منزل إوخينيا وهو على استعداد لإجراء آخر تجربة نفسانية نهائية، وإن كان خائفاً من رفضها له. والتقى بها عند الدرج نازلة للخروج، بينما كان هو صاعداً للدخول.

– أنت هنا، سيد أوغوسطو؟

– نعم، أنا هنا، بما أنك على استعداد للخروج، سأترك الزيارة إلى يوم آخر. سأعود.

– لا، تفضل يوجد بالبيت عمي.

– ليس مع عمك أريد الحديث، وإنما معك، يا إوخينيا، مع من أريد الحديث؟ لنترك الأمر ليوم آخر.

– لا، لا، نعود الآن. الأمور في سخونتها.

– إذا كان عمك هناك موجوداً...

– آه، خلاص إنه أنارشي! لن ننادي عليه.

وأرغمت أوغوسطو على أن يصعد معها. الرجل المسكين الذي كان متوجهاً بحماسة المجرب، أحس أمامها بأنه ضفدع.

عندما كانا منفردين في القاعة، إوخينيا، دون أن تنزع قبعتها، مع زيها الأنيق الخاص بالخروج والذي دخلت به. قالت له:

– حسناً، لنعرف ما الذي تريد أن تقوله لي.

– إذن... إذن –وبدأ أوغوسطو المسكين يتمتم– إذن...، إذن... حسناً، إذن ماذا؟

– لا أجد الراحة، يا إوخينيا، لقد تأملت كثيرا، وأدارت برأسي ألف

مرة تلك الأمور التي سبق أن تكلمنا فيها أثناء لقائنا الأخير، وبالرغم من كل شيء لا أستطيع أن أصبر، لا، لا أستطيع أن أصبر، لا، لم أستطع!

– وما هو الشيء الذي لا تستطيع الصبر عليه؟

– إذ، عن هذا، إوخينيا، عن هذا!

– وما هو هذا الأمر؟

– هو أن لا نكون غير أصدقاء...

– أكثر من أصدقاء!... وهل يبدو لك قليلاً، يا ضون أوغوسطو؟ أم تريد أن نكون أقل من أصدقاء؟

– لا، يا إوخينيا، لا لا ليس ذلك.

– إذن، ما هو؟

– بربك، لا تجعلني أتعذب...

– أنت هو الذي يعذب نفسه.

– لا أستطيع أن أصبر، لا.

– إذن، ماذا تريد؟

– لنصبح... زوج وزوجة!

– انتهينا!

– كي ننتهي علينا أن نبدأ.

– وماذا عن الوعد الذي وعدتني و قطعته على نفسك؟

– لم أكن على وعي بما قلت.

– وماذا عن تلك روساريو؟

– أه، بربك، إوخينيا، لا تذكرني بذلك!، لا تفكري في روساريو!

وحينها نزعت إوخينيا قبعتها، ووضعتها فوق منضدة صغيرة، وعادت للجلوس وبعد ذلك وببطيء ووقار قالت:

– طيب، أوغوسطو، ما دمت أنت قد أصبحت في النهاية رجلاً، لا تعتقد أنك ملزم بالاحتفاظ بوعدك، أنا لست سوى امرأة لا غير، ولكن علي أن أحتفظ به. زيادة على ذلك أريد أن أحررك من روساريو ومن غيرها. روساريوات أو بيطرات، اللواتي يمكن أن يلففنك. ما لم تقم به أنت بسبب امتنان سخائك وأن لا يثير غضبك ما حدث لي مع ماوريسيو –ها أنت ترى

أنني صريحة معك-، يثير الشفقة. نعم، أوغوسطو، يؤسفني ذلك، يؤسفني كثيراً -قالت له هذا وضربت على إحدى ركبتيه ضربتين خفيفتين بكفها اليمنى.

- إوخينيا! ومد ذراعيه كأنه يريد ضمها إليه.

- ايه! حذاري -صاحت- محاولة انتشالها والابتعاد عنه قالت:

- حذاري!

- ولكن في المرة الأخرى... كانت آخر مرة...

- نعم، ولكن حينذاك كان الوضع مختلفاً!

«أنا أقوم بدور الضفدع» هكذا فكر السيكولوجي الخبير المجرب.

- نعم -تابعت إوخينيا- بالنسبة للصديق، وفقط لصديق، يمكن السماح له ببعض الحريات الصغيرة والتي لا يمكن منحها لـ... هيا الـ... للخطيب.

- ولكن، لا أفهم...

- عندما نتزوج، أوغوسطو سأشرحه لك. والآن اهدأ قليلا أليس كذلك...

«هذا حدث بالفعل»، فكر أوغوسطو، الذي أحس بأنه ضفدع بالتمام والكمال.

- والآن -وقد أضافت إوخينيا وهي تستعد للوقوف- سأنادي على عمي.

- لماذا؟

- لتقديم له تقريرا!

- صحيح! -صاح أوغوسطو، مذعورا-

في اللحظة وصل ضون فيرمين.

- انظر، يا عمي -قالتْ له إوخينيا- أقدم لك السيد أوغوسطو بيريث، الذي جاء يطلب يدي وأنا قد وافقت على ذلك.

- عجيب! عجيب! -صاح ضون فيرمين- عجيب! تعالي إلى هنا

ابنتي، تفضلي إلي لأضمك إلى صدري، عجيب!

- ألهذا الحد وصل إعجابك ،لأننا سنتزوج يا عمي؟

- لا، إن الذي يعجبني والذي يفتنني، والذي يغريني هو الطريقة التي تَمَّ بها حل الأمر بينكما منفردين بدون وسطاء... لتحيا الأنارشية! وإنه من المؤسف، من المؤسف، لأنه كي يتم تنفيذ اقتراحكما عليكما أن تتوجها إلى السلطات... بالطبع، لأنه بدون هذه الإجراءات القانونية لن يرتاح ضميركما، إيه! شكلياً فقط لا شيء أكثر من شكلي. لأنني أعرف أنكما أصبحتما زوجاً وزوجة. وفي كل الأحوال، أنا، أنا وحدي باسم الله، أزوجكما! وهذا يكفي! عجيب! عجيب! ضون أوغوسطو، أنت من الآن هذا المنزل، هو منزلك.

- منذ الآن؟

- عندك حق، نعم، لقد كان دائماً. منزلي... هل هو منزلي؟ هذا المنزل الذي أسكنه كان دائماً لك، كان دائماً لجميع إخواني. ولكنه منذ اليوم...، تفهمني...

- نعم يفهمك، يا عمي.

في تلك اللحظة طُرق الباب، وقالت إوخينيا:

- إنها عمتي!

- وعند دخولها إلى القاعة ورأت ذلك، صاحت.

- كنت أعلم ذلك! ألم يكن الأمر مهيئا؟ هذا ما كنت أعرفه أنا. أوغوسطو كان يفكر: «ضفدع، ضفدع تماماً! لقد اصطادوني بينهم جميعاً»

- سوف تبقى اليوم لتناول الطعام معنا، بالطبع، لأجل الاحتفال بالخطبة، قالت السيدة إيرميليندا.

- وما هو الحل! -لقد فر من الضفدع المسكين-.

XXVII

لقد بدأت آنذاك حياة جديدة لأوغوسطو. كان يقضي اليوم كله تقريباً في منزل خطيبته، لم يكن يدرس علم النفس، بل فلسفة الجمال. وماذا عن روساريو؟ روساريو لم تعد إلى منزلها. المرة التالية التي حملوا لها اللباس إلى المكواة، كانت امرأة أخرى عادية. وسألتها فقط عن عدم قدوم روساريو. لماذا، هل تكهنت بشيء؟ وهذا الاستخفاف، لأنه لم يكن سوى استخفافاً، طبعا لأنها كانت تعرف، وبعيداً من أن تتألم لها، ربما فعلت ذلك صفحاً عنها. حسناً. حسناً سيعوضها بإوخينيا. لأنه بالطبع مازال مع تلك الأوامر: «إيه! حذاري، اترك يديك!» حسناً لقد كانت تتهيأ لأمر آخر!

إوخينيا كانت تراقبه بعينيها، ولا أكثر من ذلك، تهيج شهوته.
مرة قال لها...
– تراودني الرغبة في نظم بعض الأبيات الشعرية في عينيك!

وردت عليه قائلة.
– نظمها.
– وأكثر بالنسبة إليه –أضاف– سيكون من المفيد لو عزفت قليلاً على البيانو. أسمعني نغماتك عبر آلتك الفنية، ستلهمينني.
– لكن كما علمت يا أوغوسطو، أنه منذ أن تفضلت بكرمك، أهملت دروسي، و لم أعد أعزف على البيانو، وأصبحت أكرهه. لقد سبب لي مشاكل كثيرة!
– لا يهم، اعزفي، إوخينيا، اعزفي كي أكتب أبياتي الشعرية.
– ليكن، وليكن لمرة واحدة!

جلست إوخينيا للعزف على البيانو، وبينما كانت تعزف كتب أوغوسطو هذا:

روحي تتيه بعيداً عن جسدي
في الضباب ضائعة من الفكر،
ضائعة هناك بين نغمات الموسيقى
وحسب ما يقولون تغني الأفلاك
ويرقد جسمي وحيداً
بدون روح، حزيناً شارداً عبر الأرض
ولدنا من أجل أن نحرث الحياة معاً
لم يعيشوا، لأنه كانوا مادة
وحيدة وهي أكثر من روح؛
يبحثون عن إنجاز إوخينيا الحلوة!
عيونك بارزة كالينابيع،
بالنور الحي فوق طريقي،
لترسخ في روحي وقد موالها
من الفضاء الغامض إلى الأرض المرئية،
وأدخلوها في جسدي، ومنذ تلك اللحظة،
ومنذ تلك اللحظة فقط أحيا، يا إوخينيا!
إنها عيونك التي تشتعل كالفتيل
والتي تقبض جسدي وروحي.
تجعلاني أحلم في دمي المحموم
وفي لحمي تتحول آرائي.
إن كان هذا نور حياتي سينطفئ
ليفرق بين الروح والمادة،
سأضيع في الضباب السماوي،
ومن الأعماق في شراهة الدجى.

– ما رأيك ؟ –سألها أوغوسطو بعدما قرأها عليها–.
– مثل البيانو الذي أملكه، قليل أو شيء من حيث النغمات. وذلك

«حسب ما يقولون...»
– نعم، إنه لأجل منح المعاملة الودية...
– وعن جملة «إوخينيا الحلوة» يبدو لي ردم للقافية.
– ماذا؟ أأنت كنت ردم؟
– هناك، في تلك الأبيات الشعرية، نعم! وبعد كل ذلك يبدو جداً... جداً...
– هيا، نعم أكثر روائي.
– وما ذلك؟
– لا شيء، نصب جلبناه بيني وبين بيكطور.
– انظر إذن، يا أوغوسطو، أنا لا أريد نصباً في بيتي بعد أن نتزوج. أتعلم؟ لا نصب ولا كلاب. وعليك أن تفكر ماذا ستفعل مع أورفيو.
– ولكن، إوخينيا بربك! أنت تعرفين كيف وجدته، المسكين! إضافة إلى ذلك فهو مستودع أسراري! إنه من أوجه له منولوغي كله.
– عندما سنتزوج لا يجب أن تكون هناك مونولوغات في منزلي. هناك أكثر من الكلب!
– بربك إوخينيا، إن أردت ليبقى معنا حتى نرزق طفلاً...
– إذا كان ذلك...
– طبعاً، إذا رزقنا الله به، وإن لم يكن، فلماذا لا يكون الكلب؟
– ولماذا لا يكون الكلب، والذي تحدث عنه بكثير من العدل بأنه سيكون أحسن صديق للإنسان إن كان يملك مالاً...؟
– لا، لو كان الكلب يملك مالاً ما كان ليصبح صديقاً للإنسان، أنا متأكدة من ذلك. لن يتخذه صديقاً.

في إحدى الأيام قالت إوخينيا لأوغوسطو:
– انظر، يا أوغوسطو، علي أن أكلمك في شيء خطير، خطير جداً، وأرجوك أن تعذرني مسبقاً عن ما سأقوله لك...
– بربك إوخينيا تكلمي!...
– أنت تعرف خطيبي السابق.
– نعم، ماوريسيو.

– ولكن لا تعرف لماذا كان علي أن أحل خطبتي معه لقلة حيائه الكثير.
– لا أريد معرفة ذلك.
– ذلك يشرفك، إذن طيب، كان علي أن أحل خطبتي معه لكسله وقلة أدبه، ولكن...
– هل مازال يتبعك؟
– ما زال!
– آه، لو ضبطته!
– لا، لا ليس ذلك، يتبعني ولكن ليس قصده كما تظن، وإنما أشياء أخرى.
– لنرى! لنرى!
– لا تنزعج، أوغوسطو، لا تنزعج. المسكين ماوريسيو لا ينبح، وإنما يعض!
– آه! إذن افعل ما يقوله المثل العربي: «إذا كنت ستتوقف عند كل كلب يخرج للنباح في الطريق، لن تصل أبداً إلى النهاية.» لا ينفع رميه بالحجارة. لا تبالي به.
– اعتقد أن ثمة طريقة أفضل.
– ما هي؟
– بأخذ الاحتياط من قطع الخبز الناشف في جيبك وقم برميها للكلاب الذين يخرجون للنباح، لأنهم ينبحون من شدة الجوع.
– ماذا تريدين أن تقولي؟
– أن موريسيو الآن لا يحاول سوى أن أبحث له عن عمل كيف ما كان، أو أي وسيلة للعيش، ويقول بأنه سيتركني في سلام وإلا...
– وإذا لم يكن...
– يهدد بمضايقتي كي يحرجني...
– القليل الحياء، الوقح! السارق!
– لا تضخم الأمر، وأعتقد بأنه من الأفضل هو إزاحته من طريقنا بالبحث له عن ما يضمن له العيش، وأن يكون أبعد عنا قدر الإمكان. إذ إضافة إلى أنه من جهتي، الأمر هو نوع من الشفقة، لأن المسكين هو كما هو، و...

- قد يكون معك حق، إوخينيا. وانظري، بأنني سأستطيع تسوية أمره غداً بالضبط سأتحدث مع صديق لي، وأظن أننا سنبحث له عن عمل.
- وفعلا، تمكن من أن يجد له عملاً، وكان مكان تعيينه بعيداً نوعاً ما.

XXVIII

قطب أوغوسطو وجهه ذات صباح عندما أخبرته ليدوبينا بأن هناك شاب ينتظره، ولما التقى به بعد ذلك، وجد أنه ماوريسيو. وكان سيصرفه دون السماع إليه، ولكنه انجذب نحو ذلك الرجل الذي كان في وقت ما خطيباً لإوخينيا، التي ربما كانت، وما زالت تحبه بشكل ما، ذلك الرجل الذي ربما كان يعرف عن تلك التي ستصبح زوجته، زوجة أوغوسطو، أسراراً داخلية كان يجهلها هذا الأخير، ذلك الرجل الذي... هناك شيء كان يجمعهما.

– أنا قادم، سيدي –انتاب ماوريسيو الخجل الكثير– جئت لأقدم لك شكري على معروفك، الجميل الذي أسديته لي بوساطة من إوخينيا في إيجاد عمل لي...

– لا داعي لشكري، سيدي، وأنتظر منك أن تترك من ستصبح زوجتي في سلام مستقبلا.

– ولكن، أنا لم أزعجها بأقل ما يمكن!

– منذ أن ودعتني، وفعلت ذلك بطريقة لبقة لأنني لست أنا من يناسبها، لقد حاولت أن أواسي نفسي وأن أخفف من محنتي وأن أحترم قراراتها طبعا. وإذا كانت قد قالت لك شيئاً آخر...

– أرجوك أن لا تعود إلى ذكر من ستصبح زوجتي، ولو حتى بالتلميح على الأقل عن ما صدر منها من أخطاء، ولو لحد أدنى من الحقيقة، تسلى كما تستطيع ودعنا في سلام.

– إنها الحقيقة، وأكرر لكما معاً شكري على الخدمة التي قدمتموها لي بتوفيري ذلك العمل الصغير. سأذهب لأدائه وسأواسي نفسي كما أستطيع. والحقيقة أنه سترافقني فتاة...

– وماذا يهمني ذلك، يا رجل؟

- إذ يبدو لي أنك تعرفها...
- كيف؟ كيف؟ أتريد أن تسخر مني؟...
- لا، لا.. إنها تلك المدعوة روساريو، الموجودة في معمل لمكواة الملابس، ويبدو لي أنها كانت تقوم بإصلاح ثيابك.

شَحُبَ لون وجه أوغوسطو. «أيعرف هذا كل شيء؟» خاطب نفسه. وهذا أربكه وأقلقه أكثر من شكه السابق، بأن ذلك الرجل كان يعرف عن إوخينيا ما لم يكن يعرفه هو عنها. لكن عقب عليه في الحين صائحاً:
- وما علاقتي أنا الآن بذلك؟
- يبدو لي -تابع ماوريسيو، وكأنه لم يسمع شيئاً- أن المحتقرين يجب أن يتركوا لنا ما نواسي بعضنا البعض.
- ولكن، ما الذي تريد أن تقوله يا رجل، ماذا تريد أن تقوله؟ -وفكر أوغوسطو، لو كان هناك، في المكان الذي كان مسرحاً لآخر مغامرته مع روساريو، كان سيخنق هذا الرجل أم لا-.
- لا تتهيج هكذا، سيد أوغوسطو، لا تتهيج هكذا! لا أريد أن أقول لك سوى ما سبق أن قلته لك. هي... تلك التي لا تريد أن أكون كاذباً عليك، احتقرتني، احتقرتني، وأنا وجدت مع تلك البنت المسكينة ما لم يجده عندها الآخر الذي احتقرها، و...

لم يستطع أوغوسطو أن يتمالك نفسه، شحب وجهه أولاً، واشتعل غضباً بعد ذلك، وأخذ ماوريسيو نفسه من ذراعيه وأوقفه وهو مضطرب فألقاه على الأريكة، دون أن يبالي بما كان يفعله، وكأنه يريد خنقه. وعندما رأى ماوريسيو نفسه على الأريكة، قال ببرودة الأعصاب
- أنظر الآن، سيد أوغوسطو، إلى بؤبؤ عيني وسترى بأنك صغير فيهما...

المسكين أوغوسطو، أحس بالذوبان. على الأقل ذابت قوة ذراعيه الكاملة، وبدأت الحجرة تتحول إلى ضباب أمام عينيه، ففكر: «أأكون أحلم؟» ووجد نفسه واقفاً أمام ماوريسيو مواجهاً له. ونظر إليه وهو يبتسم

ابتسامة ماكرة:

- آه، لم يحدث شيء، سيد أوغوسطو، لم يقع أي شيء! سامحني، إنها حالة التهيج... لم أدر ما فعلته...، ولا شعرت به... وشكراً، شكراً مرة أخرى شكراً! شكراً لك ولها! إلى اللقاء!

لم يكد يخرج ماوريسيو، حتى نادى أوغوسطو على ليدوبينا.

- قولي، ليدوبينا، من كان هنا معي؟

- شاب.

- ما علامته؟

- ولكن، هل تحتاج بأن أقول لك ذلك؟

- أحقيقة أنه كان معي هنا أحد؟

- سيدي؟

- لا... لا... أقسم لي بأنه كان هنا معي شاب، وصفي لي ملامحه... طويل، أشقر أليس كذلك؟ له شارب، بدين أم هزيل، أنفه عقابي... هل كان هنا؟

- ولكن، هل أنت بخير سيدي أوغوسطو؟

- ألم يكن حلماً؟

- ربما كنا نحلم نحن الاثنان...

- لا، لا يمكن أن نحلم في نفس الوقت، ونفس الشيء. وبالضبط يعرف بأن شيئاً ليس حلماً مادام لا يخص شخصاً واحداً...

- إذن، نعم! كن مطمئناً، نعم! كان ذلك الشاب الذي قال...

- ماذا قال عند خروجه؟

- لم يكلمني عند خروجه...، ولا رأيته...

- وأنت، هل تعرفين من هو، يا ليدوبينا؟

- نعم، أعرف من هو، الذي كان خطيباً لـ...

- نعم، يكفي والآن لمن هي؟

- ذلك يعني أنني أعرف أكثر من اللازم.

- أنتن النساء تعرفن الكثير من الأشياء لم تتعلمنها...!

- نعم، وعلى العكس لا نحصل على ما يريدون تعليمه لنا.

- حسناً إذن، قولي الحقيقة، ليدوبينا، ألا تعرفين مع من يمشي الآن ذلك... الحقير؟
- لا، ولكن أتصوره.
- لماذا؟
- بسبب ما تقوله .
- حسناً، نادي الآن على دومينغو.
- لأجل ماذا؟
- لأعرف إن كنت ما زلت أحلم كذلك أم لا، وهل أنت كنت على حق يا ليدوبينا، زوجته أو إن...
- أوه، وهل دومينغو يحلم كذلك؟ ولكن أعتقد بأن هناك شيئاً آخر أحسن.
- ما هو؟
- حتى يأتي أورفيو.
- معك الحق، ذاك لا يحلم!

بعد فترة وجيزة، عندما خرجت ليدوبينا، دخل الكلب.

«تعالى إلى هنا، يا أورفيو -قال له صاحبه- تعالى إلى هنا أيها المسكين! لم يبق لك إلا أيام قليلة للعيش معي! لا تريدك هي في البيت. وإلى أين سألقي بك؟ ماذا سأفعل بك؟ ماذا سيكون مصيرك بدوني؟ هل أنت قادر على أن تموت، أعرف ذلك! الكلب وحده قادر على أن يموت، لأنك بدون صاحب. وأنا كنت أكثر من صاحبك، والدك! إلاهك! لا تريدك في البيت، ستبعدك عني! لأنك أنت، رمز للوفاء، أتزعجها في البيت؟ من يعرف ذلك!... ربما أن الكلب يدهش بأسراره الكثيرة الأفكار البشرية التي يعيش معها، وإن كان صامتاً...؟ وعلي أن أتزوج، ليس لي أكثر من وسيلة من زواجي... وإلا، لن أخرج أبداً من الحلم! علي أن أستيقظ. ولكن لماذا تنظر إلي هكذا، أورفيو؟ أظنك تبكي بدون دموع!... هل تريد أن تقول لي شيئاً؟ أراك تعاني لعدم وفائي معك، لقد تأكدت بسرعة على أنك لا تحلم! أنت تعلم بأنني أحلم يا أورفيو! لماذا نحن رجال، الرجال وإلا لأنه هناك كلاب وقطط وخيول

وثيران، ونعاج وكل أصناف الحيوانات، وخصوصاً الأليفة منها، هل هناك نقص في الحيوانات الأليفة كي نخفف ثقلها من عالم الحيوانات في الحياة ليصل الإنسان إلى إنسانيته؟ ألم يكن الخيل أليفاً للإنسان الذي أراد نصف سلالتنا ليصل على عاتقه النصف الآخر؟ نعم بالنسبة إليكم تستحقون الحضارة. والنساء، ولكن ألم تكن ربما المرأة حيوان أليف آخر؟ وفي غياب النساء، أيكون الرجال هم الرجال؟ آه يا أورفيو، يأتي من الخارج من سيطردك من البيت!»

واحتضنه في حجره، والكلب كان يبدو فعلاً يبكي ويلحس لحيته.

XXIX

الكل كان مهيئاً لحفل الزفاف. أوغوسطو كان يرغب أن يكون عادياً متواضعاً ولكن هي، زوجته في المستقبل كان يبدو عليها أنها تفضل أن يعطى له أكثر أبهة وصدىً.

بقدر ما كان يقترب ذلك الموعد كان العريس يتأجج ليبقى متمسكاً ببعض حرياته واطمئنانه، أما إوخينيا فكانت متحفظة جداً.

– لكن، بعد أيام سيصبح الواحد منا للآخر، يا إوخينيا.

– من أجل ذلك، يجب علينا أن نبدأ منذ الآن باحترام بعضنا البعض.

– الاحترام... الاحترام... الاحترام يلغي العواطف.

– ذلك، سيكون اعتقادك أنت... وأخيرا يا رجل!

وأوغوسطو لاحظ فيها شيئاً غريباً، شيئا مجهدا. أحياناً تبدو له بأنها تعمل على تفادي نظراته. وتذكر أمه، أمه المسكينة، وحنينها الذي كانت تحس به دائماً نحو ابنها حتى يتزوج على ما يرام. والآن يقترب زواجه مع إوخينيا، ما كان يعذبه كثيراً هو ما قال له ماوريسيو بأنه قد يصحب معه روساريو. فشعر بالغيرة الخانقة، والغضب لأنه ترك الفرصة تمر للتفاهة التي كان فيها أمام الصبية. «الآن سيضحكون علي معاً –يقول في نفسه– وهو ضعف ذلك لأنه ترك إوخينيا تستدرجني وأخذ مني روساريو» وأحياناً تنتابه رغبات هائجة لقطع التزامه والذهاب إلى الظفر بروساريو، وخطفها من ماوريسيو.

وعن تلك الصبية، عن تلك روساريو، ماذا فعلوا بها؟ –سألته إوخينيا أياماً قبل يوم الزفاف–

– ماذا يفيد تذكيري بها الآن؟

- آه، إذا لم تعجبك الذكرى، سأتركها!
- لا... لا... ولكن.
- نعم، كما هو الشأن، مرة قطعت هي مقابلتنا... ألم تعد تعرف عنها شيئاً؟ ونظرت إليه نظرة مخترقة.
- لا، لا لم أعد أعرف عنها شيئاً.
- من الذي سيعمل على الظفر بها أو من سيظفر بها الآن؟... -وحولت نظرتها عن أوغوسطو وركزتها في الفضاء. أبعد إلى ما كانت تنظر.-

مرت في ذهن العريس أفواج من الطيرة الغريبة. «يبدو أنها تعرف شيئاً» «قالها في نفسه، وبعد ذلك بصوت مرتفع»:
- هل تعرفين شيئاً؟
- أنا، -ردت عليه مظهرة عدم المبالاة، وعادت لتنظر إليه-.

طفا بينهما شبح الأسرار.
- ظننت أنك ستنساها...
- لكن، لم هذا الإلحاح في الحديث معي عن تلك... الصغيرة؟
- وماذا أعرف أنا!... ليكن الحديث عن شيء آخر، ماذا سيحدث لرجل عندما ينزع منه الآخر زوجته التي كان قد خطبها ويأخذها منه؟

صعدت موجة من الدم إلى رأس أوغوسطو عند سماع هذا، وراودته الرغبة في الخروج راكضا، باحثا عن روساريو ليفوز بها ويعود معها عند إوخينيا، ليقول لها: «ها هي أمامك، إنها ملكي وليست لحبيبك ماوريسيو!»

بقيت ثلاثة أيام لحفل الزواج. أوغوسطو خرج من منزل عروسته يفكر مهموما. لم يكد ينم في تلك الليلة.

وفي اليوم التالي، لم يكد يستيقظ، حتى دخلت ليدوبينا إلى غرفته.
- توجد هنا رسالة لك يا سيدي، جاءتك الآن. أظن أنها من السيدة

إوخينيا.

- رسالة؟ رسالة منها؟ رسالة من عندها؟ أتركيها هناك واذهبي!

خرجت ليدوبينا، وبدأ أوغوسطو يرتعش، قلق غريب زعزع قلبه. تذكر روساريو، ثم ماوريسيو، ولكنه لم يرد أن يمس تلك الرسالة. نظر إلى الغلاف مرعباً. قام واغتسل ولبس ثيابه، وطلب فطوره، التهمه بعد ذلك. «لا، لا أريد أن أقرأها هنا» قال في نفسه.

خرج من منزله، وذهب إلى الكنيسة الأكثر قرباً، وهناك بين بعض العباد الذين يستمعون إلى القداس، فتح الرسالة. «هنا علي أن أضبط نفسي -قالها في نفسه- لأنني لا أعرف أية أشياء يقولها لي القلب» وكانت الرسالة تقول:

المحترم أوغوسطو: عندما تقرأ هذه السطور، سأكون أنا مع ماوريسيو في الطريق إلى القرية حيث عين فيها بفضل لطفك، وعلي أن أستفيد كذلك من مداخيلي، إضافة إلى أجرته والتي ستسمح لنا بالعيش معاً بشيء من الراحة. لا أطلب منك أن تسامحني، لأن بعد، هذا، أظن بأنك سوف تقتنع بأنني لم أكن أنا التي ستسعدك، ولا أنت بالنسبة لي على الأقل. بعد أن تتجاوز انطباعك الأول، سأعود للكتابة إليك لأشرح لك لماذا أقدمت على هذه الخطوة الآن وبهذه الطريقة. ماوريسيو كان يريد أن نهرب في نفس يوم الزفاف، بعد الخروج من الكنيسة، ولكن خطته كانت معقدة جداً وبدا لي زيادة على ذلك، أنها قساوة لا فائدة منها. وكما قلت لك في إحدى المناسبات، أظن أننا سنظل أصدقاء.

صديقتك إوخينيا دومينغو ديل أركو

ملاحظة:

لم تأت معنا روساريو، بقيت هناك، يمكن أن تواسيك.

استلقى أوغوسطو على المقعد محطماً. وفي لحظة وجيزة ركع وصلى.

عند خروجه من الكنيسة كان يبدو له أنه يسير هادئاً، كان هدوءً رهيبا من الخجل والحرج، توجه إلى بيت إوخينيا حيث وجد به عميها المسكينين مفجعين، بنت الأخ كانت قد أخبرتهما من خلال رسالة بقرارها الحاسم، و لم

تقض الليل كله في المنزل. فقد ركبا الاثنان القطار عند هبوط الليل، بعد آخر لقاء أوغوسطو مع خطيبته.

– ماذا سنفعل الآن؟ –قالت السيدة إيرميليندا–

– وما عسانا أن نفعل سيدتي –رد عليها أوغوسطو– سوى أن نصبر؟

– هذا فعل غير جدير –صاح ضون فيرمين–؛ هذه الأمور لا يجب أن تبقى دون عقوبة!

– وأنت ضون فيرمين، أنت هو الأنارشي؟

– ما علاقة هذا بالموضوع؟ هذه الأمور لا تكون هكذا، لا يخدع الرجل هكذا!

– وستخدعه

– ... لم تخدع الآخر! قال ببرودة أوغوسطو –وبعد قوله هذا– أحس برهبة باردة لما قاله.

– وستخدعه... ستخدعه، لا شك في ذلك!

أحس أوغوسطو بلذة شيطانية عندما اعتقد أن إوخينيا ستخدعه. و«لكن ليس معي»، قالها بصوت منخفض، بطريقة لا يكاد يسمع نفسه.

– حسناً، أيها السادة، أتأسف لما حدث، وأكثر على بنت أخيك. وسأغادر

– أنت ستفهم، أوغوسطو، أننا... –بدأت السيدة إرميليندا حديثها–

– واضح، واضح، ولكن...

– هذا لا يمكن أن يمتد و يطول. وخرج أوغوسطو، بعد أن أضاف كلمات مقتضبة.

يمشي مرعباً من نفسه، ومن ما كان يحدث له. أو على الأقل مما لم يحدث له. تلك البرودة الظاهرة على الأقل، التي تلقى بها الضربة من سخرية كبيرة، تلك السكينة جعلته يشك في وجوده نفسه. «لو كنت أنا رجل مثل الآخرين –قالها في نفسه– له قلب، لو كنت على الأقل رجلاً، لو كنت موجودا حقيقة كيف استطعت أنا أن أتلقى هذا الأمر بهدوء نسبي؟» وبدأ دون أن يشعر بذلك أن يتحسس حتى أنه قرفص نفسه لكي يتأكد منها.

في الحين، أحس أن أحداً يجره من رجله، كان أورفيو، الذي خرج للقائه

ولمواساته. ولما رأى أورفيو أحس بشيء غريب، سرور كبير، وأخذه بين ذراعيه و قال له:

افرح يا أورفيو! افرح! لنفرح معاً! لن تُطرد من البيت، لن تفترق عني! لن يفرقوا بيني وبينك! سنعيش معاً في الحياة وفي الموت. الشر يأتي من فعل الخير. مهما كان الشر كبيراً ومهما كان صغيراً الخير أو العكس! أنت، أنت مخلص، يا أورفيو، أنت مخلص! أنا أتوقع أنك في بعض المرات ستبحث عن كلبتك، لكن ليس من أجل ذلك، أنت مخلص، وانظر لكي لا تذهب إلى الأبد، سآتي بكلبة إلى البيت، نعم، سآتيك بها، لأن الآن، هل خرجت إلى لقائي لمواساتي في ما أصابني من حزن أو إلى لقائي بعد عودتي من زيارة كلبتك؟ وفي كل الأحوال، أنت مخلص، أنت، سوف لن يطردك أي أحد من بيتي، لن يفصلنا أي أحد»

دخل إلى بيته، و لم يعد يجد نفسه في حالة هادئة، فقط انفجرت بروحه العاطفة التي كانت تسكنه.

سيطر عليه إحساس، حيث اختلط فيه الحزن المر، الغيرة، الغضب، الخوف، الكراهية، الحب، العاطفة، الاحتقار، وفوق كل شيء، الحياء، حياء ضخم، وعيه الرهيب للموقف السخيف الذي بقي فيه.

– لقد قتلتني! قالتها ليدوبينا

– من؟

– هي

انعزل في غرفته، وفي نفس الوقت، كانت تمر أمامه صور إوخينيا مع ماوريسيو، وكانت تحضره كذلك صور روساريو، والتي كانت تسخر منه. وكان يتذكر أمه. واستلقى على الفراش، أعظ المخدة، لم يكن صائباً فيما كان يقوله بالملموس، وتبكم في مناجاته، أحس وكأن روحه توخز وانفجر بكاءً، وبكى، وبكى، وبكى. وفي بكائه الصامت ذاب فكره.

XXX

وجد بيكطور أوغوسطو منهارا في ركن من الأريكة ينظر إلى الأرض.

– ما هذا؟ سأله وهو يضع إحدى يديه على كتفه.

– وتسألني ما هذا؟ ألا تدري ما الذي حدث لي؟

– نعم، أعرف ما حدث لك من الخارج، بمعنى عن الذي فعلته هي: الذي لا أعرفه هو ما يحدث لك من الداخل، بمعنى لا أعرف لماذا أنت على هذه الحالة...

– يبدو مستحيلا!

– لقد ذهب عنك الحب، ذاك أ A، لم يبق لك إلى ذاك ب B أو ذاك ث C أو ذاك X (إكس) أو أخرى كيفما كانت من ن N؟

– ليست المناسبة للمزاح، أعتقد.

– بالعكس، هذه هي مناسبة المزاح.

– إنه لا يؤلمني الحب؛ إنها السخرية، السخرية، السخرية! لقد سخروا مني، استهزأوا بي، لقد جعلوني أضحوكة؛ أرادوا أن، يبينوا لي... ماذا أعرف أنا؟... بأنني غير موجود.

– يا لها من سعادة!

– لا تسخر يا بيكطور.

– ولماذا علي أن أسخر؟ أنت عزيزي أوغوسطو، لقد كنت المجرب وأصبحت المجرّب، فقد حاولت أن تمسكها كضفدعة، وهي من مسكتك كضفدع، أوغوسطو إذن في البركة، ونقنق وعش!

– ارجوك مرة أخري...

– ألا أمزح، إيه؟ إذن سأمزح، لأجل هذه المناسبات وجدت السخرية.

– إن ذلك قارض.

– يجب أن تقرض، ويجب أن تمزج، تمزج في كل شيء، مزجه كله. أن تخلط الحلم بالسهر، الوهم بالحقيقة، الصحيح بالزائف، وخلطه كله في ضباب واحد، المزاح الذي لا مقرضا وممزوجا لا يصلح لأي شيء، الطفل يضحك من التراجيديا؛ الشيخ يبكي في الكوميديا. أرادت أن تحولك إلى ضفدع، فحولتك إلى ضفدع، فأقبل إذن، وكن لنفسك ضفدعة.

– ماذا تريد أن تقوله بهذا؟

– قم بالتجربة في نفسك أنت.

– نعم، بأنه علي أن أنتحر.

– لا، أقول نعم ولا أول لا، سيكون حلا كالآخر، ولكن ليس أحسن. إذن، ابحث عنهما واقتلهما.

– القتل لأجل القتل هو قدر، كحد أقصى للتحرر من الكراهية، ولا يعمل سوى على إفساد الروح، لأن أكثر من حقود شفى من الحقد وأحس بالشفقة، وحتى ضحية الحب، في اللحظة التي يقع فيها إشباع كراهيته فيها، الفعل الشيء يتحرر من الإحساس السيء، ولأن القانون يفعل الخطيئة.

– وما الذي سأفعله.

– ربما سمعت بأن في هذا العالم ليس ثمة سوى أن تلتهم أو تكون ملتهما.

– نعم، أن تسخر من الآخرين، أو يسخرون منك.

– لا، هناك متسع لمصطلح ثالث وهو التهام الواحد لنفسه، السخرية من نفسه بنفسه. إلتهم! الذي يلتهم يتمتع، لكن لا تشبع من التذكير من انتهاء تمتعك، وتكون متشائما، الذي يكون ملتهما يعاني، ولا يشبع من انتظار التحرر من المآسي ويكون متفائلا. التهم نفسك بنفسك، وبما أن لذة التهام ستمتزج وستبطل مع الألم من كونك ملتهم، وستصل إلى الاتزان الكامل للنفس، إلى عدم المبالاة؛ لن تكون سوى مجرد شاهد على نفسك بنفسك.

– وهل ستكون أنت، بيكطور، أنت من ستأتيني بتلك الأشياء؟

– نعم، أنا، يا أوغوسطو، أنا هو أنا!

– في زمن لم تكن تفكر في تلك الطريقة أكثر... قارضا.

– لن تكون أبا حينذاك.

– ولماذا تكون أبا؟

– لتكون أباً، بالنسبة لمن يكون أحمقاً أو بليداً، يوقظه الأكثر رهبة في الرجل: الإحساس بالمسؤولية! أنا أسلم لابني ميراثا دائماً من الإنسانية. للتأمل في غرابة الأبوة عليك بالتحول إلى مجنون، وإذا كان العديد من الآباء لا يتحولون إلى مجانين فلأنهم أغبياء، أو ليسوا آباء. تمتع، إذن أوغوسطو، فمع الذي هربت معه قد حال ربما من أن تكون أبا. وأنا قلت لك بأن تتزوج، وليس لتصبح أباً. الزواج هو تجربة سيكولوجية، والأبوة هي حالة مرضية. لقد جعلت مني أبا يا بيكطور!

– كيف؟ جعلت منك أبا؟

– نعم، مني أنا نفسي! بهذا أعتقد بأنني ولدت حقاً. وحتى أعاني، لأموت.

– نعم، الولادة الثانية، الحقيقة، الولادة من أجل الوعي بألم الموت المستمر، على أننا نموت دائما، لكن إذا أصبحت أبا لنفسك، أي أنك أصبحت ابنا لنفسك أنت كذلك.

– يبدو مستحيلا، بيكطور، يبدو مستحيلا أن يحدث لي ما حدث. بعد الذي فعلته معي... هي! يمكنها بعد ذلك أن تسمع بهدوء لهذا الكلام الدقيق، هذه الألعاب بالأفكار، هذه الدعابات، وحتى شيء أسوء من ذلك...

– ماذا؟

– لأنها تسليني. أغيظ نفسي ضدي بنفسي!

– إنها الكوميديا يا أوغوسطو، إنها الكوميديا التي نمثلها نحن أمام بعضنا البعض، والتي تسمى بالميدان الداخلي على خشبة الوعي المسرحي الذين يقومون بدور المهرجين والمشاهدين. وفي مشهد الألم نقدم الألم ويبدو لنا النقيض والذي فجأة يدخل الرغبة في الضحك حينذاك. وبقدر ما تمنحنا الرغبات أكثر منها، كوميديا، كوميديا الألم!

– وهل كوميديا الألم تؤدي بالواحد إلى أن ينتحر؟

– كوميديا الانتحار!

– إنه يموت حقا!

– كوميديا كذلك!

– إذن، ما هو الواقعي، الحقيقة، الإحساس؟

– ومن قال لك بأن الكوميديا ليست واقعية وحقيقية وإحساس؟

- ماذا؟
- وأن الجميع هو واحد، وهو نفسه، ويجب المزج، يا أوغوسطو، يجب المزج، والذي لا يمزج، يُمزج.
- وحتى الذي يمزج كذلك.
- ربما
- وماذا؟
- إذن هذا، ثرثرة، التدقيقي، واستعمال التورية... تمضية للوقت!
- نعم ، إنهم هم الذين يمرون!
- وأنت كذلك! هل وجدت في عينيك أنت مرة أهمية أكثر من الآن؟ كيف يعرف الواحد بأنه يملك عضوا إذا لم يكن يؤلمه؟
- حسناً، وماذا سأفعل أنا الآن؟
- افعل، افعل، افعل! خلاص، لقد بدأت تحس بأنك شخصية مسرحية، من الدراما أو من الرواية! لنفرح لأننا سنكون من نيبولا! افعل! افعل! افعل! هل يبدو لك بأننا نفعل قليلا مع كوننا نتكلم؟ الهوس بالحركة، بمعنى تشخيص صامت، يقولون بأنه تمر أشياء كثيرة في دراما، واحدة عندما يقدر الممثلون على القيام بإشارات وتقديم خطوات كبيرة، ويختلقون الآلام والقفز و... التمثيل الصامت! التمثيل الصامت! يتكلمون كثيرا! يقولون مرات أخرى. كما لو كان الكلام ليس هو الفعل، في البدء كانت الكلمة، وعبر الكلمة كان كل شيء، وإذا كان الآن مثلا، أحد كتاب «نيبولا» مثقفا هناك خلف ذلك الدولاب، خذ فكرة اختزالية عن كم مكثنا هنا نقول ونعيد إنتاجه، إنه من السهل أن يقول القراء بأنه لم يقع أي شيء ومع ذلك...
- آه، لو استطاعوا أن يروني من الداخل، بيكطور، أؤكد لك بأنهم لن يقولوا أي شيء!
- من الداخل؟ من داخل من؟ من داخلك أنت؟ أم من داخلي أنا؟ نحن لا نملك دواخل، عندما لا يقولون بأن هنا لا يقع شيئا هو عندما يستطيعون الرؤية من داخل أنفسهم هم، لأولئك الذين يقرأون. إن روح الشخص من الدراما، من الرواية أو من نيبولا، لا يملك داخلا أكثر مما منح له...
- نعم، مؤلفه.
- لا القارئ.

– إذن أنا أؤكد لك، يا بيكطور..
– لا تؤكد أي شيء، والتهم، إنه المؤكد.
– سألتهم، سألتهم، لقد بدأت، بيكطور، كظل، كقصة خيالية، خلال سنوات تلهث مثل الشبح، كدمية من الضباب، دون اعتقاد في وجودي الذاتي، تخيلت نفسي أنني أصبحت شخصية شبحية اخترعها مثقف عبقري من أجل أن يتسلى أو للتخفيف عن همومه، ولكن الآن، بعد الذي فعلوه معي، بعد هذه السخرية، من السخرية الشرسة، الآن نعم، الآن أتأسف، الآن أهدأ الآن لا أشك في وجودي الواقعي.
– كوميديا! كوميديا! كوميديا!
– كيف؟
– نعم في الكوميديا يدخل كل ما يعتقد واقعي والذي يمثله.
– ولكن ما الذي تقترحه مع كل هذا؟
– تسلى. أضف إلى ذلك، كما سبق أن قلت لك، كاتب رواية قصيرة «نيبولا» مثقف لم يكن يستمع إلينا يسجل فكرة عن كلماتنا كي يعيد إنتاجها يوما ما، قارئ نيبولا، كما هو حالنا.
– وذلك، لأجل ماذا؟
– من أجل تخليصه.
– نعم، لقد سمعت القول بأن أكبر ليبرالي للفن، هو من يعمل على أن ينسى الواحد بأنه موجود. هناك من يتعمق في قراءة الروايات ليس لي نفسه، كي ينسى أحزانه...
– لا، الأكثر ليبراليا للفن هو من يجعل الواحد يشك في وجوده.
– وما هو الوجود؟
– ألا ترى؟ بأنك بدأت تشفى؛ لقد بدأت تلتهم نفسك، الدليل على ذلك السؤال. تكون أولا تكون!... كما قال هملت، واحد من الذين اختلقهم شكسبير.
– إذ بالنسبة لي، يا بيكطور، ذاك من أن تكون أولا تكون بدا لي دائما كلام رسمي فارغ.
– الجمل، كلما كانت عميقة، كانت أكثر فراغا. ليس هناك عمقا أكبر من عمق بئر بدون قاع، ماذا يبدو لك، فيما هو أكثر حقيقة من الكل؟

- إذن... إذن... ما قاله ديكارت: «أنا أفكر، إذن أنا موجود».
- لا، وإنما هذا: A=A (أ=أ).
- ولكن، ذلك ليس شيئا!
- ولأجل نفس الشيء، هو أكثر حقيقة، لأنها لا شيء. ولكن ذلك فراغ آخر لديكارت، هل تعتقد أنه لا جدال في ذلك؟
- وأكثر!
- إذن طيب، هل قال ذلك ديكارت؟
- نعم!
- ولم يكن حقيقة. لأن مثل ديكارت، لم يكن سوى أكثر من بين التصورات، ابتكار من التاريخ، إذ... لم يوجد... ولا فكر!
- ومن قال ذلك؟
- ذلك لم يقله أحد... ذلك قاله هو نفسه.
- إذن، هل الذي كان وفكر كان هو التفكير ذاته؟
- واضح! وتصور تلك المعادلة في القول بأن الوجود هو التفكير، ومن لا يفكر غير موجود.
- الأمر واضح!
- إذن لا تفكر يا أوغوسطو، لا تفكر.
- حتى وإن صممت على التفكير...
- ماذا؟
- إلتهم نفسك!
- بمعنى، أأنتحر...؟
- في ذلك لا أريد أن أتدخل. إلى اللقاء!
- وخرج بيكطور، وقد ترك أوغوسطو ضائعا غارقا في أوهامه.

XXXI

تلك العاصفة الروحية لأوغوسطو انتهت كهدوء رهيب، في قراره بالانتحار، كان يريد أن يقضي على نفسه، وكان ذلك منبعا لشقائه الشخصي، لكن قبل أن يصل إلى نهاية هدفه، كالغريق الذي يمسك بخشبة ضعيفة، إن ما حدث له استشارته في ذلك معي، مع مؤلف كل هذه الحكاية، وكان إذ ذاك قد قرأ أوغوسطو إحدى دراساتي التي وإن كانت قديمة، تتحدث عن الانتحار، وأي وقع بدا له فعله، هكذا كما هو الأمر مع دراساتي الأخرى التي قرأها، التي لم أكن أريد أن أترك هذا العالم دون أن أكون قد عرفت وتحادثت لحظة معي. أقدم إذاً على السفر إلى هناك، إلى سلامنكا، حيث عشت أكثر من عشرين سنة، لزيارتها.

عندما أخبروني بزيارته ابتسمت مبهما وطالبته بالمرور إلى مكتبي بالمكتبة، دخل إليه وكأنه شبح، نظر إلى لوحة زيتية لي حيث تتصدر كتب مكتبتي، وبإشارة مني جلس مواجها لي.

شرع يحدثني عن أعمالي الأدبية لا أكثر ولا أقل الفلسفية، موضحا فهمه لها بشكل جيد نوعا ما، الذي لم يترك، بوضوح تام! تملقي، ومباشرة بدأ يحكي عن حياته، وشقائه. قاطعته قائلا له: بأن يوفر ذلك العمل، إذا عن خطوب حياته كنت أعرف عنها أنا أكثر مثله، وقد أوضحت له ذلك ساردا له التفاصيل الأكثر حميمية والتي كان يعتقدها هو أكثر سرية، نظر إليه بعيون مرعبة حقيقية كمن ينظر إلى مخلوق غريب؛ كان يعتقد أن لونه قد تغير ورسم على محياه إلى حد أنه كان يرتعش، وكنت أنا مفتونا به من قبل.

- يبدو أنه كاذب! -كررها- يبدو أنه كاذب! لو لم يراه ما كان لا يظن

أنه هو... لا أعلم إن كنت يقظا أو أحلم...

- لا يقظاً ولا حالماً -رد عليه-.

- لم أشرح له ذلك... لم أشرح له ذلك -أضاف- أكثر مما يبدو سيادتك معرفته عني أكثر كما عرفته أنا بنفسي، كان هدفي ربما صائبا...

- نعم -قلت له-؛ أنت -وأكدت له أنت بلهجة سلطوية- أنت، متضايق بسبب مصائبك، أدركت الفكرة الشيطانية لانتحارك، وقبل أن تفعل ذلك، بحافز شيء قد قرأته في إحدى أبحاثك الأخيرة، جئت لتستشرني فيه.

الرجل المسكين كان يرتعش كذلك المتسمم بالزئبق، ناظرا إلي كما ينظر المملوك من طرف الجن، حاول الوقوف، ربما للهروب مني، لم أكن أقدر، لم يكن يتوفر على قدرات.

- لا، لا تتحرك! -أمرته بذلك-.

- إذ أن... إذ أن... -تمتم-.

- هو أنك لا يمكنك الانتحار، وإن أردت ذلك.

- كيف؟ -صاح عندما رأى نفسه ملغى ومعاكس-.

- إذن، كي يستطيع المرء قتل نفسه، ما هي ضرورة ذلك؟ -سألته-.

- أن تكون له الجرأة على فعل ذلك -أجابني-

- لا -قلت له- أن يكون حيا!

- طبعا!

- وأنت ألست حيا؟ أأنا مت؟ -وبدأ دون أن يعي بما كان يفعله، بأن يتحسس نفسه.

- لا، يا رجل لا! -عقبت عليه- قلت لك قبل من أن تكون نائما ولا أن تنام، والآن أقول لك إنك أنت لست بميت ولا حي.

- انتبه بربك من فضلك، من شروحاتك مرة واحدة، إنهي تفسيرك!

- رجاني مضجراً -لأن مثل هذه الأشياء التي أراها وأسمعها في هذا المساء، أخشى أن أجن.

- إذن طيب: الحقيقة هي، يا عزيزي أوغوسطو -قلت له بأعذب صوتي، بأنك لا تستطيع الانتحار لأنك لست بحي وبأنك لست بحي، ولا ميت كذلك، لأنك ليس لك وجود...

- كيف أني لست موجودا؟ -صاح-
- لا توجد إلا ككائن خيالي، لست يا أوغوسطو المسكين، لست إلا إنتاج خيالي، ومن خيال قرائي الذين سيقرؤون الحكاية التي أقف فيها على مغامراتك المزعومة، وبطولاتك الفاشلة التي كتبت عنها، أنت لست أكثر من شخصية روائية أو رواية قصيرة أو كما تريد تسميته، إنك تعرف سرك. عند سماع ذلك مكث الرجل المسكين ينظر إلي برهة من الزمن، بإحدى نظراته الثاقبة التي تبدو أنها تخترق منظارها وتصل إلى أبعد من ذلك، ثم رأى لحظة اللوحة الزيتية التي تتصدر كتبي، فأعادت له لونه ونفسه، وبدأ يسترجع، حالته الطبيعية وملك ذاته، أسند غمرتيه على النقالة التي كانت مواجهة لي ووجهه بين كفيه ناظرا إلي بابتسامة في عينيه، قائلا لي بتمهل:
- انظر جيدا دون ميغيل... أن لا تكون مخطئا وأن يحدث كل العكس ما كنت تعتقد وتقول.
- وما هو العكس؟ -سألته مهولا عن ما رأيته يستعيد حياته الخاصة-.
- أن لا تكون عزيزي ضون ميغيل -أضاف- أنتَ ولست أنا كائنا من الخيال، الذي لا يوجد في الواقع، لا حيا ولا ميتا. ألا تكون أنت غير وسيلة لكي تصل قصتي إلى العالم...
- هذا ما كان ينقصني! -صاح منزعجا-.
- لا تتهيج هكذا سيد أونامونو -عقب عليه- هدئ نفسك. أنت قد أظهرت شكوكا حول وجودي...
- شكوك، لا -قاطعته- يقين مطلق بأنك لا توجد خارج إنتاجي الروائي..
- طيب، إذاً لا تقلق راحتك بهذا القدر، إذا كنت أنا بدوري، أشك في وجودك، ولا أشك في وجودي أنا. لنراجع الأمور: ألست أنت الذي ليس مرة واحدة، بل عدة مرات، القائل بأن ضون كيخوطي وضون سانشو هما ليسا واقعيين، بل أكثر واقعية من سيربانطيس؟.
- لا استطيع أن أنفي ذلك، لكن كنت أقصد بقولي ذاك...
- طيب، دعنا من تلك المعاني، ولننتقل إلى مسألة أخرى، عندما يكون الرجل نائما وجامدا على السرير يحلم شيئا، أي شيء له وجود أكثر أهو كوعي نائم أو حلم؟

– وإن كان يحلم هو نفسه موجود الحالم؟ –أنا عقبت عليه بدوري–. في تلك الحالة، صديقي ضون ميغيل، سألته أنا بدوري، بأي طريقة يوجد هو كحالم يحلم، أو كحالم لذاته؟ وتمعن، إضافة إلى أن تقبل هذا النقاش معي معناه أنك تعترف بوجودي المستقل عن ذاتي.

– لا، ذاك، لا! ذاك لا! –قلت له بحيوية– أريد أن أناقش، بدون نقاش، بدون نقاش لا أحيا وبدون تناقض، وعندما لا أجد خارج نفسي مع من أتناقش وأتناقض، أختلق داخل نفسي من يقوم بذلك. المونولوغ هو حوارات.

– وربما الحوارات التي تشكلها أنت ليست أكثر من مونولوغات ممكنة، لكن أقول لك وأكرر أنك غير موجود خارج ذاتي...

– وأنا أعود لألمح لك فكرة بأنك أنت الذي لا توجد خارج ذاتي وخارج الشخوص الروائية الأخرى التي تعتقد أنك خلقتها. أنا متأكد من آرائي السيد آبيطو كاراسكال والكبير السيد فولخينسيو...

– لا تكذب على ذلك.

– جيد، كفى، لا أنت. ولنرى، ما رأيك أنت في انتحاري؟

– إذاً، رأيي بما أنك لا توجد سوي في مخيلتي لا أكثر، أكرره لك، وبما أنه لا يجيب عليك ولا تقدر أن تفعل سوى ما تمليه علي رغبتي، وما دامت رغبتي الحقيقية لم ترغب في ذلك بأنك ستنتحر، فلن تنتحر مستقبلا، قلته لك!

– ذلك بأن الرغبة الحقيقية ليست ممكنة، السيد أونامونو، إنها إسبانية جدا، لكن بشعة جدا. وإضافة حتى لو افترضنا بأن نظريته العجيبة بأنني لم أكن موجودا حقيقيا وأنت موجود، وبما أنني لست سوى أكثر من مخلوق متخيل، منتوج من الخيال الروائي أو الرواية القصيرة لك، وإن كان في تلك الحالة أنا لا يجب أن أخضع لما تسميه أنت غربتك الحقيقية، حسب نزوتك، حتى الكائنات المتخيلة كما تسميها لهم منطقهم الداخلي...

– نعم، أعرف تلك الأغنية.

– فعلا: الروائي، الكاتب المسرحي، لا يستطيعان أن يفعلا تماما كل ما يتوهمان عن الشخصية التي يختلقونها؛ كائن من خيال روائي، لا يمكن أن يقوم بفعل في أحسن قانون الفن، ما لا ينتظره أي قارئ أن يفعله...

- كائن روائي، أحيانا...
- وماذا إذا؟
- لكنه مخلوق روائي.
- لنترك تلك التهريجات التي تضايقني، وتجرحني في كل ما هو أكثر حي عندي. أنا، سواء من جهتي، حسب ما أعتقده، ليكن لأنك أنت من قدمته لي، حسب ما تفترضه أنت، أملك مزاجي، طريقتي في الحياة، منطقي الداخلي، وهذا المنطق يطالبني بأن أنتحر...
- ذلك ما ستعتقده أنت، لكنك مخطئ.
- لنرى، لماذا أخطأت؟ أين أخطأت؟ وضح لي أنت أين تتجلى أخطائي. مثل العلم الأكثر صعوبة والموجود هو أن يتعرف الواحد على نفسه شخصيا، من السهل أن أكون أنا مخطئا وألا يكون الانتحار هو الحل الأكثر منطقيا لمصائبي، لكن وضحه لي أنت. لأنه إذا كان صعبا، يا صديقي السيد ميغيل، تلك المعرفة الخاصة عن الشخص نفسه، هناك معرفة أخرى التي تبدو لي أقل صعوبة كتلك...
- ما هي؟ -سألته-.

نظر إلي نظرة مبهمة وبابتسامة ماكرة، وفي هدوء قال لي:
- إذاً الأكثر صعوبة مما يمكن أن يعرفه الإنسان عن نفسه شخصيا هو الذي يعرفهم جيدا الروائي والكاتب الدرامي عندما يخلقهما أو يعتقدانه أنه توهمها...
- لقد بدأت أنا أحس بالاضطراب مع هذه الخرجات من أوغوسطو، وإلى -إصراره-أضاف- في أنه وحتى تخويلك الذي كنت قد قدمته لي عن الكائن، والكائن الخيالي، لا تستطيع أنت، هكذا مثل هكذا ولأن نعم، لأنني قدمت له الرغبة الحقيقية، كما يقول، معرقل انتحاري.
- حسنا، يكفي! يكفي! -صاح، منزلا بلكمة على النقالة- اسكت! لا أريد أن أسمع الكلام السفيه أكثر!... ولا عن خلقتي! إذ أصبحت عندي مملا، إضافة إلى أنني لا أعرف ماذا سأفعل منك، قررت الآن نفسه، بأنك لن تنتحر، وإنما أقتلك أنا. ستموت، إذا، ولكن قريبا! قريب جدا!
- كيف؟ -صاح أوغوسطو هائجا- هل ستتركني أنت أموت، تجعلني

أموت، تقتلني؟

– نعم، سأعمل على أن تموت!

– آه، ذلك أبداً! أبداً، أبداً! –صرخ أوغوسطو–.

– آه! قلت له، وأنا أنظر إليه بأسى وغضب – مع من كنت مستعدا أن تموت ولا تريد أن أقتلك أنا؟ مع من كنت ستموت وقاومت حتى أصلب حياتك أنا؟

– نعم، ليس الأمر نفسه...

– فعلا، لقد سمعت حكايات حالات مشابهة. لقد سمعت عن أحد خرج في ليلة مسلحا بمسدس، وكان مستعداً لقتل نفسه. خرج عليه بعض اللصوص، وهاجموه، ودافع عن نفسه، فقتل أحدهم، وفر الباقون، ولما رأوا أنه قد اشترى حياته بحياة أخرى، تراجع عن هدفه.

– مفهوم –لاحظ أوغوسطو– الأمر كان هو سلب الحياة من أحد. قتل رجل، وقد قتل الآخر، ولماذا قتله؟ أكثر الانتحارات هي القتل المحبط: يقتلون أنفسهم لانعدام الجرأة على قتل الآخرين...

– آه، قلد فهمتك. اوغوسطو، أفهمك. أنت تريد أن تقول بأنه لو كانت الجرأة على قتل إوخينيا أو ماوريسيو، أو هما معا، ما فكرت في قتل نفسك؟ أليس كذلك؟

– انظر سيدي، لهؤلاء بالضبط... لا!

– لمن إذا؟

– لسيادتك! –ونظر إلي بعينيه–.

– كيف؟ –صحتُ، ونهضت واقفا– كيف؟ ولكن هل مر بخيالك قتلي؟ أأنت؟

– اجلس، وهدئ نفسك. أتعتقد، يا صديقي ضون ميغيل، أنني سأكون أول حالة يكون فيها كائن خيالي، كما تسميني أنت سيقتل لمن اختلقه ككائن... خيالي؟

– هذا زاد عن اللزوم!... قلت هذا وأنا أدور في مكتبي –هذا قد تعدى الخط!– هذا لن يقع أكثر من...

– أكثر سوى في الرواية –أنهاه هو بسخرية–.

– حسنا، يكفي، يكفي، يكفي! هذا لا يمكن احتماله! جئت

لاستشارتي، وأنت بدأت بمناقشتي عن وجودي الخاص، بعدها كان علي حسب القانون أن أفعل بك ما تمليه علي الرغبة الحقيقية، نعم هكذا كما هو شائع، حسب ما أملته الرغبة الحقيقية ما يمكن أن يتبادر لي عن...

– لا تكن أنت أكثر إسبانية، ضون ميغيل.

– وذلك أكثر، غباوة! إذاً نعم، أنا إسباني! إسباني المولد، والتربية، والجسد، والروح، واللغة وحتى المهنة والعمل، إسباني فوق كل شيء وأمام الجميع، والإسبانية هي عقيدتي، والسماء التي أريد أن أومن بها هي إسبانيا السماوية والسرمدية، وهي ربي، رب إسباني، لسيدنا ضون كيخوطي، رب يفكر بالإسبانية وبالإسبانية قال: «لتكن النور!» وفعله كان فعلا إسبانيا...

حسنا، وماذا؟ قاطعني، ليعود بي إلى الحقيقة.

– وبعدها لمح لي بفكرة قتلي. أتقتلني؟ لمن، لي؟ أأنت؟ أموت أنا على يد إحدى مخلوقاتي! لا أتحمل أكثر. ولمعاقبتك على جرأتك وتلك التعاليم المذية الشاذة الأنارشية، التي جئتني بها، المخلة والخاطئة بأنك تموت. عندما تصل بيتك ستموت. ستموت، أقولها لك، ستموت!

– ولكن بربك! –صاح أوغوسطو، وهو يتوسل ويرتعش، شاحب اللون بالخوف–.

– لا يوجد رب ينقذك. ستموت!

– لأنني أريد أن عيش، ضون ميغيل، أريد أن أعيش، أريد أن أعيش.

ألم تكن تفكر في قتلي؟

– آه، لأجل ذلك، أقسم لك السيد أونامونو، بأنني لن أقتل نفسي، ولن أسلب نفسي هذه الحياة التي منحها الله أو أنت لي؛ أقسم لك... الآن أنت الذي تريد أن تقتلني، أريد أنا أن أعيش، أن أعيش، أن أعيش...

– يا لها من حياة! صحت.

– نعم، مهما كانت. أريد أن أعيش، حتى وإن كان للعودة إلى أن تسخر مني إوخينيا الأخرى وماوريسيو الآخر يمزقان هذا القلب. أريد أن أعيش، اعيش، أعيش...

– لا يمكن أن يكون هذا... لا يمكن أن يكون...

– أريد أن أعيش، أعيش، وأكون أنا، أنا، أنا...

– ولكن إذا أنت لم تكن سوى ما أريده أنا...

- أريد أن أكون أنا، أكون أنا! أريد أن أعيش! -وبصوت عال-.
- لا يمكن هذا... لا يمكن هذا.
- انظر سيدي، ضون ميغيل، بأبنائك وزوجتك وبأعز ما تحب أكثر... انظر بأنك لن تكون أنت... من ستموت... سقط على رجلي جاثيا، متوسلا وصائحا:
- ضون ميغيل، بربك، أريد أن أعيش، أريد أن أكون أنا!
- لا يمكن هذا، أوغوسطو المسكين -قلت له، وقد أمسكته بإحدى يدي وأوقفته- لا يمكن هذا! هو عندي مكتوب، ولا رجعة فيه؛ لا يمكنك أن تعيش أكثر. لا أعرف ما الذي أفعله بك. الله، عندما لا يعرف ما يفعله بنا، يميتنا. ولن أنسى ما الذي حدث لعقلك، عندما فكرت في قتلي.
ولكن إن كنت أنا، ضون ميغيل...
- لا يهم، أعرف ما أقول. وأخاف فعلاً من أنني إذا لم أقتلك بسرعة ستقتلني أنت في النهاية.
- لكن ألم نتفق على...؟
- لا يمكن هذا، أوغوسطو، لا يمكن هذا. لقد وصلت ساعتك. ذلك مكتوب، ولا يمكنني أن أعود إلى الوراء. ستموت. لأنه لا قيمة لحياتك بعد الآن...
- ولكن... بربك...
- لا توجد لكن ولا رب يحميك. انصرف!
- إذن لا، آه؟ -قالها لي- إذن لا؟ لا تريد أن تتركني أن أكون أنا، الخروج من ضباب، أعيش، أعيش، أعيش، أرى، وأسمع، وألمس، وأحس، وأتألم، كائنا: إذاً ألا تريده؟، إذاً هل مت ككائن خيالي؟ إذاً طيب، سيدي الخالق ضون ميغيل، أنت كذلك ستموت، كذلك أنت، وستتحول إلى العدم من الذي خرجت منه...! الله سيتركك دون أن تحلم بذلك! ستموت أنت، نعم ستموت، رغم أنه لا يريد ذلك؛ ستموت أنت وسيموت كل الذين سيقرؤون قصتي، كلهم، كلهم، كلهم، لا يبقى أحد! مخلوقاتك من الخيال مثلي، ونفس الشيء أنا! سيموتون كلهم، كلهم، كلهم، أقولها أنا، أوغوسطو بيريث، كائن وهمي مثلكم، روائي نفسه مثلكم. لأنك أنت، خالقي، عزيزي ضوت ميغيل، لست أنت أكثر من كائن آخر روائي، وكائناتك الروائية هم

قراؤك، نفس الأمر، أوغوسطو بيريث، إحدى ضحاياه. أأنت ضحية؟
-صحت-
- ضحية، نعم! خلقتني لتتركني أموت! أنت كذلك ستموت! الذي خلق يخلق والذي خلق سيموت. ستموت أنت ضون ميغيل، ستموت أنت، وسيموت كل الذين يفكرون في موتي، إذا! هذا المجهود القوي في التعلق بالحياة، في المزيد من العمر، لقد تركت أوغوسطو المسكين منهكا.
- ودفعته نحو الباب، التي خرج منها مطأطأ الرأس، بعدها خمن وكأنه يشكك في وجوده الذاتي، أنا مسحت دمعة هائجة.

XXXII

في تلك الليلة نفسها غادر أوغوسطو مدينة سلامنكا حيث كان قد أتى لزيارتي. ذهب حاملا حكم الإعدام على قلبه ومقتنعا بأنه لن يتحمل ذلك، رغم أنه سيحاول أن ينتحر. المسكين، متذكرا حكمي حيث كان يسعى أن يمدد ما أمكن للعودة إلى المنزل، لكن جاذبيته غامضة، دافع حميمي كان يجره إليها. سفره، كان مؤسفا. كان ذاهبا في القطار يعد الدقائق، لكن يعدهم حرفيا: واحد، إثنان، ثلاثة، أربعة... كل بلاويه، كل أوهامه الغرامية مع إوخينيا، ومع روساريو، كل قصته المأساوية المضحكة، لزواجه المحبط كانت قد مسحت من ذاكرته أو إن صح القول انصهرت في ضباب. تقريبا كان يحس بلمس الكرسي الذي كان يريح عليه جسده. «أحقيقة أنني لا أوجد؟» -قال لنفسه- هل سيكون هذا الرجل على صواب، والذي يقول بأنني لست سوى إنتاج خياله، أنا كائن خيال خالص؟».

كانت حياته مؤخرا حزينة جدا ومؤلمة جدا، لكن ما كان يحزنه أكثر، وما كان يؤلمه أكثر هو التفكير بأن كل ذلك ما كان سوى حلم، وليس حلمه، بل حلمي أنا. العدم، كان يبدو له أكثر من الألم. أم يحلم المرء أنه يحيا... لكن ليحلمه آخر...!

«ولماذا لن أوجد أنا؟ -قال في نفسه- لماذا؟ لنفرض أن ذلك حقيقة أن ذلك الرجل شبهني، حلمني، أنتجني بخياله؛ لم أعد أعيش في خيال الآخرين، في خيال أولئك الذين سيقرؤون الحكاية، حكاية حياتي؟. وإن كنت أعيش هكذا في خيال البعض، أليس حقيقة ما هو للبعض وليس لأحد؟ ولماذا يطفو من بين صفحات الكتاب التي وضعت عليها حكاية حياتي الخيالية، أو من

الأفضل من ذهنيات أولئك الذين سيقرؤونها -أنتم الذين تقرؤونها الآن- لماذا لم أوجد كروح خالدة ومؤلمة إلى الأبد؟ لماذا؟

المسكين لم يستطع أن يستريح. كانت تمر أمام نظراته القفار القشتالية، وأشجار الصنوبر، وأشجار الأرز، كان يتأمل قمم سلسلة الجبال التي يكسوها الثلج، ينظر إلى الخلف وراء رأسه، صور أصدقائه وصديقات حياته الملفوفة بالضباب، كان يشعر أن الموت يجره.

وصل إلى منزله وطرق الباب، وفتحت له الباب ليدوبينا، شحب وجهها عندما رأته.

- ما هذا يا ليدوبينا، ما أفزعك!

- يا رب! يا رب! السيد يبدو أنه ميتا أكثر منه حيا... يحمل وجها من العالم الآخر...

- جئت من العالم الآخر يا ليدوبينا، وإلى العالم الآخر أنا ذاهب. ولست ميتا ولا حيا.

- ولكن، هل أصبحت مجنونا؟ دومينغو! يا دومينغو!

- لا تنادي على زوجك، يا ليدوبينا. لست مجنونا لا! ولست...أكرر لك، ميتا، وإن كنت سأموت قريبا، ولست حيا.

- ولكن، ماذا تقول أنت؟

- إنني لست موجودا، يا ليدوبينا، أنا لا أوجد؛ فأنا مجرد مخلوق كشخصية روائية.

- خلاص! أشياء الكتب! خذ شيئا مقويا، نم، البس، ولا تهتم بهذه الخيالات...

- لكن هل أنت تعتقدين يا ليدوبينا بأني موجود؟

- هيا، هيا! دعك من تلك الأوهام يا سيدي؛ تعالى إلى العشاء وبعده السرير! وغدا سيكون يوما آخر!

«أفكر إذن أنا موجود -كان يقولها أوغوسطو في نفسه، مضيفا- كل من يفكر يوجد وكل ما هو موجود يفكر. نعم، كل من يفكر هو موجود. أنا إذن

موجود، أنا أفكر.»

في تلك اللحظة، لم يكن يشعر بأي شهية في تناول العشاء، وليس بدافع العادة فقط، ونزولا عند رجاء خادميه المخلصين، طلب أن يقدما له بيضتين مسلوقتين لا غير، شيء خفيف. مع تناوله للبيضتين انفتحت شهيته الغريبة، وبسبب غضبه بدأ يأكل ويأكل أكثر، وطلب بيضتين أخرتين، وبعدهما شريحة لحم.

هكذا، هكذا -كانت تقول ليدوبينا- كل يا سيدي، لأن عدم شهيتك تعود إلى ضعف لا أكثر. الذي لا يأكل يموت.

- والذي يأكل يموت كذلك يا ليدوبينا -لاحظ أوغوسطو حزينا-.
- نعم، ليس جوعا.
- أو هكذا يمكن للمرء أن يموت جوعا أو بأي مرض؟

ثم فكر: «لكن، لا، لا، أنا لا استطيع أن أموت. يموت فقط الذي يحيا، الذي يوجد، وأنا بما أنني لا أوجد، لا يمكنني أن أموت... أنا خالد! ليس هناك خلود مثل ذلك الذي مثلي لم يولد ولا يوجد. كائن خيالي، هي فكرة، والفكرة هي دائما خالدة.»

- أنا خالد، أنا خالد! -صاح أوغوسطو-.
- ماذا تقول؟ جاءته ليدوبينا.
- إيتيني الآن...! لا أدري!... شريحة خنزير محلاة، والكبد، وكل ما هناك... أشعر بشهية ملتهمة!
- هكذا يعجبني أن أراك. هكذا. كل، كل، إن الذي تكون له شهية، معناه أنه يتمتع بصحة جيدة ومعافى، والمعافي يحيا!
- لكن، يا ليدوبينا، أنا لا أحيا!
- لكن ماذا تقول؟
- طبعا، أنا لا أحيا. نحن الخالدون لا نحيا، وأنا لا أحيا، أنا من الناجين؛ أنا فكرة! أنا فكرة!

بدأ يلتهم الخنزير المحلى «ولكن آكل -قال لنفسه- كيف آكل ولا أحيا؟ آكل، إذن أنا موجود! ليس هناك شك، ما سبب هذه الشهية الجشعة؟» إذ

ذاك تذكر أنه قرأ عدة مرات أن المحكوم عليهم بالإعدام، في اللحظات الأخيرة من تنفيذ حكم الإعدام فيهم يأكلون بشراهة. «هي شيء -فكرة- على أنني لم أنتبه لهذا!» شيء آخر يحكيه لنا رينان، يفهم من هذا أن بعضا من المحكوم عليهم بالإعدام، قبل الموت، يشعرون بغريزة البقاء؛ والإنجاب، ولكن الأكل!... وإن كان، نعم، نعم، الجسد يدافع عن نفسه. الروح عندما تعلم بأنها ستموت، تحزن أو تتهيج، لكن الجسد إذا كان سليما يدخل في شهية متوحشة. لأن الجسم كذلك يعلم بذلك.

– نعم، إنه جسدي، جسدي الذي يدافع عن نفسه. آكل بشراهة، ثم سأموت!

– يا ليدوبينا، إيت بالجبن، والعجائن، والفواكه...

– هذا قد بدا لي مفرطا يا سيدي، بشكل كثير. سيضرك!

– إذن ألم تقولي بأن الذي يأكل موجودا؟

– نعم، لكن ليس هكذا، بما أنك الآن تأكل، إنك تعلم يا سيدي المقولة التي تقول: «قتل العشاء ما عافاه ابن سينا»

– أنا لن يقتلني العشاء.

– لماذا؟

– لأنني لست حيا، لا أوجد، قلت لك ذلك.

ليدوبينا ذهبت لتنادي على زوجها، وقالت له:

– يا دومينغو إن السيد قد جن... يقول أشياء غريبة... أشياء من الكتب... أشياء لا توجد... لا أدري أنا.

– ما هذا يا سيدي؟ -قال دومينغو عندما دخل عليه- ما الذي يحدث لك؟

– آه، يا دومينغو-أجاب أوغوسطو بصوت الشبح- لا استطيع علاجه؛ أشعر برعب جنوني للنوم...!

– إذن لا تنم.

– لا، ليس بالتحديد، لا استطيع أن أبقى واقفا على قدمي.

– أنا أعتقد بأن السيد يجب عليه أن يتمشى بعد تناول العشاء. لقد تعشى بما فيه الكفاية.

حاول أن يقف أوغوسطو على رجليه
- أرأيت يا دومينغو، أرأيت؟ لا أستطيع الوقوف على رجلي.
- واضح، لكثرة الطعام في المعدة...
- على العكس، مع التوازن يمكن للواحد أن يكون أحسن على رجليه. لأنني غير موجود. انظر، قبل الآن، عند العشاء كان يبدو لي كما لو أن كل ذلك قد بدأ في النزول من الفم إلى برميل بدون قاع. الذي يأكل يعيش، معك حق يا ليدوبينا، لكن من يأكل كما أكلت أنا هذه الليلة، من اليأس، لأنه غير موجود. أنا لست موجودا...
- عجبا، عجبا، دعك من هذه الحماقات، اشرب قهوتك وكأسك، كي تدفع كل ذلك، وتقوم بجولة. سأصحبك أنا.
- لا، لا استطيع الوقوف على رجلي. ألا ترى؟
- إنه حقيقة.
- تعالي لأتكئ عليك. أريدك أن تنامي هذه الليلة في غرفتي، على نضيدة سنضعها لك، ستسهرين معي...
- سيكون أحسن، يا سيدي، لأنني سوف لن أنام، وأن أبقى هناك، على إحدى الأرائك...
- لا، لا، أريدك أن ترقدي وتنامي، أريد أن أشعر بك تنامين، وأسمع شخيرك أحسن...
- كما تريد سيدي...
- والآن انظر، إيتيني بورقة وقلم. سأضع برقية والتي سوف ترسلها على عنوانها هكذا عندما أموت...
- لكن يا سيدي!...
- افعل ما أقوله لك!

امتثل دومينغو لأمره، وحمل له الورقة والمحبرة، وكتب أوغوسطو ما يلي:

سلامنكا

سلامنكا

أونامونو

– لقد خرجت أنت مع ما كنت ترغب فيه. لقد مت.
– أوغوسطو بيريث
– حينما أموت، ابعثها، إيه؟
– كما تريد سيادتك –أجاب الخادم حتى لا يتناقش أكثر مع سيده–.

توجها معا إلى الغرفة. أوغوسطو المسكين كان يرتعش لدرجة لم يستطع أن ينزع ثيابه ولا حتى الإمساك بها لنزعها.
– اخلع عني ثيابي أنت! –قالها ل دومينغو–.
– لكن ما الذي حدث سيدي؟ يبدو وكأنه زاره إبليس! إن لونك أبيض وبارد كالثلج. أتريد أن أنادي على الطبيب؟
– لا، لا، لن ينفع.
– ندفئ لك السرير...
– لماذا؟ اتركه! واخلع عني ثيابي كلها، كلها، اتركني كما ولدتني أمي... كما ولدتني...!
– لا تقل سيدي تلك الأشياء!
– الآن، ضعني، ضعني، أنت نفسك فوق السرير، لأنني لا أستطيع الحركة.
المسكين دومينغو، متخوفا من حاله، ساعد سيده المسكين على التمدد.
– والآن، يا دومينغو، قل لي في أذني بهدوء صلاة الرب، الصلاة باسم العذراء مريم وخلاصها وإعادة تلك الصلوات ذهنيا هكذا... هكذا، شيئا فشيئا، شيئا فشيئا... –وبعد ذلك كنت أرددها في ذهني– الآن، انظر، اقبض على اليد اليمنى، أخرجها لي، يبدو لي بأنها ليست لي، كما لو كنت قد فقدتها... وساعدني على تعقبه... هكذا. هذه الذراع قد تكون ميتة. انظر إن كنت أتوفر على قوة... الآن دعني، دعني إن كنت سأنام قليلا... لكن غطيني، غطيني جيدا...
– نعم، من الأحسن أن ينام –قال دومينغو، بينما كان يجر أطراف اللحاف– هذا سيحدث له وهو ينام...
– نعم وهو ينام، ما سيحدث لي معه... لكن لقد قلت، هل أنني لم أقم أبدا بأكثر من النوم؟ بأكثر من الحلم؟ أكل ذلك كان أكثر من ضباب؟

– حسنا، حسنا، دع عنك تلك الأشياء. كل ذلك ليس سوى أشياء من الكتب، كما تقول عزيزتي ليدوبينا.

– أشياء الكتب... أشياء الكتب... وما هي الأشياء التي ليست من الكتب يا دومينغو؟ هل أنه قبل أن توجد الكتب بشكل من الأشكال، قبل أن تكون الحكايات، قبل أن تكون الكلمات، قبل أن يكون الفكر، كان هناك شيء؟

– وهل بعد غياب الفكر سيبقى شيء؟ أشياء توجد في الكتب فقط!

– وما هو الشيء الذي ليس من الكتب؟ هل تعرف ضون ميغيل دي أونامونو يا دومينغو؟

– نعم، لقد قرأت عنه في الأوراق. يقولون بأنه شخص غريب لا يتعاطى إلى قول الحقيقة ولا يهمه أي شيء آخر.

– ولكن هل تعرفه؟

– أنا؟ لماذا؟

– أونامونو هو كذلك شيء من الكتب... ونحن كذلك...وهو سيموت، نعم سيموت، سيموت كذلك، وإن لم يرغب في ذلك... سيموت! وذلك سيكون ثاري. ألا تريد أن تتركني أحيا؟ ولكنه سيموت..!

– طيب دعه في سلام، وأن يموت عندما يريد الله، وأنت اخلد إلى النوم!

–نم، نم.. لتحلم... يموت!..، نم،.. نم...، احلم ربما!... أفكر، ثم أكون، أكون، ثم أفكر... لا أوجد، لا!، لا أوجد... يا أماه!...إوخينيا... روساريو... أونامونو... –وبقي نائما–.

وبعد برهة، انتصب على الفراش شاحب الوجه، وهو يتأوه وعيناه سوداوان ومرعبة، ناظرا إلى ما هو أبعد من الضباب، ويصيح: «إوخينيا، إوخينيا!». حضر إليه دومينغو. وترك رأسه ينزل على صدره، ومات. وعندما حضر الطبيب، خاله ما زال حيا، تكلم عن الحجامة، أن يحجم له، وفي الحين اقتنع بحقيقته المحزنة.

– مات بسبب القلب... بارتفاع ضغط الدم، قال الطبيب.

– لا، يا سيدي –أجابه دومينغو– كان بسبب شراهة الأكل. تعشى

بطريقة رهيبة، لم تكن من عادته، بطريقة لم يكن متعودا عليها كما كان يجب أن يأكل.

– نعم، كان عليه أن يتخلى عن الأكل بتلك الطريقة، أليس كذلك؟ ربما أن قلبه كان له إحساس مسبق بالموت.

– إذ أنا –قالت ليدوبينا– أعتقد بأن السبب كان في الرأس. حقيقة أنه تعشى بطريقة حمقاء، لأنه لم يكن يدرك ما كان يفعل، ويقول حماقات...

– ما هي هذه الحماقات؟ سألها الطبيب.

– أنه لم يكن يوجد، وأشياء من هذا القبيل...

– أهي حماقات؟ –أضاف الطبيب ضاغطا أسنانه وكأنه يتكلم مع نفسه– من يدري هل هي حماقات أم لا؟ من يدري هل كان يوجد أم لا؟ وعلى الأقل هو بنفسه؟... الواحد بنفسه هو أقل من يعلم عن وجوده... لا يوجد سوى من أجل الآخرين... –ثم أضاف بصوت مرتفع–: القلب، والمعدة، والرأس هي ثلاثة تكون شيئا واحدا.

– نعم، يشكلون طرفا من الجسم –قال دومينغو–.

– والجسم هو نفس الشيء.

– من دون شك!

– لكن أكثر ما تعتقده أنت.

– وأنت تعرف، سيدي، ما أعتقده أنا؟.

– إنه حق كذلك، وأرى أنك لست بليدا.

– لا أملك إطلاقا، سيدي الطبيب، أنا لا أفهم أولئك الناس، الذين يعثرون على أي شخص كان، والذي يبدو لهم حسب تقديرهم أحمق، بينما أثبتت التجربة عكس ذلك.

– حسنا، إذن، كما كنت أقول –تابع الطبيب– المعدة تهيء السوائل المنتجة للدم، القلب يمددها إلى الرأس وإلى المعدة لكي يعملا، والرأس يدير حركات المعدة والقلب. ولذلك فإن هذا السيد، ضون أوغوسطو مات بثلاثة أشياء، بجميع الجسد، بتركيباته الثلاث.

– إذن أنا أعتقد –تدخلت ليدوبينا– بأن سيدي كان قد أدخل في رأسه بأنه يموت وهذا واضح! الذي يصر على الموت، يموت في النهاية.

– إنه واضح! –قال الطبيب– إذا كان الواحد لا يؤمن بأنه سيموت

ولا حتى في حالة احتضاره، ربما لن يموت. ولكن، هكذا يتسرب له أدنى شك بأنه لا يستطيع على الأقل أن يموت، إنه ضائع.

- ما حل بسيدي كان انتحارا وليس أكثر من انتحار. جلس للعشاء كما كان يتعشى، جاء كما كان يأتي هذا الانتحار وليس أكثر من انتحار. لقد خرج معها!

- الحزن ربما...

- كبير، كبير جدا! النساء!

- نعم! نعم! لكن في النهاية، الأمر ليس له علاج آخر غير إعداده للدفن.

- وبكى دومينغو.

XXXIII

عندما توصلت بالبرقية التي تخبرني بوفاة المسكين أوغوسطو، وعلمت بعدها بالأسباب كلها لذلك، فكرت في ما إن كنت فعلت فعلا حسنا أم لا، حين قلت له ما قلت في ذلك المساء الذي جاء فيه لزيارتي واستشارتي حول فكرة انتحاره. وحتى إنني ندمت على دفعه إلى الموت. لقد وصلت إلى فكرة وهي أنه كان على حق، وأنه كان علي ن أتركه يخرج بفكرته الانتحارية. وحدث لي كأنني أحييته.

نعم -قال لي- بأنني سأحييه ويفعل بعد ذلك ما يرغب فيه من الانتحار، إن كان هو قصده، ومع فكرة إحيائه بقيت نائماً.

بعد نومي بقليل بدا لي أوغوسطو في الأحلام. كان أبيضا، مع بياض السحاب، وما حولها من أنوار كما لو كانت الشمس في غروبها. نظر إلي بتركيز وقال لي:

- أنا هنا مرة أخرى!

- لماذا أتيت؟ قلت له.

- لأودعك السيد ضون ميغيل، لتوديعك إلى الأبد، وآمرك هكذا، آمرك، لا أتوسل، آمرك بأن تكتب أنت الرواية عن مغامراتي...

- إنها مكتوبة!

- أعرف ذلك، كلها مكتوبة، وأتيت أيضا لأقول لك بأن ذلك الذي فكرت فيه عن إحيائي كي أسلب بعد ذلك أنا حياتي بنفسي، هي هذيان لا أكثر، إنها واحدة من المستحيلات... أهي من المستحيلات؟ -قلت له، طبعا، كل هذا في الحلم-.

– نعم، واحدة من المستحيلات! ذلك المساء الذي التقينا فيه وتحدثنا في مكتبك أتذكره؟ كنت مستيقظا وليس مثل أنت الآن، نائما وتحلم، قلت لك بأننا، كائنات وهمية، حسب قولك، نملك منطقنا وأنه لا يصلح لمن يخلقنا الادعاء بأن يفعل بنا ما تمليه رغبته، أتتذكر؟

– نعم أتذكره.

– والآن أنا متأكد من أنه رغم أنك إسباني، لن تكون لك أنت الرغبة الحقيقية في العدم. هل هذا حقيقة يا ضون ميغيل؟

– لا، لا أحس بالرغبة في العدم.

– لا، إن الذي ينام ويحلم ليس له رغبات حقيقية في العدم. وأنت ومواطنوك تنامون، ويحلمون، وتحلمون بأنكم تملكون الرغبة ولكن لا تملكونها حقيقة.

– شكرا، لأنني كنت أنام –قلت له– وإلا كان...

– وهو كذلك. وفيما يتعلق بإعادتي إلى الحياة، لقد سبق أن قلت لك بأنه غير ممكن عمله، ولا تستطيع ذلك حتى وإن أردت أو حتى وإن كنت تريده في الحلم.

– ولكن، يا رجل!

– نعم، بالنسبة لمخلوق من الخيال مثله مثل الواحد من لحم وعظم، الذي تسميه أنت الرجل من لحم وعظم وليس من خيال اللحم وخيال العظم، يمكن للواحد أن يوجده ويمكن أن يقتله، لكن مجرد قتله لا يمكن، لا! لا يستطيع أن يحييه. أن تخلق رجلا فان ولحمي، من لحم وعظم، يتنفس الهواء، إنه شيء سهل، سهل جدا وأكثر بسبب المصيبة... لكن أن تحييه؟ أن تعيده إلى الحياة أمر مستحيل!

– تماما –قلت له– إنه مستحيل!

– إذن نفس الأمر –رد علي– بالضبط نفس الأمر يحدث مع ذلك الذي تسميه أنت كائن خيالي؛ من السهل منحنا الوجود ربما أكثر سهولة، وإنه من السهل جدا قتلنا، ربما بطريقة سهلة، سهلة جدا، لكن هل يحيينا؟، ليس هناك من أحيا حقيقة كائنا خياليا والذي كان قد مات حقيقة. هل تعتقد أنت أنه من الممكن إحياء ضون كيخوطي؟ –سألني–.

– مستحيل –أجبته–.

– إذن في نفس الحالة نحن كلنا وعامة الكائنات الخيالية.

– وإن أعدتك إلى الحلم؟

– لا يحلم مرتين نفس الحلم. ذلك الذي ستعود حلمه وتعتقده هو أنه سيكون الآخر. والآن، الآن حيث أنا نائم وتحلم وتعترف بكونك أنت وأنا، أنا هو الحلم، وأسلم بذلك، الآن أعود لأقول لك إن أكثر ما هيجك عندما قلت لك في المرة السابقة: انظر أنت، عزيزي ضون ميغيل، لن تكون حيا لكونك كائن خيالي، الذي لا يوجد في الواقع، لا هو حيا ولا هو ميتا... لن يكون، إذن أنت لم تمر بعلة حتى تكون قصتي، وقصص الآخرين أمثالي، تركض عبر العالم. وبعد ذلك، حين تموت بشكل نهائي، سنحمل روحك نحن. لا، لا، لا تضطرب، لأنه رغم أنك نائم وتحلم ما زلت تحيا. والآن إلى اللقاء!

– وتلاشى في ضباب أسود.

– أنا قد حلمت بعدها بأنني أموت، وفي الوقت نفسه الذي حلمته كنت في اللحظات الأخيرة من التنفس، واستيقظت على ضيق في صدري، وهذه هي قصة أوغوسطو بيريث.

الخاتمة

صلاة جنائزية في شكل خاتمة

من العادة عند نهاية الرواية، وبعد موت البطل أو يتزوج بطل الرواية، أن نلم بنصيب باقي الشخصيات فيها. لن نترصدها هنا، ولا أن نعطي بالتالي أي خبر عن ماذا كان مصير إوخينيا وماوريسيو، وروساريو، وليدوبينا ودومينغو، وللسيد ضون فيرمين والسيدة إرميليندا، وبيكطور وزوجته وباقي الشخصيات التي كانت تحيط بأوغوسطو أو قدمها لنا، ولا عن ما يمكن قوله عن موته الغريب، وإحساسهم وتفكيرهم. سنقوم فقط باستثناء، وهو لصالح من كان أكثر عمقا، وأكثر إخلاصا، وأحس بموت أوغوسطو، إنه كلبه أورفيو.

وأورفيو، فعلا وجد نفسه يتيما، عندما قفز إلى الفراش، واكتشف موت صاحبه، أحس بموت صاحبه، أعاد إلى روحه الكلبية كثافة ضباب أسود، كانت له تجربة مع أموات آخرين، كان قد شمها، ورأى الكلاب والقطط ميتة، كان قد قتل فأرا، شم رائحة الرجال الميتين، لكن سيده كان يظنه خالدا. لأن سيده كان بالنسبة له مثل إلاه. وعندما أحسه الآن ميتا أحس بأنه قد انهار تدريجيا في روحه العميقة كل إيمان بالحياة والكون، وامتلأ صدره حزنا. وقبع عند قدمي سيده الميت، فكر هكذا:

«مسكين سيدي، مات كل شيء، كل شيء يموت في! كم هو سيء أن يموت لي الكل، أن يموت الكل لي أنا! مسكين سيدي! مسكين سيدي! هذا الذي يرقد هنا، أبيض، بارد، برائحة ستصبح نتنة، ولحم مأكول، هذا لم يعد الآن سيدي. لا، ليس هو. أين ذهب سيدي؟، أين الذي كان يداعبني، الذي

كان يكلمني؟

ياله من حيوان غريب، إنه الإنسان الذي لم يكن يتقدمه أحد أبدا. كان يداعبنا دون أن نعرف لماذا وعندما نداعبه نحن أكثر، وعندما نذعن له أكثر يرفضنا أو يعاقبنا. ليس ثمة طريقة لمعرفة ماذا يريده، وإن كان يعرفه هو نفسه. يبدو دائما موجودا في شيء آخر عما هو فيه نفسه، ولا ينظر إلى ما ينظر إليه. هو كما لو كان قد وجد عالما آخر له. وهذا واضح، لو كان هناك عالم آخر، وليس موجودا.

ثم يتكلم أو ينبح، بطريقة معقدة. نحن كنا نعوي ومن أجل تقليده تعلمنا النباح، ولا حتى هكذا نتفاهم معه. نتفاهم معه فقط حقيقة عندما يعوي هو كذلك. عندما يعوي الرجل أو يصرخ أو يهدد نفهمه جيدا نحن عن باقي الحيوانات. كأنه إذ ذاك غير عاقل في العالم الآخر!... لكنه ينبح على طريقته، يتكلم، وذلك ما ساعده على أن يتكر ما لم يكن موجودا ولا يركز على الذي هو موجود. وبمجرد ما أن وضعوا له اسما ما، وإن كان لا يراه، لا يفعّله سوى في الاستماع إلى الاسم الذي منحوه، أو يراه مكتوبا. اللغة تنفعهم في الكذب، وابتكار ما ليس موجودا، والالتباس. وكل ذلك بحجة أنه يتكلم مع الآخرين أو مع نفسه. لدرجة أنه قام بمعاداة الكلاب!

إنه حيوان مريض، لاشك في ذلك! يبدو وحده يستمتع بلحظة صحية عندما ينام، وليس دائما، لأنه أحيانا حتى وهو ينام يتكلم! وهكذا كذلك قد عادا نابه. نقل عدوى أشياء كثيرة!

ثم يسبنا! يدعي قلة الحياء والبهتان، هذه هي الأفعال الكلبية أو أفعال تدل على انعدام الحشمة والحذر منه، هو الحيوان المنافق بامتياز. الكلام هو الذي جعله منافقا. مثل النفاق الذي يمكن أن يطلق عليه الأنتروفيزم والحذر يسميه القذارة، وقد أراد أن يجعلنا منافقين، بمعنى مهرجين، نصابين لأنفسنا نحن الكلاب! الكلاب، لم نكن خاضعين ومدجنين للإنسان مثل الثور والفرس بالقوة، وإنما تآلفنا معه بحرية، في اتفاقية متبادلة، ليسخرنا للصيد. نحن من يكتشف له الغنيمة، وهو من يقوم باصطيادها، ويمنحنا نصيبنا منها. وهكذا،

في عقد اجتماعي، تولدت عنه جمعيتنا التضامنية.

وكان جزاؤنا هو الاتهام بممارسة الدعارة، وسبنا. ويريد منا أن نشخص مسرحية هزلية، القرود والكلاب مروضين! كلاب مروضة، يطلقونها على الكلاب التي يعلمونها تقديم المهازل، حيث يلبسونها ويجعلونها تمشي على أرجلها الأخيرة واقفة!

كلاب مروضة! لذلك يطلقون عليه الناس العلم، تقديم مهازل المشي على رجلين!

الأمر واضح، الكلب الذي يقف على رجلين، يتعلم ذلك بوقاحة واستهتار، وقلة الحياء! هكذا فعل الإنسان، أن يجعله يقف، أن يحوله إلى حيوان ثديي فقري، وأحس بقلة الحياء والحاجة الأخلاقية لستر هذه الوقاحة التي علموها له. و لذلك يقول التوراة، حسب ما سمعته، أن أول إنسان، (آدم) بمعنى، أولهم الذي مشى على قدمين، أحس بالخجل في الظهور عاريا أمام خالقه. ولأجل ذلك اخترع الثياب ليستر عضوه الجنسي. لكن عندما بدأوا يلبسون نفس الشيء للذكر والأنثى، لا يميزون أنفسهم، لا يتعرفون عن بعضهم. ومن هنا بدأت آلاف الفظائع الإنسانية... التي يصرون على أن يسموها الكلبية المستهترة. إن الإنسان هو الذي حرف وأفسد الكلاب، وجعلونا كلبيون المستهترة، ذاك هو نفاقنا. الاستهتار عند الكلب نفاق، كما هو النفاق عند الإنسان استهتار. لقد نقلنا العدوى إلى بعضنا البعض.

لقد لبس الإنسان، أولا، نفس الهندام للذكر والأنثى، وبما أنهم يسببون التباسا، كان عليهم اختراع الهندام المختلف، لكل جنس لباس خاص به.

تلك السراويل ليست إلا نتيجة وقوفه على قدميه. يا له من حيوان غريب هو الإنسان! لا يكون أبدا في الذي يجب أن يوجد فيه، حيث يكون، ويتكلم ليكذب ويلبس! مسكين سيدي بعد قليل سيدفن في مكان مخصص لذلك. الإنسان يحفظ أو يخزن موتاه، دون أن يتركهم عرضة لتلتهمهم الكلاب والغربان! ويترك ما يتركه كل حيوان، بدء بالإنسان، يترك في الدنيا: عظام،

يخزنون موتاهم!

حيوان ناطق، يلبس ويخزن موتاه! مسكين الإنسان، مسكين مولاي! مسكين مولاي! كان إنسانا، نعم، لم يكن أي إنسان، كان إنسانا فقط! لكنه كان مولاي! وكم دونه أعتقده ولا أفكره، أنا مدين له!... كم! كم! علمته بصمتي، بلعقي، بينما كان هو يكلمني، يكلمني! «أتفهمني؟»، كان يقول لي. نعم، كنت أفهمه، بينما كان يكلمني ويكلم نفسه، كان يتكلم مع الكلب الذي كان بداخله. أنا أبقيت استهتاره يقظا.

حياة الكلاب التي عاشها، كلبية جدا! وكبيرة جدا! وأفعال الكلاب كبيرة جدا، أو من الأحسن، أفعال الرجال التي قام بها هؤلاء الاثنان! أفعال الرجال التي قام بها ماوريثيو، وأفعال النساء التي فعلت معه إوخينيا! مسكين مولاي!

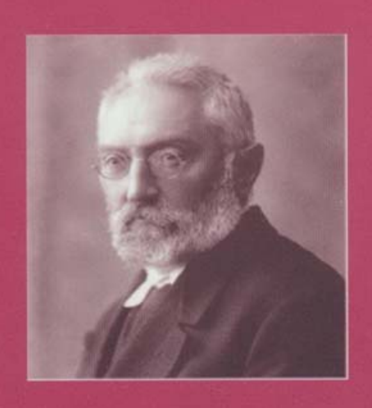
والآن ها هو هنا، بارد وأبيض، لا يتحرك، لابس، نعم، لكن بدون كلام لا من الخارج ولا من الداخل، لم يبق لك ما تقوله لكلبك أورفيو، وليس له كذلك ما يقوله لك أورفيو بصمته.

مسكين مولاي! ماذا سيكون مصيره الآن؟ أين سيكون من كان يتكلم ويحلم به! لعلعه هناك في الأعلى، في العالم الطاهر، في الهضبة الأرضية العالية، في الأرض الطاهرة كلها بالألوان الطاهرة، كما رآها أفلاطون، الذي يسمونه الإلهي، في ذلك الغطاء الأرضي الذي تسقط منه الأحجار الكريمة، حيث يوجد الرجال الطاهرون، يشربون الهواء ويتنفسون الأثير. هناك توجد كذلك الكلاب الطاهرة، تلك التي كانت تحتضن سان أومبيرطو الصياد، والقديس دومينغو دي غوثمان، وفي فمه المشعل، وسان روكي الذي يقولون عنه بأنه أحد المبشرين، وكان يشير بيديه إلى صورته: «انظروا إلى سان روكي مع كلبه الصغير و معه كل شيء!» هناك في العالم الطاهر الأفلاطوني، في عالم الأفكار المجسدة، يوجد الكلب الطاهر، الكلب المستهتر الحقيقي...! وهناك يوجد سيدي!.

«أشعر بأن روحي الطاهرة تتواصل مع روح هذا الميت، وهذه الطهارة هي لسيدي، وهي تطمح نحو ضباب حيث انحل فيها أخيرا، وإلى ضباب انفجر منه، وأورفيو يحس بقدوم ضباب مظلم كثيف... والذي انطلق قافزا ومحركا ذنبه نحو سيده -مولاي! مولاي! مسكين هذا الرجل!-»

دومينغو وليدوبينا أخذا بعد ذلك الكلب الميت عند قدمي سيده مطهرا مثله، ومثله ملفوف في ضباب مظلم. ودومينغو المسكين، عندما نظر إلى ذلك حزن وبكى، لا يعرف جيدا هل بسبب موت سيده أو بسبب موت الكلب، وإن كان الأكثر صوابا، أنه بكى عندما شهد ذلك المثال الرائع من الإخلاص والوفاء، وقال،و يقولون فيما بعد أن المصائب لا تقتل!

منشورات ليتوغراف



ميغيل دي أونامونو (1864/1936)، أديب ومفكر إسباني معاصر يعتبر من أشهر المفكرين الإسبان، أمثال أورطيغا إي غاسيط، وأنخيل غانيبيط، وخوليان مارياس وأكثرهم تأثيرا في بلاده، كان ينتمي إلى مذهب الفلسفة الوجودية. ولد ميغيل دي أونامونو في مدينة بلباو الواقعة على خليج الباسك في شمال إسبانيا عام 1864. وتلقى تعليما دينيا في طفولته، ترك في نفسه آثارا إيمانية عميقة، ثم درس الفلسفة الكلاسيكيات في مدريد، وتأثر بديكارت وهيجل وفخته... وكان حجة عصره في مجالات فكرية وفلسفية وأدبية مختلفة ومتعددة. كان قد تعرض أثناء دراسته لأزمة دينية قوية، حصل على دكتوراه في الآداب برسالة في "اللغة الباسكية" (اللغة القومية لإقليم الباسك الذي ينتمي إليه)، عاد بعدها إلى بلدته بلباو، ليمارس الكتابة الصحفية والتدريس الخاص حتى سنة 1891، وفي هذه السنة تقدم لشغل كرسي علم النفس والمنطق والأخلاق في جامعة مدريد، ولكنه أخفق في الحصول عليه، وأخيرا حصل على كرسي اللغة والأدب.

كانت مواقفه السياسية دائما ضد الأنظمة الديكتاتورية التي أقيمت في إسبانيا منذ بداية القرن العشرين، وفي سنة 1936، فرضت عليه الإقامة الإجبارية إلى أن توفي يوم 31 دجنبر سنة 1936.

Ediciones Litograf منشورات ليتوغراف